دعاء الأسحار للإمام عليّ بن الحسين السجاد عليه السلام

برواية أبي حمزة الثمالي

آية الله محمدمهدي الآصفي

بمناسبة إقامة المؤتمر العالمي للإمام السجاد عليه السلام







دعاء الأسحار

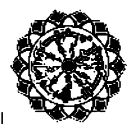
للإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام

برواية أبي حمزة الثمالي

شرح وتعليق

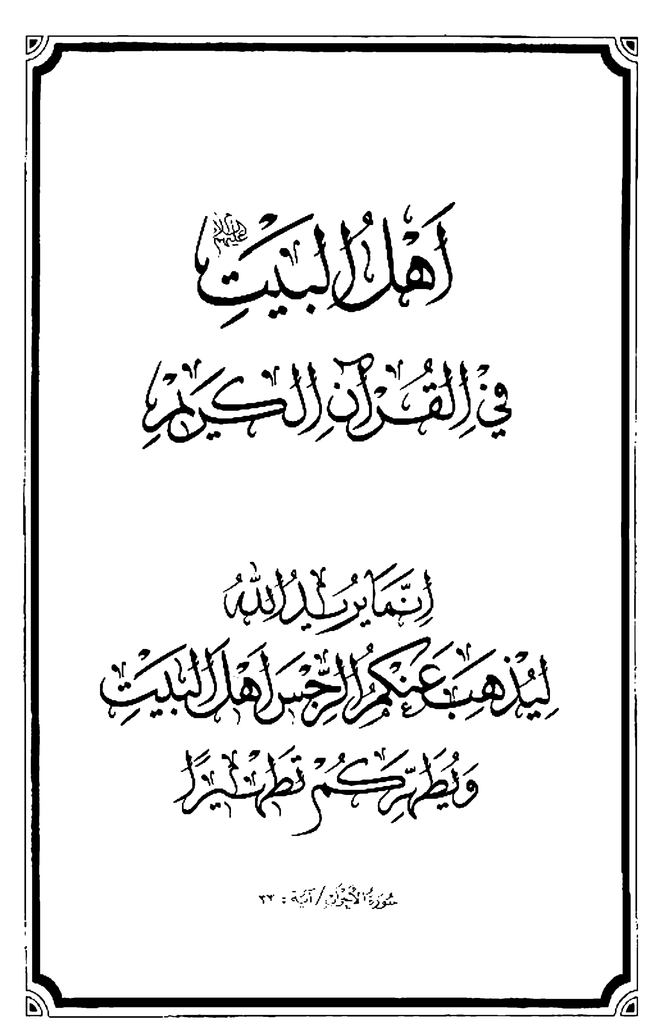
الشيخ محمّد مهدي الآصفي

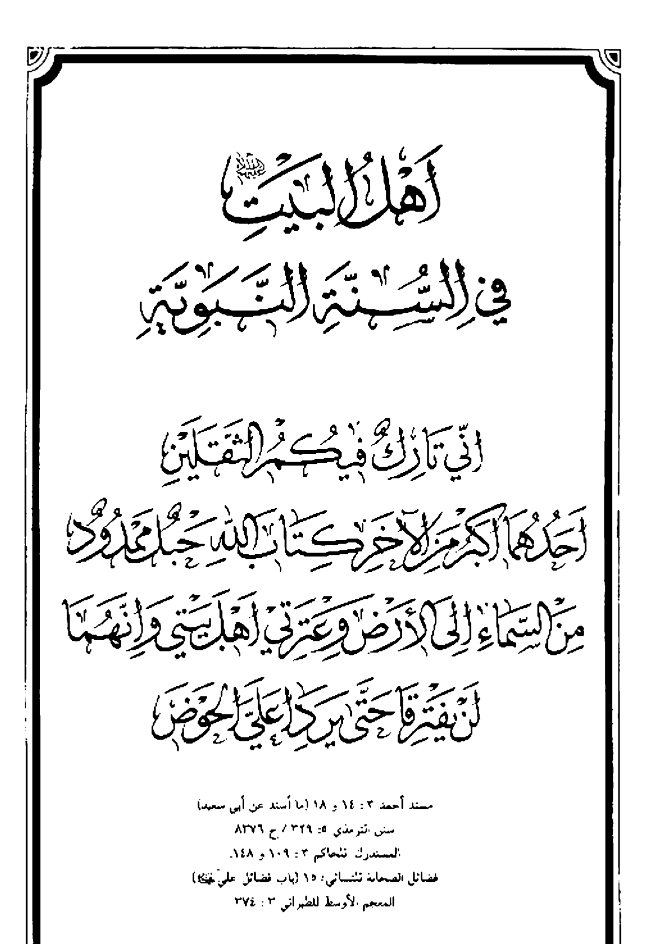
سرشناسه: علی‌بن حسین (ع)، امام چهارم، ۳۸ - ۹۴ق.
عنوان و نام‌پدیدآورنده : دعاء الاسحار للامام علی بن الحسین السجاد علیه السلام بروایه ابی حمزه الثمالی/ شرح و تعلیق محمدمهدی الآصفی
مشخصات نشر: قم : مجمع جهانی اهل بیت علیهم السلام ، ۱۴۳۶ق.= ۱۳۹۴.
مشخصات ظاهری: ۱۶۲ص.
شابک: ۱-۸۳۳-۵۲۹-۹۶۴-۹۷۸
وضعیت فهرست نویسی: فیپا
یادداشت: این اثر به مناسبت برگزاری همایش بین المللی امام سجاد علیه السلام منتشر شده است.
موضوع: علی‌بن حسین (ع)، امام چهارم، ۳۸ - ۹۴ق.
موضوع: دعاها
شناسه افزوده: آصفی، محمدمهدی، ۱۳۱۶ - ، شارح
شناسه افزوده: همایش بین المللی امام سجاد علیه السلام (۱۳۹۴، تهران)
شناسه افزوده: مجمع جهانی اهل بیت علیهم السلام
رده بندی کنگره: ۱۳۹۴ ۵الف ۸ع/ ۲۶۷/۱ BP
رده‌بندی دیویی: ۲۹۷/۷۷۲



اسم الكتاب: دعاء الأسحار للإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام
شرح وتعليق : الشيخ محمّد مهدي الآصفي
الموضوع: دعاء
التصحيح والاخراج الفني: قاسم البغدادي
الناشر: المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام
الطبعة: الأولى
المطبعة: مجاب
الكميّة: ۱۰۰۰
تاريخ النشر: ١٤٣٦ هـ. ش
ردمك: ISBN : ۹۸۷_۹٦٤_۵۲۹_۸۳۳_۱

العنوان: قم، شارع جمهوري إسلامي، رأس الفرع ٦، الهاتف: ۳۲۱۳۱۲۲۱ ـ ۰۲۵
طهران ، شارع كشاورز، مقابل منتزه لاله، رقم ۲۲۸، تلفن: ۸۸۹۷۰۱۷۱ ـ ۰۲۱
www. ahl-ul-bayt.org www.abwacd.com
info@ahl-ul-bayt.org www.abna.ir


أهل البيت عليهم السلام
في القرآن الكريم
إنما يريد الله
ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيرا
سورة الأحزاب / آية : ٣٣


أهل البيت عليهم السلام
في السنة النبوية
إني تارك فيكم الثقلين
أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود
من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما
لن يفترقا حتى يردا علي الحوض
مسند أحمد ٣: ١٤ و ١٨ (ما أسند عن أبي سعيد)
سنن الترمذي ٥: ٣٢٩ / ح ٣٧٨٦
المستدرك للحاكم ٣: ١٠٩ و ١٤٨.
فضائل الصحابة للنسائي: ١٥ (باب فضائل علي عليه السلام)
المعجم الأوسط للطبراني ٣: ٣٧٤

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

(غافر: ٦٠)

مقدمة المجمع

إنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي تجسّد الإسلام المحمّدي الأصيل، وتستند إلى مصدر الوحي، ذات معارف كبرى تتصف بأعلى درجات الإتقان، والإستدلال، والمنطق الجزل، وتتطابق مع الفطرة الإنسانية السليمة.«فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا». إنّ هذه المدرسة الثرّة والوضّاءة، قد اعتنت وتسامت وانتشرت بفضل الرعاية الربّانية وبإرشادات الأئمة الأطهار عليهم السلام، وبجهاد وجهود الآلاف من العلماء والفقهاء.

لقد أدّى انتصار الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني قدس سره إلى إقامة نظام الجمهورية الإسلامية وفقاً لمبدأ ولاية الفقيه، ما أدّى إلى استقطاب أنظار الكثير من أحرار العالم إلى هذه المدرسة وخاصة المسلمين منهم.

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام وليد هذا التغيير المبارك في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وجاء انطلاقاً من فكرة ابتكرها المرشد الأعلى للثورة الإسلامية سماحة آية الله العظمى الخامنئي(مُدّ ظلّه الوارف) في عام ١٩٩٠م. واضطلع حتى الآن بتقديم خدمات جليلة في مجال الدعوة وترويج معارف القرآن وأهل البيت عليهم السلام والذود عن حياض القرآن الكريم وأتباع أهل البيت عليهم السلام.

إن المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام وفي سياق نهوضها برسالتها من أجل الإرتقاء بمستوى الوعي والمعرفة لدى أتباع أهل البيت عليهم السلام وترصين دعائم البيت الشيعي، قامت بتأليف الكتب واصدار المجلات بعدة لغات حيّة، وبكافّة الوسائل الثقافية المعاصرة المتاحة، بمختلف المواضيع على مستوى المخاطبين وفي شتى المجالات والميادين، قامت بعقد المؤتمر الدولي للإمام علي بن الحسين السجّاد عليه السلام.

وهنا أرى لِزاماً عليَّ أن أقدّم شكري للجهود المتواصلة التي بذلها الأمين العام

للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام سماحة الشيخ محمّدحسن الاختري (دام عزّه)، وسماحة آية الله الشيخ قربان علي دري نجف آبادي، نائب رئيس المجلس الأعلى للمجمع ورئيس اللجنة العلمية لمؤتمر العالمي للإمام السجاد عليه السلام. وسماحة الشيخ محمّد سالار معاون الشؤون الدولية، والمهندس مجد حكمت معاون الشؤون التنفيذية، وأعضاء اللجنة العلمية للمؤتمر أصحاب السماحة: الشيخ محمّدهادي اليوسفي الغروي، السيّد محمّدرضا الحسيني الجلالي، السيّد محسن الحسيني الأميني، السيّد منذر الحكيم، الشيخ حميدرضا المطهّري، الشيخ رمضان المحمّدي، السيد محمّدرضا آل أيوب، والشيخ عبّاس الجعفري مدير لجنة الدراسات الاستراتيجية وسكرتير اللجنة العلمية لإقامة المؤتمر العالمي للإمام السجاد عليه السلام.

وكذلك نشكرُ الكتّاب والمترجمين والمقيّمين: سماحة آية الله الشيخ محمّدمهدي الآصفي، الشيخ قيس بهجت العطّار، السيّد راضي الحسيني، السيّد عبدالأمير المؤمن، السيّد أمين السعيدي، السيّد محمّد المروّج، عبدالكريم الكرماني، محمدعلي معينيان، محمّدجواد الخرسندي، حسين الصمدي، حسين الصالحي، قاسم البغدادي، جواد الجعفري، وبرويز الكاظمي، وجميع الإخوة الذين عاضدونا بشكل أو بآخر على صياغة واعداد وطباعة هذه المقالات.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لخدمة الإسلام والمسلمين بنشر فكر وتراث أهل البيت عليهم السلام.

نجف لك زايي

معاون الشؤون الثقافية

دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في الأسحار

برواية أبي حمزة الثمالي رحمه الله

في المصباح عن ابي حمزة الثمالي رحمه الله قال: كان زين العابدين عليه السلام يصلي عامة الليل في شهر رمضان، فإذا كان في السحر دعا بهذا الدعاء:

إلهي لا تُؤدِّبني بِعقُوبتكْ [1]، ولا تمَكُرْ بي في حِيلَتكْ [2]، مِنْ أينَ ليَ الخيرُ يا

---

(١) من تأديب الله تعالى لعباده الذين يعصون أمره أن يعاقبهم عَلى شقاقهم وتمردهم في الدنيا، أو يؤخر عقوبتهم إلى الآخرة. يقول تعالى: ﴿**ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب**﴾ الأنفال: ٨، ويقول تعالى: ﴿**ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب**﴾ البقرة: ٢١١.

والمعنى أن لا يؤاخذنا الله بذنوبنا فيؤدبنا بعقوبته.

(٢) المكر من الناس الخدعة، ومن الله تعالى الرد على مكر الناس وذنوبهم وسوء أعمالهم باستدراجهم إلى العقوبة، من حيث لا يعلمون، قال تعالى: ﴿**ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين**﴾ الأنفال:٣٠. وكذلك الحيلة من الله تعالى استدراج الناس من حيث لا يعلمون إلى ما يكرهون من العذاب والبلاء عقاباً لهم على سيئات أعمالهم، يقول تعالى: ﴿**سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**﴾. فالمعنى: لا تؤاخذني اللّهم بما عصيت فتستدرجني إلى ما اكرهه من العذاب والبلاء والهوان.

توضيح وتفصيل حول العقوبات:

العقوبات من ضرورات الإسلام والذي ينكرها ينكر بعض ضروريات الدين .

وبالعقوبات نستدل على عدالة الله ... وبالعدالة نستدل على ضرورة وجود العقوبات في الدين.

تماماً مثل الأنظمة الاجتماعية والحقوقية العادلة فأنها لابد ان تتضمن نظاماً خاصاً للعقوبات ... ومن دون ذلك لا تستطيع ان تحقق العدالة في العلاقات الاجتماعية.

فلا يمكن في النظام الكوني القائم على العدالة والحكمة ان لا تتضمن نظاماً للعقوبات في الدين، كما لا يمكن أن لا يكون لخالق هذا النظام ومدبره نظام للعقوبات.

عن أبي رفعه، قال: أن أمير المؤمنين عليه السلام صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس الذنوب ثلاثة، ثم أمسك. فقال له حبة العرني: يا أمير المؤمنين فسّرها لي.

فقال : ما ذكرتها إلاّ وأنا أريد ان أفسرها، ولكنه عرض لي بُهْر (انقطاع النفس بسبب الاعياء) حال

⇐

⟹

بيني وبين الكلام.

نعم، الذنوب ثلاثة: فذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه.

قيل يا أمير المؤمنين فبينها لنا.

قال: نعم، أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا فالله أحكم وأكرم ان يعاقب عبده مرتين.

وأما الذنب الذي لا يغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض... إن الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه، فقال وعزتي وجلالي، لا يجوزني ظلم ظالم ولو كف بكف ... فيقتص للعباد بعضهم من بعض، حتى لا يبقى لأحد على احد مظلمة. (الكافي: ٨/ ١٠٦ ، والمحاسن للبرقي، ص٧، وبحار الانوار ٦/ ٢٩ – ٣٠).

وأما الذنب الثالث فذنب ستره الله على عبده، ورزقه التوبة، فأصبح خاشعاً من ذنبه راجياً لربه، فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة، ونخاف عليه العقاب.

أقسام العقوبات

العقوبة ثلاثة أقسام:

١– العقوبة التأديبية والتهذيبية: (إلهي لا تؤدبني بعقوبتك).

٢– عقوبة الاستدراج والمكر: (ولا تمكر بي في حيلتك).

٣– عقوبة التنكيل.

وإليك توضيح هذه العقوبات الثلاثة:

١- عقوبة التأديب والتهذيب

العقوبات التأديبية والتهذيبية متقاربة، ولكنهما يختلفان عن بعض ببعض الاختلاف.

فإن العقوبات التأديبية هي العقوبات التي تنبّه العبد إلى خطأه وزلله وتوجّهه إلى الاستغفار والتوبة.

والعقوبات التهذيبية هي الابتلاءات التي يواجهها العبد في الدنيا أو في سكرات الموت عند الاحتضار أو في العقوبات التي يلقاها بعد موته ... وهذه الابتلاءات والعقوبات تزيل عنه أوضار الذنوب ورين المعاصي، فتهذبه وتصفيه لدخول الجنة، فإن الجنة دار السلام، ولا يدخلها المؤمنون إلاّ بعد أن يتطهروا ويتخلصوا عن كل ما لصق بهم في دار الدنيا من أوضار الذنوب.

والقدر المشترك بين هاتين العقوبتين، أنهما من أبواب رحمة الله تعالى بعباده العاصين، فإن العقوبة التأديبية تنبّه العبد إلى الإقلاع عن الذنب وتوجهه إلى الندم والاستغفار والتوبة.

⟸

⇒

وهذه رحمة من عند الله وفضل منه تعالى لعباده المذنبين.

والعقوبة التهذيبية تخلص العبد من أوضار الذنوب والمعاصي، ليصلح لدخول الجنة، فإن الجنة لا يدخلها المؤمن إلاّ بعد ان يتطهّر ويتخلّص من كل ذنوبه ومعاصيه، فهما من أبواب رحمة الله تعالى بعباده وفضله عليهم.

وهاتان العقوبتان، في مقابل عقوبة المكر والاستدراج، ففي عقوبة الاستدراج يستدرج الله العبد العاصي من نعمة إلى نعمة، فيتقلّب في النعم وينسى الاستغفار، فيموت وهو محمّل بالذنوب، معرض عن الاستغفار. وفي عقوبة التأديب التهذيب ينبّه الله العبد إلى الخطر المحدق، وضرورة الإقلاع عن الذنب والإسراع إلى التوبة، ليقلع عن الذنب، ويتحرر من أوزاره قبل أن يموت.

والفارق بين العقوبتين ينشأ من الفارق بين الطائفتين من العصاة والمذنبين.

فإن الطائفة الأولى من المذنبين، رغم اقترافهم للذنوب، وخروجهم عن دائرة الطاعة لم يخرجوا عن دائرة الرحمة الإلهية الواسعة التي وسعت كل شيء، فتشملهم رحمة الله، رغم ما يرتكبون من المعاصي والذنوب، فينبههم الله تعالى بذنوبهم بما يلقون من الابتلاءات في الدنيا إلى الخطر وضرورة الإسراع إلى الاستغفار والتوبة ويذهب الله تعالى بما يبتليهم في الدنيا، وبما يلقون في سكرات الموت عند الاحتضار وبعده ... يُذهب الله تعالى بذلك عنهم أوضار الذنوب، أو يخففه عنهم وهو من رحمة الله وفضله.

وأما الطائفة الثانية، وهم الذين يعاقبهم الله عقوبة المكر والاستدراج، أو عقوبة التنكيل ... فقد أخرجتهم ذنوبهم عن دائرة رحمة الله الواسعة التي لا تضيق بشيء، فيكلهم الله تعالى إلى أنفسهم وشهواتهم وأهوائهم ويُملي لهم بالنعمة بعد النعمة، حتى لا يذكروا ذنوبهم، ولا يندموا على أفعالهم، ولا يستغفروا الله، ولا يتخففوا من أوضارها، كما هم يشتهون ...

وعليه، حتى إذا أذنب الإنسان، يجب عليه ألاّ يقطع حبله عن حبل الله، ويبقى حبله موصولاً بحبل الله، لئلاّ تخرجه ذنوبه عن دائرة الرحمة، فتشمله رحمة الله، وتعيده إلى الله، وترفع عنه أوضار الذنوب والمعاصي، ليدخل إلى دار السلام.

العقوبات التأديبية

عن سفيان بن سمط قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أراد الله بعبد خيراً، فأذنب ذنباً، اتبعه بنقمة، ويذكّره الاستغفار.

وإذا أراد بعبد شراً، فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار، ويتمادى بها، وهو قول الله عز وجل: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ (بحار الأنوار: ٥/ ٢١٧، ح٩).

⇐

⇐

وعن الراوندي، قال الصادق عليه السلام: (اتقوا الذنوب، وحذّروها إخوانكم، فوالله ما العقوبة إلى أحد أسرع منها إليكم، لأنكم لا تؤاخذون بها يوم القيامة) (بحار الأنوار: ٦/ ٥٧، ح٨).

عقوبة التهذيب

وهذه العقوبة قد تكون في الدنيا على شكل ابتلاءات تصيب الناس، وتتوالى عليهم في الدنيا لتخفف عنهم الذنوب التي يحملونها، كالأمراض والمصائب التي تصيب الناس.
فإن لم يخلص العبد فيها عن ذنوبه، تهجم عليه عند الموت على شكل سكرات الموت عند النزع ـ أعاذنا الله منها ـ.
فإن لم يخلص العبد منها عن ذنوبه تدخل عليه قبره، فيعذب فيه ليتخلص من ذنوبه ومعاصيه.
فإن لم يتخلص منها رافقه العذاب إلى البرزخ.
فإن لم يتخلص منها طال وقوفه عند الحساب حتى يتخلص منها.
فإن لم يتخلص منها ادخله نار جهنم، – نعوذ الله – حتى يتخلص منها في نار جهنم، ويطهر فيها، ليصلح دخول الجنة.
ونتلو عليك الآن طائفة من الروايات الإسلامية في هذا الشأن، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا مرض المسلم كتب الله له كأحسن ما كان يعمل في صحته، وتساقطت ذنوبه، كما يتساقط ورق الشجر» (مكارم الأخلاق: ١٩٥).
وهذه المصائب والابتلاءات تخفف عن المؤمن في الدنيا الذنوب التي ارتكبها في غفلاته وسهوه.
عن الإمام زين العابدين عليه السلام: ما من مؤمن تصيبه رفاهية في دولة الباطل إلاّ ابتلي قبل موته ببدنه أو ماله حتى يتوفر حظه في دولة الحق. (مكارم الأخلاق: ١٩٥).
وعن أمير المؤمنين عليه السلام ما من الشيعة عبد يقارف أمراً نهيناه عنه فيموت حتى يبتلى ببلية تمحص بها ذنوبه: إما في مال، أو في ولد، وأما في نفسه حتى يلقى الله عز وجل وما له ذنب، وإنه ليبقى عليه الشيء من ذنوبه، فيشدد به عليه عند موته. (بحار الأنوار: ٦ / ١٥٧، ح ٤).
عن أبي محمد العسكري عليه السلام، قال: دخل موسى بن جعفر عليه السلام على رجل قد غرق في سكرات الموت، وهو لا يجيب داعياً، فقالوا: يا ابن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف الموت وكيف حال صاحبنا؟
فقال: الموت هو المصفاة تصفي المؤمنين من ذنوبهم، فيكون آخر ألم يصيبهم كفارة آخر وزر بقي عليهم.
وأما صاحبكم هذا، فقد نخل من الذنوب نخلاً، وصُفّي من الآثام تصفية، وخلص حتى نقي كما

⇐

⇐

ينقي الثوب من الوسخ، وصلح لمعاشرتنا أهل البيت في دارنا إلى الأبد. (بحار الأنوار: ٦/ ١٥٥، ح ١٠).

وقال رجل لامرأته: اذهبي إلى فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فاسأليها عني: أنا من شيعتكم؟

فقالت: قولي: إن كنت تعمل بما أمرناك وتنهى عما زجرناك، فأنت من شيعتنا، وإلاّ فلا. فرجعت وأخبرته.

فقال: يا ويلا، ومن ينفك عن الذنوب والخطايا، فإذن أنا خالد في النار.

فرجعت المرأة فقال لفاطمة عليها السلام ما قال زوجها.

فقالت فاطمة عليها السلام: قولي له ليس هكذا. إنّ شيعتنا من خيار أهل الجنة، وكل محبينا إذا خالفوا أوامرنا ونواهينا ليسوا من شيعتنا، وهو مع ذلك في الجنة بعد ما يطهَّرون، ولكن انما يطهَّرون من ذنوبهم بالبلايا والرزايا، أو عرصات القيامة بأنواع شدائدها، أو في الطبق الأعلى من جهنم بعذابها ... إلى أن نستنقذهم بحبّنا منهم، وننقلهم بحضرتنا. (لئالئ الأخبار: ص ٤٥٨).

وعن محمد بن مسلم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: والله لا يعرف (ظ) عنه هذا الأمر فتطعمه النار؟

قلت: إن فيهم من يفعل ويفعل.

فقال: إنه إذا كان كذلك ابتلى الله أحدهم في جسده، فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلاّ ضيّق الله عليه في رزقه، فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلاّ شدد عليه عند الموت، حتى يأتي الله ولا ذنب له، ثم يدخله الجنة. (بحار الأنوار: ٦ / ١٦٠، ح ٢٦)

وعن المفضل، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا مفضل، إياك والذنوب، وحذرها شيعتنا، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم، إن أحدكم لتصيبه المعرّة من السلطان، وما ذاك إلاّ بذنوبه، وأنه ليحبس عليه الرزق، وما هو إلاّ بذنوبه، وأنه ليشدّد عليه عند الموت، وما هو إلاّ بذنوبه.

فلما رأى ما قد دخلني قال: أتدري لم ذاك يا مفضل، قال: قلت: لا أدري جعلت فداك.

قال: ذاك والله أنكم لا تؤاخذون بها في الآخرة، وعجلت لكم في الدنيا. (بحار الأنوار: ٦ / ١٥٧، ح ١٥)

وهذه العقوبة، رغم أنها داخلة في دائرة رحمة الله الواسعة إلاّ أنها صعبة عسيرة.

عن الإمام الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام، وأنه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن. (الكافي: ٢ / ٢٧٢)

وهذا هو النحو الاول من العقوبة التي يشير إليها الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء الأسحار بقوله: (إلهي لا تؤدبني بعقوبتك).

⇐

⇒

٢ - عقوبة الاستدراج والمكر

وهي النحو الثاني من العقوبات الإلهية. ظاهرها النعمة، وباطنها النقمة، بعكس عقوبة التأديب والتهذيب التي كان ظاهرها النقمة وباطنها الرحمة.

في هذه الطائفة من العقوبات يتقلب المجرمون من عافية ونعمة إلى عافية ونعمة. ويُمِدُّهم الله تعالى ويمهلهم ويملي لهم ... وهذا الإملاء والإمهال نحو من مكر الله تعالى بالمجرمين، فيغفلوا عن ذكر الله والاستغفار، ويغلبهم الطيش والغرور، حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وإنما يكلهم الله تعالى إلى أنفسهم، ويستدرجهم بالنعم، وينسيهم الاستغفار والتوبة، لأنهم اختاروا الاعراض عن رحمة الله ... ومن يعرض عن رحمة الله فلا تشمله الرحمة، لا لأنّ الرحمة الإلهية تضيق بأحد، فإن رحمة الله لا تضيق بشيء، والعبد شيء من الأشياء، وإنما لأنهم - أي المجرمون - أصرّوا على الإعراض عن رحمة الله، والدخول في دائرة مشاققة الله ومحاربته والتمرد عليه ... فيكلهم الله إلى أنفسهم، كما أرادوا، فلا تصيبهم معرّة، أو ابتلاء في الدنيا، كما يصيب المؤمنين، وإنما يتقلبون في النعمة والعافية، حتى ينقض عليهم الأجل، فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وهذا هو الإملاء والاستدراج.

ومعنى الإملاء: الإمهال، فلا يعجّل الله بعذابهم كما يعجل بعذاب المؤمنين لينتبهوا من غفلاتهم، بل يمهلهم، ليمعنوا في التمرد والإجرام والإفساد، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومعنى الاستدراج أن يفسح الله لهم الطريق إلى المعاصي والذنوب، فيتدرجوا من عصيان إلى عصيان ومن إجرام إلى إجرام، دون ان يعيقهم إليه عائق من ابتلاء، أو مصيبة، كما يصيب المؤمنين المذنبين ... وكأنما الله تعالى يستدرجهم إلى ما يطلبونه من المعاصي والجرائم استدارجاً.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لاَيَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣)

توضيح للاستدراج

يستخدم البوليس طريقة (استدراج المجرمين) لإثبات الجريمة بالجرم المشهود، فيراقبون المجرم عن كثب، في جميع مراحل ارتكاب الجريمة، دون أن ينتبه إلى هذه المراقبة ليلقوا عليه القبض، وهو متلبس بالجريمة ... وذلك لغرض إثبات الجريمة بالجرم المشهود المحسوس.

ويجري نفس العمل في سنن الله تعالى، ولكن لغاية أخرى، وليس لإثبات الجريمة ... فإن جوارحهم تشهد عليهم بما أجرموا يوم القيامة، ولا حاجة إلى استدراجهم لإثبات الجريمة عليهم بالحسّ

⇐

⇐

والشهود يوم القيامة.

وإنما يجري استدراج المجرمين في سنن الله تعالى لغرض تفعيل ما في نفوسهم ونيّاتهم من شرّ أو خبث، ونقصد بالتفعيل المعنى الفلسفي لهذه الكلمة، وهو الخروج من القوة إلى الفعلية.

فإن المجرمين يحملون في أنفسهم ونيّاتهم شراً وخبثاً كثيراً، كما يحمل الصالحون في نفوسهم خيراً كثيراً ... وكما يتمنّى الصالحون ان يوفقهم الله لتفعيل هذا الخير وإبرازه وتحقيقه، كذلك يتمنى المجرمون ان يحقّقوا ما في نفوسهم ونيّاتهم من شرّ وخبث ودناءة. فيفعّل الله لكل منهما ما يحبون ويتمنون.

والتفعيل الأول هو الاستدراج.

والتفعيل الثاني هو التوفيق.

والتوفيق في مقابل الاستدراج ومعنى الاستدراج - بناءً على ذلك - هو تفعيل ما يريده ويطلبه المجرمون من إجرام وإفساد.

كما أن التوفيق هو تفعيل ما يطلبه الصالحون من صلاح وخير وإصلاح.

ويتم هذا وذاك ضمن سنن الله تعالى فإن نواة التفاحة ونواة الشوكة تحملان بالقوة كل ما في التفاحة من نفع وفائدة، وكلما في الشوكة من أذى وضرر ... والله تعالى يفعل هذه وتلك في نظام الخلقة العام.

ولابد في نظام الخلقة العام من التفاحة والشوكة والصحة والمرض والخير والشرّ معاً.

وفي نفس الإنسان خير وشرّ، وعدل وظلم، فاذا كان الغالب عليه هو الخير وفقه الله تعالى للخير، وخلّصه مما في نفسه من شرّ بما في نفسه من الخير.

وإذا كان الشرّ غالباً أعانه الله على ما في نفسه من شرّ للتخلص منه، ووفقه لما في نفسه من خير.

فإذا تمادى الإنسان في الشرّ والضلال وَكَّله الله إلى نفسه ... عندئذ يتمكن الشرّ من نفسه، ويطغى الشرّ على نفسه ونيّته وعمله، وهذا هو موضع الاستدراج في سنن الله تعالى.

فيملي له الله تعالى فيما يريد من ذنب وعصيان، ويمهله ليتمادى في عمله، ولا يبتليه فإن الابتلاء يصدّ صاحبه عن التمادي في الغي والشرّ.

وحيث ان هؤلاء المجرمين أعرضوا عن رحمة الله، وخرجوا من دائرة الرحمة الإلهية الواسعة التي وسعت كل شيء، فلا ينالون هذه الرحمة بالضرورة.

وعليه، فإن الله يمهلهم ليتمادوا في غيّهم، ويحققوا كل ما يطلبون من شرّ وفساد.

سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن الاستدراج، فقال: هو العبد يذنب الذنب، فيملي له، ويجدد له عنده النعم، فيلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم. (بحار

⇐

⇐
الأنوار: ٥/ ٢١٨، ح ١١)

وروي عن أمير المؤمنينعليه السلام: «أيها الناس ليراكم الله من النعمة وجلين، كما يراكم من النقمة فرقين. إنه من وُسِّع عليه في ذات يده، فلم يرَ ذلك استدراجاً فقد أمِنَ مخوفاً، ومن ضُيِّق عليه في ذات يده، فلم يرَ ذلك اختباراً فقد ضيع مأمولاً». (نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح: ص ٥٣٦، الكلمة/ ٣٥٨، من الكلمات القصار)

والإمامعليه السلام يشير هنا إلى أمن وخوف في غير موضعهما.

أما الأمن فهو ان يتقلب الإنسان في النعم، فيأخذه الغرور، ولا يحسب أنه قد يكون ذلك استدراجاً له... وهذا هو الإحساس الكاذب بالأمن.

وأما الخوف والقلق الخاطئ فهو ان يواجه الإنسان ابتلاءً، فيقلق فيها، ويخاف منها، ولا ينظر إليها من منظار الاختبار الإلهي لعبده، فيخسر وعي باب من أبواب رحمة الله تعالى بعباده، وهو الابتلاء والاختبار.

وهذا هو النحو الثاني من العقوبات الإلهية، التي يشير إليها الإمام زين العابدينعليه السلام في دعاء الأسحار حيث يقولعليه السلام: (ولا تمكر بي في حيلتك).

فإنه وإن كان ظاهره النعمة، فإن باطنه النقمة والعذاب، وعلى العبد ان يعوذ بالله تعالى ان يمكر به في حيلته، ويستدرجه إلى معصيته ومخالفته.

٣- عقوبة التنكيل والاستئصال

نقرأ في دعاء الافتتاح: (وأيقنت أنك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة، وأعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة).

نتسائل لماذا كان الله تعالى (أرحم الراحمين) في موضع العفو والرحمة، وكان (أشد المعاقبين) في موضع النكال والنقمة ... وكان يناسب رحمته ان يكون أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأخف المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

والجواب، أن الله تعالى مطلق في كل شيء شديد في كل شيء، وهو فعّال لما يريد ... فإذا أراد الرحمة كان شديد الرحمة، أرحم الراحمين، وإذا غضب وسخط على عبده ـ معاذ الله ـ كان أشدّ المعاقبين، ولكن رحمته أوسع من غضبه وقبل غضبه، وغضبه من عدله، ورحمته من فضله، ونحن نعوذ برحمته، وفضله من عدله.

ولذلك فلا يأمن العبد عقاب الله، لأنه أشدّ المعاقبين، ولا يخيب عن رحمة الله، لأنه أرحم الراحمين، ويتردد العبد بين رجاء الرحمة ومخافة العقوبة ... بين الخوف والرجاء، وهذه هي العلاقة الصحيحة
⇐

⇐

بالله تعالى. والاستدراج في الدنيا، والعقوبة في الآخرة كل منهما حاصل من غضب الله تعالى.
إلاّ أن الاستدراج يختص بالدنيا، وعذاب التنكيل يعمّ الدنيا والآخرة، وهذا هو الفرق الأول بين العقوبتين.
والفرق الآخر أن عقوبة الاستدراج ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، وعقوبة التنكيل ظاهرها العذاب وباطنها العذاب. وهذا هو الفرق الثاني بين عقوبة الاستدراج وعقوبة التنكيل.
يقول تعالى في تعميم عقوبة التنكيل للدنيا والآخرة: **﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾**.(فصلت: ١٥ – ١٦)
ويقول تعالى فيما أنزل على قوم لوط من العقوبة والعذاب في الدنيا:
﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ* مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. (هود: ٨٢ – ٨٣)
ويقول تعالى عن العقوبة التي انزلها بإبرهة وجيشه من أصحاب الفيل:
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ*وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾. (الفيل: ١– ٥)
ويقول تعالى عن العذاب الذي أنزل على ثمود:
﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾. (الذاريات: ٤٤)
والفرق بين عقوبة التنكيل والعقوبات التأديبية التي تنزل على المذنبين من المؤمنين في الدنيا، أن الأولى عذاب الاستئصال كما نزل بقوم لوط، وثمود، وأصحاب الفيل، والسبت، وقوم صالح، والثاني عذاب تنبيه وتذكير.
وإذا نزل عذاب التنكيل والاستئصال بقوم، فلا ينفعهم إيمانهم ودعاؤهم لرد العذاب إلاّ ما كان من قوم يونس ... فقد نزل بهم العذاب، ولكنهم لما لجأوا إلى الله بالدعاء والتضرّع والتوبة، دفع الله عنهم العذاب.
﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. (يونس: ٩٨)
وهذه العقوبة كالعقوبة السابقة لا تنزل بقوم إلاّ عندما يعرضون عن رحمة الله إعراضاً كاملاً، وعندئذ يخرجون عن دائرة رحمة الله.
وحسبك في هذه العقوبة أنها تنزل بالإنسان عن غضب الله وسخطه الذي لا تطيقه الجبال الرواسي ولا

⇐

⇒

تقوم له السماوات والأرض، نعوذ بالله من غضبه وسخطه.

وعن هذه العقوبة ومقارنتها بما يبتلي الله تعالى عباده في الدنيا من أنواع الابتلاء ... يقول أمير المؤمنين عليه السلام كما في رواية كميل بن زياد رضي الله عنه في دعاء كميل:

«وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها، وما يجري فيها من المكاره على أهلها ... على أن ذلك بلاء ومكروه قليل مكثه، يسير بقاؤه، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة، وجليل وقوع المكاره فيها، وهو بلاء تطول مدته، ولا يخفف عن أهله، لأنه لا يكون إلاّ عن غضبك وانتقامك وسخطك، وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض، يا سيدي، فكيف بي، وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين».

ثم يذكر الإمام عليه السلام أن اعظم ما في هذه العقوبة هو شعور العبد، في نار جهنم، أن الله أبعده عنه، وحكم بفراقه له، وأنه تعالى لا يحب جواره وقربه، وأنه يمقته وغاضب عليه، إن هذا الإحساس لدى العبد، وهو يعذب في نار جهنم أشدّ شيء عليه في هذه العقوبة، رغم كلّ قساوة نار جهنم وضراوتها وعذابها، فاستمع إليه عليه السلام كيف يصوّر حالة العبد في نار جهنم، وهو يشعر بأن الله غاضب ساخط عليه، مفارق له، وحاشره مع أعدائه في مكان واحد.

«فلئن صيّرتني للعقوبات مع أعدائك، وفرّقت بيني وبين أحبائك وأوليائك ... فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك، أم كيف أسكن في النار ورجائي عفوك ...».

ثم يقسم عليه السلام... إنّ لو تركه الله مع أعدائه في نار جهنم، وأقصاه عن قربه وأحبائه ... أن يعلن في وسط نار جهنم، ومن بين أعدائه ومناوئيه – لو تركه ناطقاً – عن حبّه له، وعظيم رجائه به، وأمله في رحمته، ويضج إليه في وسط نار جهنم ضجيج الآملين، ويطلبه بصراخه وعويله، ويبكي لفقده وفراقه، بكاء الفاقدين ... استمع إليه عليه السلام :

«فبعزتك يا سيدي أقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجنّ إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين، ولأنادينّك: أين كنت يا ولي المؤمنين، يا غاية آمال العارفين، يا غياث المستغيثين، يا حبيب قلوب الصادقين».

العلاقة بين الذنوب والعقوبة

يبقى ان نشير إلى العلاقة بين العمل والجزاء، في سياق الحديث عن الذنوب والعقوبات ... وهذا البحث من رقائق الثقافة القرآنية.

قد تكون العلاقة بين العمل والجزاء من نوع العلاقات التشريعية كالعلاقة بين جريمة شرب الخمر

⇐

⇒

والجلد والعقوبات الواردة في التشريع كلّها من هذه القبيل ... وهذه العقوبات تخصّ الحياة الدنيا .

النوع الآخر من العقوبات، العقوبات التي تقع موقع النتيجة والجزاء الطبيعي من الجريمة والعلاقة بينهما من نوع العلاقة بين الأسباب والمسببات كالعلاقة بين الظلم وما يصيب الظالم من سوء العاقبة... فإن الظالمين يلاقون في هذه الدنيا نتائج أعمالهم قبل الآخرة ... وقد عاصرنا كثيراً من الظالمين أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولقوا في هذه الدنيا نتائج عدوانهم وظلمهم ... يقول تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾. (فاطر: ٤٣)

﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.(الأنعام: ١٠)

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. (النحل: ٣٤)

وهذه العقوبات تعم الدنيا والآخرة، وهي بحكم نتائج أعمال الإنسان في سنن الله تعالى.

والنوع الثالث من العقوبات عقوبة المجرمين بنفس جرائمهم ... فإن لأعمال الإنسان ظاهراً في هذه الدنيا، وباطناً في الآخرة، فإذا انتقل الإنسان من الدنيا إلى الآخرة وجد أعماله أمامه قد سبقه إليها، غير ان هذه الأعمال أحضرت له هذه المرة بصورة أخرى غير التي كان يعرفها في الدنيا، وهي باطن الأعمال وجوهرها.

فإن لأعمال الإنسان صورة ظاهرة في الدنيا، وحالة باطنة هي جوهر العمل وروحه، والذي يحضر للإنسان من عمله في الآخرة هو باطن العمل وليس ظاهره.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾.(آل عمران: ٣٠)

ويقول تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾. (الكهف: ٤٩)

ويقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾. (الزلزلة: ٧ – ٨)

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن ظاهرة في أن أعمال الإنسان نفسها تنتقل إلى الآخرة. (راجع في توضيح وتفصيل هذا البحث الكتاب القيم: (العدل الإلهي)، للشهيد الشيخ مرتضى المطهري، فصل «عذاب الآخرة»).

وأن الإنسان عندما يحشر يواجه عمله الذي قدّمه بين يديه إلى الله (يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً (والذي يحضر للإنسان في الآخرة هو عمله من خير أو شرّ.

غير أن الذي يعرفه الإنسان من عمله في الدنيا هو ظاهر عمله، ولأعمال الإنسان ظاهر يعرفه في الدنيا، وباطن يعرفه ويلقاه في الآخرة، وهو يختلف اختلافاً نوعياً عمّا يعرفه من ظاهر عمله في الدنيا.

فالذي يأكل الأموال اليتامى ظلماً، لا يعرف من عمله إلاّ هذه الصورة التي ترغّبه وتشهّيه في هذا

⇐

⇒

الإثم، وهو التمتع بأموال الأيتام ... ولهذا الإثم صورة أخرى، هي باطن العمل، تظهر لـه فـي الآخـرة، وتلك قوله تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَـاراً وَسَيَـصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء: ١٠)

وهذه النار التي يلقاها الإنسان في الآخرة هي باطن هذا الإثم، ولو كان يشهد باطن في عمله في الدنيا لم يرتكبه قطّ.

ويقول تعـالى: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيـهِ مَيْتـاً فَكَرِهْتُمُـوهُ﴾. (الحجرات: ١٢)

إن للغيبة ظاهراً وباطناً ... أما الظاهر منه فهو الذي يشهّي الناس ويرغبهم فيها، وأمـا باطنهـا فهـو أكـل لحوم الأموات. وفي الحياة الدنيا لا يرى الناس إلاّ هذا الظاهر الـذي يـشهّيهم فـي الغيبـة، ولـو كـانوا يرون باطن الغيبة، ويعرفون أنهم يلوكون بالغيبة لحوم إخوانهم لاشمأزوا ونفروا من الغيبة.

إنّ ما يلقاه المجرمون في نار جهنم من عذاب وسعير إنما هي أعمالهم تجسدت لهم في الآخرة بهذه الصورة ... وكذلك العكس ما يلقاه المؤمنون أصحاب التقوى والعمل الصالح من نعـيم ورحمـة فـي الجنة هو أعمالهم الصالحة تلقوها في الآخرة بهذه الـصورة الجديـدة التـي لـم يألفوهـا مـن قبـل فـي الدنيا.

إن عمل الإنسان لا ينعدم من خير أو شر، فإذا مات الإنسان واجه عمله بعينه، غير أنه في الآخرة يظهر له بشكل آخر غير ما كان يعرفه في الدنيا.

العفو والرحمة

ولا يسعنا أن نختم الحديث عن العقوبة والعذاب الإلهي إلاّ ان نشفعه بالحـديث عـن عفـوه ورحمتـه تعالى، فإن رحمته وسعت كلّ شيء، والعبد مهما بلغ ذنبه شيء من الأشياء، وعفوه قبل غضبه وأوسع من غضبه.

روى الكراجكي في (الكنز) عن عطاء بن يسار عن أمير المؤمنين عليه السلام، قـال: «**يوقف العبد بين يدي الله تعالى، فيقول: قيسوا (قارنوا) بين نعمي عليه وبين عمله**».

فيستغرق النعم العمل.

فيقولون: قد استغرق النعم العمل.

فيقول: هبوا له النعم، وقيسوا بين الخير والشرّ منه.

فإن استوى العملان أذهب الله الشرّ بالخير، وأدخله الجنة، وإن كان له فضل (أي كانت حسناته تغلب سيئاته) أعطاه الله بفضله.

⇐

رَبِّ وَلاَ يُوجَدُ إلاّ مِنْ عِنْدِكَ؟ وَمِنْ أَيْنَ لِيَ النَجاةُ وَلاَ تُسْتَطاعُ إلاّ بِكَ؟[١] لا الّذي أَحَسَنَ اسْتَغْنى عَنْ عَوْنِكَ وَرَحمَتِكَ، وَلاَ الذي أساءَ واجْتَرأَ عَلَيكَ وَلَمْ يُرْضِكَ خَرَجَ عَنْ قُدْرَتِكَ[٢].

⟸

وإن كان عليه فضل (أي كانت سيئاته تغلب حسناته)، وهو من أهل التقوى، ولم يشرك بالله تعالى، واتقى الشرك، فهو من أهل المغفرة، يغفر الله له برحمته إن شاء، ويتفضل عليه بعفوه). (بحار الأنوار: ٥ / ٣٣٤ - ٣٣٥)

وفي هذا الحديث يأمر الله تعالى أن يقاس عمل العبد لله تعالى بنعم الله عليه أولاً، استغرق النعم العمل، قالت الملائكة لقد استغرقت النعم العمل.

وحيث تستغرق النعم الحسنات، فلا محالة تبقى السيئات مكشوفة لا يغطيها شيء، فيأمر الله تعالى ملائكته بإلغاء المقارنة الأولى، والحساب على المقارنة الثانية.

فيقول: (هبوا له النعم، وقيسوا بين الخير والشرّ منه) وهناك المقارنة تكون بين حسناته وسيئاته.

وهي لا تخلو من ثلاث حالات:

فأما أن تفضل حسناته على سيئاته، أو تتساوى سيئاته وحسناته، أو تفضل سيئاته على حسناته.

فإن تساوت حسناته وسيئاته أذهب الله الخير بالشرّ، كما في الرواية.

وإن فضلت حسناته على سيئاته وكان له فضل أعطاه الله بفضله.

وإن فضلت سيئاته على حسناته وكان صاحبها من أهل التقوى، ويتّقي الشرك بالله غفر الله له برحمته.

(١) فإن الله تعالى هو الذي يمكّن الإنسان من النجاة بما يلهمه من الهداية، ولا يملك الإنسان خيراً ولا نجاة من دونه تعالى. يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ﴾ (النساء:٧٩).

(٢) في هذه الفقرة من الدعاء يضع الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام الإنسان في موضع وسط بين الفقر إلى الله والتسليم لسلطان الله وقهره.

وليس بوسعه ان يستغني الله عن الله في فقره، وأنّى له ان يستغني عن الله في فقره إليه تعالى، وليس بوسعه ان يخرج عن سلطان الله في قهره تعالى، وأنّى له ان يخرج عن حوزة سلطان الله، والكون كله حوزة سلطان الله خاضع لأمره ونهيه، فيقول الإمام عليه السلام: **«من أين لي الخير يا رب ولا يوجد الا من عندك؟»**.

من أين للعبد ان يظفر بشيء من الخير إلاّ ان يكون ذلك من عند الله وبإذن الله، وأنّى للعبد أن يظفر بالنجاة إلاّ إذا رزقه الله النجاة.

«لا الذي أحسن استغنى عن عونك».

⟸

⇒

إنما يُحسن المحسنون بتمكين الله تعالى لهم من الإحسان، وهداية الله لهم إلى الإحسان، ولولا أن الله تعالى يمكّن عباده من الإحسان، ولولا ان الله يهدي عباده إلى الإحسان لم يتمكّن احد من شيء من الإحسان.

والجزاء الذي يعطيه الله للمحسنين إنما يعطيه تفضّلا منه ورحمة، فلا يستحق العبد جزاءً على الإحسان، لان الطاعة حق لله تعالى على عباده، وليس لهم ان يطالبوا بالجزاء إذا ادوا إليه حقه في الطاعة، فإذا أحسن العبد فإن إحسانه محفوف بفقرين، فإن الله مكّنه من الإحسان، وهداه إليه وهذا هو الفقر الأول، ورزقه على الإحسان الجزاء، تفضّلا منه ورحمة، وهذا هو الفقر الثاني.

فقر في التوفيق للاحسان وفقر في جزاء الإحسان.

وهذا هو الشطر الأول من الحصار الذي يحاصر العبد بين يدي الله وهو شطر (الفقر).

والشطر الثاني شطر القهر. يقولعليه السلام:«**ولا الذي أساء واجترأ عليك ولم يرضك خرج عن قدرتك**».

واما الذين يسيئون ويجترؤون عليك ويتجاوزون حدودك وأحكامك، فإنهم لا يخرجون عن حوزة سلطانك وقهرك، وأنّى للعاصين أن يجدوا مفراً يفرون إليه من قهرك وغضبك (إلاّ ان يفروا من غضبك إلى رحمتك)، وأنى لهم ان يجدوا ملجئاً يهربون إليه من سخطك (إلا ان يلجأوا إلى رحمتك وعفوك من سخطك).

وهذا هو الشطر الثاني من الحصار الذي يحاصر العبد بين يدي الله، وهو شطر (القهر).

والإنسان يقع بين يدي الله، بين هذين الشطرين: شطر الفقر والقهر.

وليس له من سبيل إلى ان يستغني عن الله في فقره إلى الله، وليس له ان يخرج عن سلطان الله في قهره تعالى وغضبه.

وهذا هو الموقع الصحيح للعبودية تجاه الله تعالى. وهذا هو مطلع الدعاء، وخير مطالع الأدعية ان يعرض العبد على ربه فقره إليه، وتسليمه لسلطانه وقهره... وأنه ليس له ان يستغني عن الله تعالى في فقره، ولا ان يخرج عن حوزة سلطان الله وقهره.

لا يملك إلا ما أعطاه الله تعالى من فضله، وإذا سلبه الله تعالى بعض هذه النعم فلا يجد إليها سبيلا من غير الدعاء والتضرع إلى الله... وفي نفس الوقت هو مقهور بسلطان الله وقوته، ولا حول ولا قوة له للخروج عن سلطان الله وحكمه النافذ في خلقه، إلاّ بسلطان تعالى وحكمه.

وهذا افضل ما يقدّمه الإنسان للدعاء من يدي الله تعالى... فإن الدعاء هو أن يعلن العبد فقره وفاقته وحاجته إلى رحمة الله ويقرّ بسلطان الله القاهر عليه وجنايته على نفسه في التمرد على أحكام الله وحدوده.

هذا هو روح الدعاء والاستغفار:

⇐

⇐

بين الفقر والقهر

وعندما ينطلق الإنسان في الدعاء من موقف الفقر والقهر بين يدي الله تعالى، فلا يملك إلاّ الرجاء والخوف والتسليم.

الرجاء إلى رحمة الله تعالى في فقره.

والخوف من غضب الله وسخطه.

والتسليم لسلطانه وقهره.

والإنسان يقع بينهما.

وفيما يلي نتوقف عند هذين البعدين من شخصية الإنسان:

١- الفقر إلى الله ٢- التسليم لقهر الله.

١- الفقر:

خلق الله الإنسان وعاءً للخير، والخير يفيض على الإنسان من جانب الله... ومن دون ان يفيض الله الخير والرحمة على الإنسان لا يملك الإنسان شيئاً من الخير... وهذه هي المرحلة الثانية من فقر الإنسان إلى الله.

وإلى هذا يشير الإمام زين العابدينعليه السلام: «**من أين لي الخير ولا يوجد الا من عندك؟**». فلا يجد الإنسان سبيلاً إلى الرحمة والخير إلاّ من عند الله.

ولابد من وقفة تأمل عند هذه الكلمة:

إن فقر الإنسان إلى الله في مرحلتين:

في مرحلة خلقه وتكوينه. وهذه هي المرحلة الأولى لفقر الإنسان إلى الله.

وفي إفاضة الرحمة عليه من خزائن رحمة الله بعد خلقه وتكوينه.

ففي مرحلة الخلق والتكوين خلق الله تعالى الإنسان وعاءً لرحمته، وهذا الوعاء هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وهذا هو المعنى الأول لفقر الإنسان إلى الله.

وفي المرحلة الثانية يفيض الله على الإنسان رحمته من خزائن رحمته (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلاّ بقدر معلوم)، سورة الحجر / ٢١.

وهذه هي المرحلة الثانية لفقر الإنسان إلى الله

وفيما يلي توضيح لهاتين المرحلتين من فقر الإنسان إلى الله:

١- المرحلة الأولى لفقر الإنسان إلى الله (مرحلة الخلق والتكوين):

خلق الله الإنسان وعاءً للخير والرحمة والمعرفة.

وهذا هو الذي يعبر عنه الفلاسفة بـ (القوة)...

⇒

⇒

فنقول: ان الإنسان عندما يولد لا يكون واجداً للمواهب والقيم والمعرفة من عند الله بالفعل، وإنما يحمل هذه الأمور جميعاً بالقوة، ومعنى القوة هنا: إن الإنسان وعاء صالح لتلقي هذه المواهب من القيم والمعرفة والبصيرة... التي يرزق الله عباده، ووعاء لكل القيم والخصال الربانية التي ينعم الله تعالى بها على الإنسان.

فإن الإنسان يولد من أمه جاهلاً لا يعلم شيئاً، ولكنه وعاء صالح للعلم والمعرفة، يتلقّى العلم والمعرفة من لدن الله بالوسائل التي يسّرها الله تعالى لذلك.

يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ (النحل:٧٨)، وقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق:٥).

ويولد الإنسان وهو لا يعي من أمر المعرفة والهداية شيئاً، ولكنه وعاء صالح للمعرفة والهداية، فيرزقه الله تعالى الهداية والمعرفة:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ (الضحى: ٧).

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ (الليل: ١٢).

٢- ان هذا الوعاء وعاء خير ولم يخلق الله تعالى الإنسان وعاءً للشر، وهو وعاء صالح وليس وعاءً فاسداً... وهذا الخير والصلاح مغروسان في فطرة الإنسان.

يقول تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾... إن الدين القيم الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام من عند الله يطابق الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها...

إن الإنسان يحب الصدق، والأمانة، والإيثار، والعدل، والإحسان، والاستقامة، والوفاء، والعفاف، والشجاعة، والإنصاف.

ويكره الكذب، والخيانة، والحنث، وسوء الأخلاق، والابتذال، والإساءة، والجبن، والبخل، والشح، واللؤم.

ويحترم العلم ويحبه، ويكره الجهل ويزدريه... ويحب الجمال في كل شيء، ويكره القبيح في كل شيء. كما يحب النظافة، ويكره القذارة، ويحب الروائح الطيبة، ويكره الروائح النتنة، ويحب النظام، ويكره الفوضى... ويحب الطيب من الطعام والشراب والنكاح، ويكره الخبيث منه.

وليس الأمر كما يقول منظروا الفلسفة الوجودية:

إن الإنسان يوجد، ثم تتقرر ماهيته، ووجوده يسبق ماهيته.. بل يوجد الإنسان بهويته وماهيته الخاصة الإنسانية، وهي الفطرة التي فطره الله تعالى عليها.

وهذه هي المرحلة الأولى من مراحل فقر الإنسان إلى الله، وهي مرحلة الخلق والتكوين.

المرحلة الثانية لفقر الإنسان إلى الله (مرحلة الإفاضة):

⇐

⇒

الإنسان من أعظم منازل رحمة الله تعالى...

وقد خلق الله تعالى الإنسان وعاءً صالحاً لاستقبال كثير من أبواب رحمة الله، فيهب الله تعالى الإنسان النور، والمعرفة، والبصيرة، والفهم، والقوة، والذكر، والشكر، والتقوى، والرقة، والصدق، والإيمان، والتوحيد، والإخلاص، وحب الخير، والسداد، والصواب، والعقل، والفهم، والشجاعة، والصبر، والاستقامة، والعفاف، والجود، والإيثار، والعاطفة، والوفاء، والرضا بأمر الله، والتسليم لله، والتفويض له تعالى، والتوكل عليه، وحبه، والتضرع إليه، والإخبات له.

وهذه الإفاضات الإلهية وغيرها من إفاضات الرحمة الربانية تفيض على الإنسان من خزائن رحمة الله.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١).

هذه الإفاضات الربانية من خزائن رحمة الله على قلب الإنسان ونفسه وعقله، لم يفسد الإنسان وعاء نفسه.

ومن إفاضات الرحمة التي يفيضها الله تعالى على عباده الصالحين: المغفرة والشكر، والذكر، والرضا، والحب.

ونقصد بالشكر هنا شكر الله لعبده، فإن الله غفور لعباده، شكور، يشكر لهم عبوديتهم وطاعتهم واستجابتهم لأمره، ويغفر لهم سيئاتهم وذنوبهم، إذا تابوا إلى الله، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر:٣٤).

وكما يذكر العبد ربه، يذكر الله عبده.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢).

وكما يحب العبد ربه، يحب الله تعالى عبده، إذا أحبه عبده، واتبع رسوله صلى الله عليه وآله.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ (آل عمران:٣١).

وكما يرضى العبد عن ربه ويرضى بقضائه يرضى الله تعالى عن عباده، ويبادله الرضا بالرضا.

﴿رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (المائدة: ١١٩).

إذن يفيض الله على الصالحين من عباده عفوه وشكره، ورضاه، وحبه، وذكره.

إن وعاء النفس الإنسانية من أشرف الأوعية التي خلقها الله تعالى، يتنزل عليها من عند الله النور والبصيرة، والهدى، والمغفرة والاستقامة، ورضاه تعالى، وشكره، وذكره لعبده...

وما أكثر بؤس الإنسان وشقاؤه، وظلمه لنفسه، وجنايته عليها عندما يجهل قيمة هذا الوعاء الذي رزقه الله دون كثير من خلقه ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢).

ومن هذه الإفاضات إفاضة النصر على المؤمنين، فإن النصر من عند الله، يهبه لمن يشاء من عباده، طبقاً لسنن وقوانين إلهية في الحياة، كما أن التوفيق في الحياة من مواهب الله تعالى لعباده، يهبه لمن

⇐

⇒

يشاء من عباده، طبقاً لقوانين وسنن يقرره الله.

ومن هذه المواهب الإلهية: الرزق، فإن الرزق من عند الله، يهبه الله لمن يشاء، طبقا للسنن الإلهية في حياة الناس، وهكذا الإنسان فقير إلى الله في كل شيء، لا يملك شيئاً من الرزق والنصر والتوفيق والسلامة والعافية والعزة والكرامة، إذا لم يرزقه الله تعالى منه.

ولا يملك شيئاً من النور والهدى، والبصيرة والإيمان، والإخلاص، والتقوى، والرحمة والرقة، والدعاء، والتوبة إذا لم يرزقه الله تعالى ... وهذا هو قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (فاطر: ١٥).

وهذه هي المرحلة الثانية لفقر الإنسان إلى الله.

الفقر في العمل والجزاء

إن فقر الإنسان إلى الله تعالى فقر شامل في وجوده وحوله وقوته، ومن أمثلة فقره إلى الله:الفقر في العمل والجزاء... فما من عمل صالح يقدم عليه الإنسان إلاّ أن يتم ذلك بتوفيقه وفضله.

وسلام الله على العبد الصالح شعيبعليه السلام إذ يقول: ﴿**وما توفيقي إلاّ بالله**﴾ (هود: ٨٨)، وليس الإنسان بقادر على عمل صالح من دون توفيق الله.

وإلى هذا المعنى يشير زين العابدينعليه السلام: «**لا الذي أحسن استغنى عن عونك وفضلك**»... وهذا هو الوجه الأول من الأمر.

والوجه الثاني ان الثواب الذي يرزق الله تعالى عبده على أعماله الصالحة فضل آخر منه تعالى على عباده وليس من استحقاق العبد على الله تعالى.

فكل عمل من أعماله الصالحة محفوف بفقرين: فقر إلى الله تعالى في تأهيله وتوفيقه للأعمال الصالحة.

وفقر آخر في الجزاء الذي يهب الله تعالى عباده الصالحين على أعمالهم الصالحة.

الجانب التربوي في وعي الفقر

ولأمر ما نجد في منهج التربية الإسلامية تأكيداً على فقر الإنسان إلى الله في كل شيء، واضطراره إليه تعالى.

فإن وعي الفقر يكفكف عن الإنسان غُلواء الغرور، ويحفظه من الاستكبار والطغيان، ويشعره بحاجته المتصلة إلى الله تعالى في كل شيء، ويمكّنه من تذوق معنى (العبودية) بين يدي الله، وأن لتذوق (العبودية) من اللذات النفسية والعقلية للإنسان، ما يحرم منه المستكبرون والطاغون في الأرض.

هذا هو الحصار الأول، وأما الحصار الثاني.

⇐

⇒

٢- القهر

الإنسان مقهور لله تعالى في كل شيء، فهو سبحانه وتعالى القابض الباسط.

فإذا سلبه الله تعالى نعمة أنعمها عليه، فلا أحد يعيد إليه تلك النعمة، وإذا سلبه الله تعالى العافية والسلامة، فلا أحد بقادر على أن يعيد إليه ما سلبه الله من نعمة العافية والسلامة، وإذا سلبه الله تعالى نعمة الحياة، فلا أحد يعيد إليه ما سلبه الله من الحياة، وأن الله تعالى يقهر الجبارين والطغاة من عباده بالموت، فلا أحد يستطيع أن يمنحهم الحياة التي سلبها الله تعالى منهم.

وإذا أذلّ الله تعالى عبداً، فلا أحد يعيد إليه ما سلبه الله من العز.

وإذا سلبه الله الرزق والفقر، وأحوجه فلا أحد يرزقه من دون الله.

وإذا شاء الله أن يسلب النصر والسلطان من قوم، فلا أحد ينصرهم ويرزقهم العز والسلطان من دون الله.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦).

وإذا أراد الله تعالى ان يعاقب عبده في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً، فلا أحد يستطيع ان يدفع عنه هذه العقوبة، ولا يجد ملجئاً يلجأ إليه من عقوبة الله.

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾(الأحزاب: ١٧) .

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ (الرعد: ١١).

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً﴾ (الفتح: ١١).

وكذلك يشعر الإنسان بسلطان الله تعالى ويشعر بأنه مقهور لسلطان الله في الدنيا والآخرة.

السنن الإلهية القاهرة

ولا ينافي هذا القهر اختيار الإنسان وحريّة إرادته، فإن حرية الإنسان لا تخرج الإنسان من دائرة قهر الله تعالى.

وذلك ان الإنسان يملك الاختيار في الاسباب، اما في النتائج فإنه مقهور لسنن الله تعالى، سواء في ذلك الأمم والأفراد.

إن الأمم والجماعات تمتلك حق الاختيار في الاسباب، وبإمكانها أن تتعلم، وتتثقف، وتؤمن، وتعمل صالحاً، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتقيم الحق، وتبطل الباطل، ويتعاون بعضهم مع بعض... أما إذا تركوا العلم والمعرفة والإيمان والعمل الصالح،والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحق والعدل، ثم سقطت تلك الحضارة وانهارت، ونزل بهم العذاب، فليس بمقدور تلك الأمة ان تسلم من العذاب الذي ينزل بهم بغتة، ضحى، وهم يلعبون، كما رأى هذا الجيل سقوط حضارة

⇐

⇒

الإلحاد في الاتحاد السوفيتي، وكما يجد الأجيال القادمة سقوط الحضارة المادية في الغرب، وهم يحسبون أن ذلك نهاية للتاريخ، وليس كذلك، وإنما هي نهاية للحضارة المادية في الغرب... نتيجة طيشهم وفسادهم وظلمهم وإعراضهم عن الله تلحقهم على هذه الصورة من السقوط والانهيار المفاجئ بغتة، ضحى، وهم يلعبون.

يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام في تصوير هذا المعنى: «**ولا الذي أساء واجترأ عليه خرج من سلطانك**».

فهو لا محالة باقٍ في حوزة قهر الله تعالى وسلطانه.

٣- الاضطرار هو وعي الفقر والقهر

هذا موقع الإنسان في هذه الدنيا، وفي الآخرة، من الفقر إلى الله، والقهر إلى سلطان الله.. ولو أن الإنسان وعى موقعه بين يدي الله من الفقر والقهر تذوق معنى الاضطرار إلى الله تعالى في كل شيء.

والذي يتذوق الاضطرار إلى الله في كل شيء فقد رزقه الله وعي الدعاء وجميل الإجابة.

يقول تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾ (النمل: ٦٢) .

فإن حقيقة الاضطرار هو وعي الفقر إلى الله في كل شيء، ووعي قهر الله تعالى له في كل شيء. فإذا وعى الإنسان هاتين الحقيقتين تذوق الاضطرار إلى الله في كل شيء.

فإن عامة الناس لابد ان يشعروا معنى الاضطرار إلى الله في حياتهم، حيث لا يجدوا سبباً يلجأون إليه إلاّ الله تعالى، ويشعرون عنده بفقرهم إلى الله وخضوعهم لسلطان قهر الله...

ولكن قليلاً من الناس يشعر بهذه الحقيقة المزدوجة (الفقر والقهر) في كل موقع، وكل وقت، وفي كل شيء، وهذه درجة عالية من الوعي لا يؤتاها إلاّ أصحاب البصائر من عباد الله.

أولئك يعون الاضطرار إلى الله في كل شيء وفي كل زمان ومكان، وأولئك يرزقهم الله طعم الدعاء والانقطاع إلى الله تعالى في الطلب والمسألة، ويرزقهم الله لذة الإجابة من جانب الله تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾.

وموقع (الاضطرار إلى الله) هو المنطلق الصحيح للدعاء، ومثل هذا الدعاء لاتخطؤه الإجابة.

وهاتان معادلتان قرآنيتان متطابقتان مع حقائق الكون:

المعادلة الأولى: ان الدعاء هو الاضطرار، وما عدا ذلك صورة دعاء، وليس دعاءً وأما الاضطرار فهو مرحلة عالية من مراحل وعي الفقر ... الفقر إلى الله حيث لا يغنيه أحد من دون الله إلاّ بإذن الله، والإحساس بسلطان قهر الله عليه، لا يعيذه احد منه إلاّ بإذنه.

ولهذا الاضطرار وجهان:

وجه سلبي وهو الإيمان بأنّه لا يغنيه أحد من دون الله، ولا يعيذه احد من دون قهر الله.

⇐

يا رَبِّ يا رَبِّ يا رَبِّ[١] .

⇒

ووجه إيجابي هو اللجوء إلى الله تعالى عند الدعاء حق اللجوء... وهذا اللجوء الحق وهو الوجه الإيجابي للاضطرار، وهذا اللجوء الحق إلى الله في المسألة هو حقيقة الدعاء أو الدرجة العالية منه.

وهذه هي المعادلة الأولى.

والمعادلة الثانية أن الدعاء عن اضطرار يساوي الإجابة دائماً، إلاّ أن يعلم الله تعالى مصلحة العبد في التأجيل فيؤجله.

«**ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور. فلم أر مولى كريماً أصبر على عبد لئيم منك يا رب**»، أو يرى مصلحة العبد في تبديل طلبه برزق آخر يرزقه الله تعالى فيبدله الإجابة في دعائه.

وما عدا ذلك فلا يخطئ الدعاء الإجابة، إذا كان الدعاء مصداقاً للجوء الصادق والاضطرار إلى الله.

ذلك أن الدعاء يمثّل وعي الإنسان لحاجته وفقره واضطراره إلى الله، وهذا الوعي هو من اعظم مفاتيح رحمة الله تعالى.

ورحمة الله تهبط على مواضع وعي الفقر والحاجة والاضطرار، كما يطلب جري الماء على وجه الأرض المواضع الواطئة من الأرض، ويترك المواضع النائية والعالية.

كذلك رحمة الله تطلب مواضع الفقر والحاجة والاضطرار، ومواضع وعي الفقر والحاجة والاضطرار دائماً.

(١) تأتي كلمة (الرب) بمعنيين: (مالك الشيء) و(خالقه، ومنشؤه، ومن يتولى تربيته).

والنداء هنا يأتي في هذا الإطار: أي يا ربي، ويا مالكي، ويا من خلقني، ورباني، وأنشاني.

إلى من يلجأ المخلوق إن لم يلجأ إلى خالقه.

وإلى من يلجأ المملوك إن لم يلجأ إلى مالكه.

وقد أمرنا الله تعالى أن ندعوه بهذا النداء في مواضع عديدة من القرآن.

يقول تعالى: ﴿**وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾ (طه: ١١٣).

﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً**﴾ (الإسراء: ٨٠) .

﴿**وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾ (المؤمنون: ١١٨).

وقد دعا الله تعالى بهذا النداء الأنبياء عليهم السلام.

ومن ذلك دعاء آدم عليه السلام: ﴿**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (الأعراف: ٢٣).

ودعاء نوح عليه السلام: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**﴾ (نوح: ٢٦).

⇐

⇐

ودعاء إبراهيمعليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء: ٨٣).

ودعاء موسىعليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (القصص: ١٦).

ودعاء سليمانعليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (سورة ص: ٣٥).

ودعاء زكرياعليه السلام: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (الأنبياء:٨٩)، ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: ٣٨).

ودعاء عيسىعليه السلام: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (المائدة: ١١٥).

وكما أمرنا بالدعاء بهذا النداء: (يا ربّ) ووجدنا إن جملة من دعاء الأنبياءعليهم السلام كان بهذا النداء، كذلك نجد ان الاستجابة من جانب الله تعالى لدعاء عباده وردت تحت عنوان (الرب).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾.

التناسب بين أسماء الله والدعاء

أسماء الله تعالى مفاتيح رحمة الله، وبهذه الأسماء يستنزل الإنسان أبواباً متعددة من رحمة الله في الدعاء، فيدعو الإنسان الله تعالى للرزق بـ (يا رازق) ويدعو الله تعالى ليتوب عليه بـ: (يا تواب) ويدعو الله لينصره بـ: (يا ناصر).

ويدعو الله ان يقهر أعداءه بـ (يا قهار)، ويرحمه بـ (يا أرحم الراحمين)، ويعافيه بـ (يا شافي)، ويكفيه بـ (يا كافي)، ويرزقه محبة المؤمنين بـ (يا ودود)... وهكذا.

ولسنا نعلم بشكل تفصيلي سرّ العلاقة بين الاسم والدعاء، والمصدر الوحيد الذي يموننا بالمعرفة في العلاقات الغيبية هو الوحي.

إلاّ أننا نعلم أن لجوء العبد إلى الله تعالى بكل اسم من أسماء الجمال يكون سبباً لنزول الرحمة المناسبة لذلك الاسم، ونعلم ان أسماء الله تعالى مفاتيح لأبواب مختلفة من الرحمة.

فمن يطلب باباً من أبواب الرحمة فعليه أن يطلبه من أسماء الجلال والجمال المناسبة لذلك الباب.

أسرار التكرار في الدعاء والنداء:

والتكرار في النداء كما في هذه الفقرة من الدعاء: (يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ) ليعمّق حالة النداء وتأكيدها وتركيزها في نفس الإنسان... وأن للتكرار أثر واضح في تأكيد حالة الدعاء والتضرع واللجوء إلى الله.

وقد ورد التأكيد والتكرار في الروايات على تكرار الأذكار ومنها الأسماء الحسنى، وتكرار طائفة من

⇐

⇐

الأدعية، والتكرار في قراءة القرآن.

وفي الأمر سر ونحاول هنا بمناسبة التوحيد بتكرار ذكر (الرب) أن نفتح هنا طرفاً من ملف هذه المسألة.

التكرار في الأذكار يعمّق حالة الحضور من الإنسان الذاكر، والتكرار في الدعاء يعمّق حالة الطلب عند الداعي، والتكرار في قراءة القرآن يعمّق في نفس القارئ حالة الانشداد إلى الخطاب الإلهي.

وتكرار الصوم يعمّق حالة (كفّ النفس) و(الطاعة) عند الصائم، وتكرار الاستغفار يعمق حالة التوبة والندم والخجل والعزم على الكف عن المعاصي في نفس المستغفر.

والصلاة مجموعة متكاملة من الأحوال، منها الذكر، والشكر، والطاعة، والعبودية، والخضوع، والخشوع، والأدب، ووعي حضور الله، والدعاء، والتسبيح، والحمد، ونية القربة، وغيرها من المفاهيم الرفيعة التي تتضمنها الصلاة، وتكرار الصلاة في كل يوم يعمّق هذه الحالات جميعاً في نفس الإنسان.

ولا يختلف التكرار في المهارات الفنية التي تقوم بها (جوارح) الإنسان كالطباعة السريعة والسياقة والسباحة والخط والرسم وسائر المهارات عن الأحوال التي تقوم به (حوائج) الإنسان كالذكر والدعاء والصلاة والتسبيح والحمد والصوم وكف النفس. (إن الصلاة والصوم جهد للجوارح، لاشك في ذلك، ولكن روح الصلاة والصوم والذكر هو الجهد الذي تقوم به الجوانح)

وهذا الإجمال له تفصيل، وإليك هذا التفصيل:

التكرار في الدعاء:

إن حقيقة الدعاء وروحه (الفقر) و(الطلب)، وهي ان يتحسس الإنسان فقره إلى الله، (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) ويتحسس في نفسه الإقبال على الله بالطلب والرجاء والدعاء، (ادعوني استجب لكم)، ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾.

وهاتان الحالتان تقترنان عادة، فلا يتحسس الإنسان الفقر في نفسه إلى الله إلاّ مع الدعاء والطلب، ولا يتحسس الإنسان الدعاء والطلب إلاّ مقارناً لوعي الفقر إلى الله.

وهما من أعظم منازل رحمة الله تعالى، وإذا استطاع الإنسان أن يحقق في نفسه وعي الفقر والفاقة إلى الله، وحالة الإقبال على الله في الدعاء والطلب فقد أحلّ في واحد من أعظم منازل رحمة الله، فليغتنم ذلك، وليكثر من الدعاء والطلب، فإن المسؤول كريم، وليس في المسؤول شح وبخل، وإنما الخلل في نفس السائل ودعائه.

إن قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ من حقائق الكون الكبرى وسنن من سنن الله تعالى لا تتحول ولا تتبدل، إلاّ ان يعجز العبد من تحقيق حالة الفقر والدعاء في نفسه، أولا يكون السؤال في مصلحة

⇐

⇒

السائل فيؤجل الله تعالى الاستجابة لعبده إلى حين يراه صالحاً له، أو يرزقه بدلاً عنه أبواباً أخرى من رزقه (ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور) (من دعاء الافتتاح/ كتب الأدعية).

وهذا الوعي وهذا الإقبال (وعي الفقر) و(الإقبال على الله) يتعمقان في نفس الإنسان ويترسخان بالتكرار، وهذا التعميق في الوعي والإقبال بالتكرار أمر محسوس لكل أحد.

التكرار في الأذكار

الذكر ضد الغفلة.

والناس بين غافل عن الله وذاكر له والغفلة حجاب يحجب الإنسان عنالله، فإذا زالت الغفلة بالذكر يرتفع هذا الحجاب.

وعندما يرتفع حجاب الغفلة يجد الإنسان نفسه بحضور الله، ويعي حضور الله، ويملأ هذا الوعي قلبه وعقله، فلا يغيب الله تعالى عن عقله وقلبه... وكأنه يرى الله تعالى رؤية متصلة شفافة واضحة، ليس فيها لبس.

وهذا هو معنى الحديث عن رسول الله: «**اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه، فإنه يراك**» (ميزان الحكمة ٦ / ١٤، عن بحار الأنوار ٧٧ / ٤٧).

وفي حديث آخر عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**اعبد الله ولا تشرك به شيئاً واعمل لله، كأنك تراه**» (المصدر السابق عن كنز العمال/ ح ٥٢٥٢).

و«**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(المصدر السابق عن كنز العمال/ ح ٥٢٥٥).

وهذا هو الشطر الأول من الرؤية والشهود، وهو رؤية العبد لربه وشهوده له، والشطر الآخر من الرؤية والشهود شهود الله تعالى لعبده.

وإذا كان الشهود الأول من درجات الصديقين، فإن الإيمان بالشهود الثاني من لوازم الإيمان، وإذا شك العبد فيه اختل إيمانه.

وكان رسول اللهصلى الله عليه وآله – كما في الرواية – إذا قرأ قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً**﴾ بكى بكاءً شديداً. (المصدر السابق عن كنز العمال/ ح ٥٢٥٢، عن تفسير نور الثقلين ٢ / ٣٠٨).

وعندما تتكامل هذه الحالة في نفس العبد يرى نفسه دائماً بحضور الله، في كل زمان ومكان.

ومن يرى نفسه بحضور الله، فلا يمكن أن يعصي الله بحضوره، ويتأدب بأدب الحضور، ولا يفارق ذكر الله قلبه ولسانه.

في الحديث القدسي: أن موسى بن عمرانعليه السلامناجى ربه، قال: «**يا رب أبعيد أنت مني فأناديك، أم**

⇐

⇒

قريب فأناجيك، فأوحى الله جل جلاله: أنا جليس من ذكرني» (عن بحار الأنوار ٩٣ / ١٥٣).

وفي رواية أخرى: «**يا موسى أنا جليس عبدي حين يذكرني، وأنا معه إذا دعاني**»(ميزان الحكمة ٣ / ٤١٥، عن كنز العمال / ح ١٨١٧١).

والتعبير هنا تعبير رمزي بالتأكيد، يرمز إلى شدة وعي العبد لحضور الله، حيث يرى العبد نفسه بحضور الله، ومن يكون بحضور الله يتأدب بأدب الحضور أولاً.

ويملأ حضور الله تعالى قلبه وعقله، ولا يفارق ذكر الله قلبه ولسانه ثانياً.

ويعصم هذا الوعي (وعي الحضور) من ارتكاب المعاصي والذنوب ثالثاً.

عن الحسين البزاز، قال: قال لي أبو عبد اللهعليه السلام: «**ألا أحدثك بأشد ما فرض الله عز وجل على خلقه؟**

قلت: بلى.

قال: **انصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كل موطن.**

أما إني لا أقول سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلاّ الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك.. ولكن ذكر الله في كل موطن إذا هممت على طاعته أو معصيته»(بحار الأنوار ٩٣ / ١٥٤).

وتكرار الذكر له دور مؤثر في تشديد وعي الحضور وتعميقه الذي ورد فيه: «**حتى كأنك تراه**»، أو «**أنا جليس من ذكرني**»..

إن قطرة الماء التي تقطر على الصخرة الصلبة تحفر الصخرة بالتكرار ومرور الزمن.. وقلب الإنسان اكثر استجابة للتكرار والتأكيد، ولا مناقشة في الأمثال.

فقد لا يكون للذكر في المرة الأولى أو المرات الأولى تأثير كبير في تحضير النفس، وتوعية الحضور الإلهي، ولكن التكرار والتأكيد يعمّق لدى الإنسان حضور النفس ووعي الحضور الإلهي.

التكرار في قراءة القرآن:

روي أن رسول اللهصلى الله عليه وآله كرر ذات يوم (بسم الله الرحمن الرحيم) عشرين مرة. (المحجة البيضاء ٢/ ٢٣٧).

وعن أبي ذرعليه السلام، قال: أقام بنا رسول اللهصلى الله عليه وآله، فقام ليله بآية يرددها ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**﴾ (أخرجه ابن ماجة/ حديث رقم ١٣٥٠)..

وتمام الآية ﴿**وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (المائدة: ١١٨).

وقام سعيد بن جبيررحمه الله ليلة يردد هذه ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ (المحجة البيضاء ٢ / ٢٣٨).

وقام بعضهم للصلاة في مقام ابراهيمعليه السلام ليلاً، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ**﴾، فأخذ يكررها ويبكي حتى الصباح.

⇐

⇒

إن آيات القرآن بصائر ونور، ومهما يكرر الإنسان الآية من القرآن تتعمق هذه البصائر ويترسخ هذا النور في قلبه وعقله.

وقد يمرّ الإنسان بالآية من كتاب الله، فلا تنكشف لديه ما فيها من بصائر ونور، ولكن مهما يعيد الآية ويكررها تتكشف لديه بصائر الكتاب وتترسخ في نفسه.

وإن التكرار والتأكيد يفعّل هذه البصائر في نفوس الناس. ومهما يرددها الإنسان أكثر يتضاعف تأثير هذه الآية في نفس قارئها أكثر.

وبالتكرار يتحول مقولة القول إلى الحال. وهذا هو الانقلاب الأول داخل النفس، ثم يتحول الحال إلى ملكة نفسانية راسخة ثابتة، وهذا هو معنى الانقلاب الثاني.

ومن التكرار في تلاوة آيات القرآن ما ورد في الصلاة المعروفة: بصلاة الإمام المهدي صاحب الزمان‍عليه السلام من تكرار: (إيّاك نعبد وإياك نستعين) من سورة الحمد، مائة مرة في كل ركعة، وهو عمل جليل يؤكد في نفس الإنسان حالة اللجوء إلى الله تعالى في العبادة (على الخط الصاعد) والاستعانة (على الخط النازل)، ويعمّق في نفسه حصر العبادة والاستعانة بالله.

وملاحظة أخرى لابد من الإشارة إليها في هذا السياق هي ان آيات القرآن خطاب الله تعالى إلى الناس، وإذا استشعر الإنسان هذا المعنى الرفيع، وعلم أن الله يخاطبه من علياء كبريائه وعظمته وجلاله، يجد في خطابات القرآن لذة لا تفوقه لذة، وينشدّ إلى هذا الخطاب، ولا يكاد يطيق ان يفارقه.

إن خطاب ﴿**يا أيها الإنسان**﴾، ﴿**يا أيها الناس**﴾، ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ يتوجه من لدن الله تعالى إلى الإنسان.

وأي لذة أعظم من أن يجد الإنسان نفسه موضع نداء الله تعالى وخطابه.

وقد حكي عن بعض العارفين أنه كان يقول: (كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأني أسمع رسول الله‍صلى الله عليه وآله يتلوه على أصحابه، ثم تلوته وكأن جبرئيل يلقيه على رسول الله‍صلى الله عليه وآله، ثم تلوته، وكأن الله يخاطبني به فوجدت فيه لذة ونعيماً لا أصبر عنه).

وقد كان يقول أحدهم: (لو طهرت القلوب لم تشبع من القرآن).

فلا محالة يكون للتكرار والتأكيد تأثير في انشداد الإنسان بالخطاب الإلهي، وكلما ينشد الإنسان بخطاب الله، يفتح له القرآن كنوزه أكثر من ذي قبل.

التكرار في الصلاة:

قد شرّع الله تعالى التكرار في الصلاة فريضة في صلب التشريع، وجعلها فرضاً على الناس في كل يوم خمس مرات.

⇐

⇐

ولأمر ما أوجب الله تعالى هذا الفرض على عباده بهذه الصورة من التكرار.
فإن الصلاة تتضمن مجموعة متكاملة من الأذكار والأعمال والدعاء والتسليم والشهادة والتحميد والتسبيح والتكبير والتوحيد والإخلاص والخضوع والخشوع والوقوف بين يدي الله، والالتزام بأدب الحضور بين يدي ذي الجلال والكبرياء.
وهذه المجموعة المتكاملة التي تتضمنها الصلاة من التكبير إلى التسليم، هي غذاء كامل للعقول والنفوس والقلوب وللفرد والمجتمع.
ولا غنى للإنسان، مهما يكن موقفه وثقافته وحظه من القرب من الله من هذه المجموعة المتكاملة التي تتضمنها الصلاة.
وحاجة الإنسان إليها تدخل في دائرة الضرورات التي لابد للإنسان منها في تكوين عقله وقلبه، ومن دونها يبقى الإنسان يعاني من عجز ونقص واضح في شخصيته، لا يسده شيء غير الصلاة.
وأبرز مثل على ذلك ما يعانيه الإنسان في الغرب من الانفصام والانشطار في الشخصية والإحساس بنضوب روافد الفطرة في النفس، والشعور بالغربة وسط ضجيج الحياة الاجتماعية وانهدام الحياة المعنوية والروحية مرة واحدة.. وذلك رغم التقدم العلمي الكبير الذي أحرزه الغرب في العلوم التجريبية والتقنية.
إن العجز والنقص الذي يعاني منه الإنسان في الغرب، لا يسده شيء غير الصلاة، وقد تنكرت هذه الحضارة للصلاة، فلا تزال تعاني من هذه الأعراض النفسية والاجتماعية القاتلة، حتى يأذن الله بسقوط هذه الحضارة، كما سقطت حضارة الإلحاد من قبلها في الاتحاد السوفيتي.
وإذا عرفنا أن الصلاة حاجة ضرورية للإنسان وغذاء لعقله وقلبه لا غنى له عنها.. فلابد ان يواصل الإنسان القيام بالصلاة في كل يوم مرات عديدة ولا ينقطع عنها، لئلاّ يصيبه الجدب والنضوب الذي قد أصاب الإنسان في الغرب.. وكما يعاود الإنسان غذاء الجسم مرة بعد أخرى إذا أراد أن يحافظ على سلامة جسمه، كذلك يجب ان يعاود الإنسان الصلاة مرة بعد أخرى إذا أراد أن يحافظ على سلامة عقله وقلبه.
وملاحظة أخرى لابد من الإشارة إليها في هذا الصدد، كما أشرنا إليها في التكرار في قراءة القرآن: إن الصلاة هي خطاب العبد الصاعد إلى الله، كما أن القرآن هو خطاب الله النازل إلى العباد.
وهذان الخطابان ضروريان في حياة الإنسان، ولا غنى للإنسان عنهما.
ولابد للإنسان أن يتعاطى مع الله تعالى الخطاب، يتلقى منه الخطاب، ويرفع إليه الخطاب، ويجد الإنسان كل قيمة في هذا الخطاب المتبادل بينه وبين الله تعالى.
فالقرآن هو الخطاب النازل من الله تعالى إلى الناس، والصلاة والدعاء هو الخطاب الصاعد من

⇐

⇒

الإنسان إلى الله.

ومن دون هذين الخطابين لا قيمة للإنسان، وقيمة الإنسان أنه يتحمل الخطاب النازل من عند الله، ويملك أن يرفع الخطاب إلى الله، وليس كذلك الجماد والنبات والحيوان والجبال والبحار.

إن الجبال تتصدع لو أن الله تعالى خاطبها بهذا الخطاب الذي يخاطب به الإنسان، ولانطبق مثل هذا الخطاب:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

ولا يملك الحيوان والنبات والجماد ان يرفع إلى الله تعالى ما مكّن الله تعالى الإنسان منه من خطاب الله، وهو تكريم عظيم للإنسان ما فوقه تكريم.

ولابد للإنسان أن يستشعر الخطاب الصاعد إلى الله في الصلاة والدعاء، كما لابد له من ان يستشعر الخطاب النازل من عند الله في القرآن.

ولا يتأتى له هذا الانشداد بالخطاب الصاعد، والاستغراق في لذات هذا الخطاب ما لم يكرر الدعاء والصلاة ويعاودهما، فإن تكرار الصلاة والدعاء بين يدي الله، يعمّق في نفس الإنسان الإحساس بهذا الخطاب الصاعد، والانشداد إليه، والاستغراق في لذاته التي لا حدّ لها.

تكرار الصوم:

أبرز صفة في الصيام (كف النفس) عن طائفة من مشتهياتها ولذاتها.

و(كف النفس) كبرى قضايا الإنسان بعد (الذكر).

و(الذكر) و(كف النفس) هما الجناحان اللذان يقلع بهما الإنسان من الحياة البهيمية ويعرج بهما إلى الله تعالى. فهو أحد الركنين الأساسيين لإقلاع الإنسان وعروجه إلى الله.

ولابد للإنسان من تعميق وتأكيد حالة الكف، ومغالبة الهوى، والغرائز، وتكرار الصوم الواجب لشهر واحد من السنة ولفترة طويلة نسبياً في حياة الإنسان يحقق للإنسان هذه الغاية، ويمكنه من نفسه.

والصفة البارزة الأخرى في الصوم (الطاعة)، ومهما يكن التكليف أشق تزدد قيمة الطاعة.. وفي شهر رمضان تبلغ حالة الطاعة مرحلة رفيعة يندر نظيرها في سائر الفرائض، وبالتكرار لشهر واحد تتأكد وتقوى حالة (الطاعة) في نفس الإنسان.

وحالة الطاعة هي حالة العبودية والتسليم لله والانقياد، وهي من القيم الكبرى في حياة الإنسان.

تكرار الأسماء الحسنى:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠).

أسماء الله الحسنى مفاتيح أبواب مختلفة من رحمة الله، كل اسم منها مفتاح لباب من أبواب الرحمة. فالرزاق والرزاق مفتاح مفتاح الرزق، والودود مفتاح المودة، والشافي مفتاح الشفاء، والقوي مفتاح

⇐

بِكَ عَرَفْتُكَ[(١)]، وَأَنْتَ دَلَلْتَني عَلَيْكَ، وَدَعَوتَني إلَيْكَ، وَلولا أنتَ لَمْ أدْرِ ما أنت.

الحَمْدُ لله الذي أدْعُوهُ فَيُجيبُني وَإن كُنتُ بَطيئاً حينَ يَدعوني[(٢)]، وَالحَمدُ لله الّذي أسألُهُ فَيُعطيني وإن كُنتُ بَخيلاً حينَ يَستَقرضُني[(٣)]، والحمدُ لله الّذي أُناديه

⇒

القوة، والناصر مفتاح النصر، والفتاح مفتاح الفتوحات، والمنتقم مفتاح الانتقام من الأعداء، والرحمن الرحيم مفتاح الرحمة، والعفو الغفور مفتاح العفو والمغفرة.. وهكذا.

واسم الجلالة (الله) مفتاح لجميع أبواب الرحمة.. فإذا طلبت باباً من أبواب الرحمة فاطلبه بالاسم الذي يناسبه، وتكرار الاسم تأكيد وترسيخ للطلب، واستنزال الرحمة من عند الله.

وقد علمنا من أرباب الرياضات أنهم يطلبون أبواب رحمة الله المختلفة بالدعاء بأسماء الله الحسنى المناسبة لذلك الباب من أبواب رحمة الله، ويعيدون الدعاء ويكررونه بذلك الاسم.

وهذا منهج مشروع في الرياضات الروحية. وقد صرح القرآن به ﴿**وَلِلّه الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ (الأعراف: ١٨٠).

(١) فإن الله تعالى ألهمنا معرفته وتوحيده والإخلاص له، وذلك بفضله ورحمته التي أسبغها عَلى عباده. ولولا أن الله تعالى يلهمنا معرفته وتوحيده لما عرفناه. فقد عرفناه سبحانه بما ألهمنا من الإيمان وما منحنا من الرؤية النفسية الصافية، التي لا يخالطها شك، وهو الذي دلنا عَلى نفسه، وفتح قلوبنا وعقولنا عَلى معرفته. وكل ذلك فضل منه ورحمة.

يقول تعالى: ﴿**وَاللّهُ يَقُولُ الْحَقَّ**﴾، ﴿**وَاللّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾.

وفي قوله عليه السلام (بك عرفتك) أشارة إلى مسلك دقيق في معرفة الله تعالى يصطلح عليه الفلاسفة بـ (برهان الصديقين)، ويتلخص في السلوك من الله إلى الله، في قبال البراهين الأخرى التي تسلك بالإنسان من المخلوق إلى الخالق، لا يسعنا تفصيله والحديث عنه الآن.

(٢) يبتدأ - عليه السلام - بحمد الله تعالى على استجابته السريعة لدعاء عبده، يقول تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني استجب لكم**﴾ (المؤمن:٦٠). وهذه نعمة تستوجب الحمد والشكر، كما يعتذر عليه السلام عن بطئ العبد في الاستجابة لدعوة ربه.

فله الحمد تعالى إذ يستجيب لدعائنا كلما دعوناه، وإن كنا نتباطئ ونتكاسل عن الاستجابة لأمره تعالى كلما دعانا إلى طاعة أو نهانا عن معصية.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً**﴾ (البقرة:٤٥). فلا يملك أحد من دونه تعالى شيئاً كي يقرضه لله، إلا إن من فضله تعالى ورحمته بعباده أن اعتبر ما يطلبه من عباده قرضاً، ولا يخفى عَلى القارئ ما في هذا التعبير القرآني من ألطاف ربوبية

⇐

كلّما شئتُ لحاجَتي وَأخلُو به حيثُ شئتُ لسرّي بغيَرِ شَفيعٍ فَيَقضي لِي حاجَتي.

الحَمدُ لله الّذي لاَ أدعُو غَيرَهُ وَلَو دَعَوتُ غَيرهُ لَم يَستَجب لي دُعائي[١]، وَالحَمدُ لله الّذي لاَ أرجُو غَيرَهُ، وَلَو رَجَوتُ غَيرَهُ لأَخلَفَ رَجائي[٢]، وَالحمدُ لله الّذي وَكَلَني إليه فَأكرَمني[٣] وَلم يَكلني إلى النّاسِ فَيُهينُوني[٤]، وَالحمدُ لله الّذي تَحبّبَ إليّ، وهو غَنيّ عَنّي[٥]، وَالحَمدُ لله الّذي يَحلُمُ عَنّي حتّى كَأنّي لاَ ذَنب لي، فَرَبّي أحمدُ شيءٍ عندي وأحقُّ بحمدي.

اللّهمَّ[٦] إنّي أجدُ سُبُلَ المَطالب إليكَ مُشرَعَةً، وَمَناهلَ الرَجاء لديكَ (إليك) مُترَعَةً، والاستعانةَ بفَضلكَ لمن أمّلكَ[٧] مُباحةً، وَأبوابَ الدّعاء إليكَ للصّارخينَ

⟸

جميلة، وقد ضمّن الإمام السجاد عليه السلام هذا التعبير القرآني في مقام الحمد لله والاعتذار إليه تعالى، عن بخلنا فيما يطلب منا من خير، والخير كله منه تعالى وإليه يعود.

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ (الرعد:١٤).

(٢) أخلف رجاءه: أي لم يف (الغير) بوعده فيحقق له رجاءه.

(٣) وكلني إليه، أي تعهد حاجاتي ورزقي فأكرم وجهي عن السؤال.

(٤) أي ولم يفوض أمر رزقي وحاجاتي إلى الناس، فيهينوني.

(٥) تحبب إليّ: اظهر لي الحب والود، وتودد إليّ. والمعنى: أحمد الله تعالى عَلى ما أُظهر لنا من الحب، والتودّد، كرماً منه تعالى وفضلاً. فقد أسبغ تعالى حبه عَلى عباده، وهو غنيّ عن عباده. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة:٢٢٢)، وقال تعالى: ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

(٦) هذا تمهيد للدعاء بعد الحمد.

مشرعة: أي مفتوحة. يقال: أشرع بابه عَلى الطريق أي فتحه، ومنه الشارع: أي الطريق النافذ. والمنهل: المورد للشرب، يجمع عَلى مناهل. و(اترع) الإناء: امتلأ. والمناهل المترعة: الموارد التي امتلأت وفاضت بالماء. والمعنى: إني أرى السبل إلى دعاء الله والتضرع والابتهال إليه وطلب رحمته مفتوحة للداعين، وموارد رحمة الله تفيض برحمته وآلائه تعالى لمن يرجو رحمته وإحسانه.

(٧) أمّلك: أي رجاك.

مَفتوحةً، وأعلمُ أنّكَ للرّاجين بموضعِ إجابة، وللملهوفين[١] بمَرصد إغاثَة وَأن في اللّهف[٢] إلى جُودكَ وَالرضا بِقضائكَ عُوضاً منْ مَنْعِ الباخلين، وَمَندُوحةً[٣] عَمّا في أيْدي المُسْتأثرين، وَأنّ الرَاحِلَ إليْكَ قَريبُ المسافة[٤] وَأنّكَ لا تَحْتَجبُ عَنْ خَلْقَكَ إلا أنْ تَحْجُبُهُم الأعْمَالُ دُونَكَ[٥]، وَقَدْ قَصَدْتُ إليكَ بِطَلبتي، وَتَوجّهتُ

---

(١) الملهوف: المظلوم الذي يستغيث والحزين المهموم. وترصده: أي ترقبه، والمرصد موضع يترقب فيه الراصد سير الكواكب. والمعنى: انه تعالى يترصد الملهوفين، ليغيثهم ويُمدّهم برحمته. وليس من شك أنه تعالى محيط بكل شيء، والتعبير بالأرصاد ينمّ فقط عن عنايته تعالى الكبيرة بعباده ولطفه ورحمته، فكأنه تعالى يترصد الملهوفين من عباده ليغيثهم، وهو تعبير حسّي عن هذه الرعاية الإلهية للملهوفين. وجمل الدعاء هنا في ابتهال الإمام السجاد عليه السلام تشبه جمل الدعاء الواردة في الزيارة المعروفة بـ (أمين الله) المروية عن الإمام السجاد عليه السلام، حيث ورد فيها (اللّهم إن قلوب المخبتين إليك والهة، وسبل الراغبين إليك شارعة، وأعلام القاصدين إليك واضحة، وأفئدة العارفين منك فازعة، وأصوات الداعين إليك صاعدة، وأبواب الإجابة لهم مفتّحة، ودعوة من ناجاك مستجابة، وتوبة من أناب إليك مقبولة، وعبرة من بكى من خوفك مرحومة، والإغاثة لمن استغاث بك موجودة، والإعانة لمن استعان بك مبذولة، وعداتك لعبادك منجزة، وزلل من استقالك مقالة، وأعمال العاملين لديك محفوظة، وأرزاقك إلى الخلائق من لدنك نازلة، وعوائد المزيد إليهم واصلة، وذنوب المستغفرين مغفورة، وحوائج خلقك عندك مقضيّة، وجوائز السائلين عندك موفّرة، وعوائد المزيد متواترة، وموائد المستطعمين مُعَدّة، ومناهل الظماء مترعة).

(٢) اللهف: الاستغاثة والاضطرار واللجوء.

(٣) المندوحة: السعة والفسحة. استأثر بالشيء عَلى الغير استبد به وخصّه لنفسه، وضنّ به، والمستأثر الضنين الحريص والمعنى: أن في اللجوء إلى جوده تعالى والرضا بقضائه، فيما أعطى ووهب، سعة عن اللجوء إلى ما في أيدي الناس من مال ومتاع يستأثرونه لأنفسهم، ويضنّون به.

(٤) أي السالك إلى الله عن طريق الدعاء قريب المسافة إلى الله، فلا يحتجب الله تعالى عن عباده، وليس يبعد عن دعائهم وتضرعهم، يقول تعالى: (وإذا سالك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني) البقرة-١٨٦.

(٥) فإن الأعمال السيئة (في بعض النسخ الآمال) هي التي تحجب الإنسان عن الله، وإلا فلا يحتجب الله تعالى عن خلقه. يقول تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سورة ق:١٦).

يقول تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ* كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ* ثُمَّ

⇐

إليكَ بحاجَتي، وَجَعلتُ بكَ اسْتغاثتي، وَبدُعائك تَوسّلي مِنْ غَير استحْقاقٍ لاستماعك منّي[(١)]، وَلا استيجابٍ لعَفوك عَنّي، بَل لثقتي بكَرمك، وَسُكوني[(٢)] إلى صدق وَعْدك، وَلجائي[(٣)] إلى الإيمان بتَوحيدك، وَيقيني بمَعرفَتكَ مني أن لا رَبّ لي غَيركَ، وَلا إله إلاّ أنت وَحْدك لا شَريك لَكَ. اللّهم أنتَ القائل وَقولُكَ حَقّ، وَوعدُكَ صدق[(٤)]: ﴿وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْله إنَّ اللّهَ كَانَ بكُلِّ شَيْءٍ عَليماً﴾[(٥)].

وَلَيسَ من صفاتكَ يا سَيدي أنْ تَأمر بالسّؤال وَتَمنع العطيّة، وَأنت المنّان بالعطيّات عَلى أهل مَمْلكتك، وَالعائد[(٦)] عَليهم بتَحنن رَأفتك.

⇐

إنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحيمِ* ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذي كُنتُم بهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (المطففين: ١٤ – ١٧). إن السيئات والمعاصي هي سبب الرين على القلوب. والرين هو الصدأ، والرين على القلوب يحجب الإنسان عن الله، وينقلب هذا الحجاب يوم القيامة إلى عذاب جهنم.

(١) فلا نملك عملا نستحق به أن يسمع الله دعاءنا، ولم نقدم طاعة نستوجب بها العفو من لدن الله تعالى، إلا إننا نركن ـ مع ذلك إلى رحمة الله ولطفه وعنايته بعباده ونثق بكرمه وجوده.

(٢) السكون: الاطمئنان والركون.

(٣) اللجاء: الملاذ.

(٤) لقد وعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات مغفرة وأجراً عظيماً يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللّهُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات لَهُم مَغْفرَةٌ وَأَجْرٌ عَظيمٌ﴾ (المائدة:٩). ووعد الله حق وصدق، والله سبحانه لا يخلف وعده. يقول الله تعالى: (وعد الله لا يخلف الله وعده) ويقول: ﴿إنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ (إبراهيم:٢٢).

(٥) جاء في بعض النسخ (رحيماً) بدل (عليماً) وهو من خطأ النساخ، وهذه الفقرة تضمين لقوله تعالى في سورة (النساء:٣٢) ﴿وَسْأَلُوا اللّهَ من فَضْله إنَّ اللّهَ كَانَ بكُلِّ شَيْء عَليماً﴾.

(٦) عاد بالمعروف: صنعه معه. والعائدة المعروف والصلة الإحسان، والعائدة العطف والإحسان جمعه عوائد، ومنه الدعاء (إلهي عوائدك تؤنسني)، ومنه ما تقدم في زيارة امين الله (وعوائد المزيد متواترة)، والعائد المتعطف والمحسن. والتحنن: الترحم، والمعنى: أنت سبحانك المتعطف عَلى عبادك برحمتك ورأفتك.

إلهي رَبيتني في نعمك وَإحسانك صغيراً، وَنوّهت[١] بأسمي كَبيراً، فيا مَن ربّاني في الدنيا بإحسانه وَتفضّله وَنعمه، وَأشار لي في الآخرة إلى عَفوه وَكرمه. مَعرفتي يا مَولاي دَليلي عَليك[٢]، وَحبي لَك شَفيعي إليك[٣] وَأنا واثق مِنْ دَليلي بدلالتك، وَساكن[٤] من شفيعي إلى شفاعتك.

أدعوك يا سيدي بلسان قد أخرسه ذنبه[٥]، ربِّ أناجيك بقلب قد أوبقه جرمه[٦]، أدعوك يا ربّ راهباً[٧]، راغباً، راجياً، خائفاً، إذا رأيت مولاي ذنوبي

---

(١) نوهت باسمي: أي رفعت ذكري.

(٢) معرفتنا بالله ورحمته وكرمه دلتنا إليه تعالى، إلى التضرع إليه، وطلب رحمته ونعمائه، ونحن مؤمنون عاملون بدلالة هذا الدليل، الذي ألهمنا به الله سبحانه وتعالى.

(٣) وأنا احمل حبي لله شفيعاً لي عنده تعالى، يوم تقصر أعمالي عن النجاة من النار. وكيف يعذب الله قلباً فاض بحبه؟ ويحرق بالنار من يحمل بين جنبيه حبه والأيمان به ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾.

(٤) وساكن: أي مطمئن. والمعنى إنني اطمئن إلى شفيعي في الشفاعة عند الله. وأي شفيع يستشفع به العبد عند الله افضل من حبه لله.

(٥) فلا يطيق النطق خجلاً من مولاه.

(٦) أوبقه جرمه: أي حبسه عن الدعاء والتضرع. فإن القلب ينشرح للدعاء والتضرع والابتهال إلى الله بالأيمان. يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ٢٨)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال:٢)، كما ينغلق القلب على الدعاء والابتهال كلما ازداد الإنسان توغلاً في الجريمة يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ (التوبة:١٢٥)، ويقول تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ (البقرة:١٠).

وإذا قسى القلب، وانغلق عن الدعاء والتوجه إلى الله، ولم ينشرح لذكر الله فقد انقطع عن الله، يقول تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ (الزمر:٢٢).

والإمام السجاد عليه السلام يناجي الله في مقام الانكسار، والتذلل، والصغار، فيقول إذا كان قلب العبد قد أوبقه جرمه، فتفضل عليه بالانشراح والتفتح.

(٧) راهباً: خائفاً.

فزعت[١]، وإذا رأيت كرمك طمعت. فإن عفوت (غفرت) فخير راحم، وإن عذبت فغير ظالم.

حجتي يا الله في جرأتي[٢] عَلى مسألتك -مع اتياني ما تكره -جودك وكرمك، وعُدّتي[٣] في شدتي -مع قلة حيائي -رأفتك ورحمتك، وقد رجوت

---

(١) فزع: ذعر وخاف.

(٢) أي إنّ ما يجرؤ العبد عَلى مسألته تعالى، مع ما يعرف من ذنوبه وجرائمه هو ثقة العبد بجوده وكرمه.

(٣) (الحجّة) ما يحتج به العبد بين يدي الله تعالى، و(العُدّة) هنا ما يستعدّ به العبد من رحمة الله تعالى وفضله لمواجهة الشدائد والأزمات في الدنيا والآخرة، ولابد للعبد بين يدي الله، وهو غارق في المعاصي والذنوب، ومحتاج إلى الله تعالى في دنياه وآخرته، لابد له من أن يسأل الله ويطلب منه ان يفرّج عنه ما يلقاه من الشدائد والأزمات في الدنيا والآخرة... أقول: لابد للعبد المذنب الخاطئ، وهو يتوجّه إلى الله تعالى بالسؤال والدعاء، ويواجه الشدائد والأزمات... لابد له من (حُجّة) و(عُدّة).

حجة يحتج بها في السؤال والطلب، ويقبلها الله.

وعُدّة يقابل بها الأزمات والشدائد في الدنيا والآخرة. وحجة العبد بين يدي الله مع ما جاء به العبد من المعاصي التي يكرهها الله ويمقتها هي جوده وكرمه.

فإن العبد يحتج عند الله بجوده وكرمه تعالى فيما يريد ويسأل الله من المغفرة والرحمة.

وعُدّة العبد فيما يواجهه من الأزمات والشدائد هي رأفته ورحمته تعالى، فهما حجتان وعدتان.

أما الحجتان، فهما جوده وكرمه.

وأما العدتان في مواجهة الشدائد والأزمات، فهما رأفته ورحمته، يَعْتَدّ بها العبد لمواجهة غضب الله وسخطه.

والإمامؑ يرجو الله تعالى ان لا يخيب أمله بين هاتين الحجتين وهاتين العدتين (بين ذين وذين).

وكيف ييأس العبد من ربه تعالى ولديه حجتان (هما جوده وكرمه) وعدتان (هما رأفته ورحمته) فاستمع إليه عليه السلام في هذه الرائعة من روائع المناجاة، يقول معتذراً إلى الله، مسترحماً له، منيباً، مستغفراً إليه.

(حجتي يا الله، في جرأتي على مسألتك، مع اتياني ما تكره جودك وكرمك.

وعدّتي في شدّتي – مع قلّة حيائي – رأفتك ورحمتك. وقد رجوت ان لا تخيب بين ذين (الحجتين) وذين (العدتين) منيتي (رجائي وأمنيتي).

أن لا تخيب[١] بين ذين وذين منيتي.

فحقق رجائي، واسمع دعائي[٢]، ياخير من دعاه داع، وافضل من رجاه راج، عَظُمَ يا سيدي أملي[٣] وساءَ عملي فأعطني مِنْ عَفوكَ بمقدار أمَلي، وَلا تؤاخذني بَأسوأ عَملي، فَإنّ كَرمَك يجلّ[٤] عَنْ مُجازاة المذنبين، وَحلمك يَكبر عَن مُكافأة المُقصّرين، وَأنا يا سيدي عَائذٌ بِفضلك[٥]، هَاربٌ[٦] منكَ إليكَ،

---

(١) في بعض النسخ تخيّب، والخيبة: ضد النجاح. والمنية: البغية وما يتمناه المرء.

والمعنى إنني أرجو ألاّ يخيب الله أملي فيه بين جوده وكرمه، وبين رأفته ورحمته، (بين ذين وذين).

(٢) ابتداء في الدعاء بعد الحمد والثناء والتمهيد الذي تقدّم، والذي هَيّأ نفس الداعي إلى الالتجاء إلى الحضرة الإلهية، في خضوع وخشوع وابتهال.

(٣) عَظُم أملي ورجائي في الله بقدر ما ساء عملي، وأنا أرجو أن يعطيني الله بقدر أملي فيه، وأن لا يؤاخذني الله بأسوأ ما تقدم من عملي.

(٤) جلّ: عظم. والمعنى: إنّ كرمك أعظم من أن تجازي مذنباً بما كان من ذنوبه بعد توبته وإنابته، وحلمك أكبر من أن تكافئ المقصرين بما كان من تقصيرهم بعد ندامتهم واعتذارهم إليك.

(٥) عائذ بفضلك: أي ألوذ بفضلك وكرمك من ذنوبي وجرائمي.

(٦) أي هارب من قهرك وغضبك إلى رحمتك ورأفتك، وهارب من عدلك إلى كرمك، إذ لو كان الله تعالى يحاسبنا بعدله هلكنا، إلاّ إنّنا نأمل من كرمه أن يعفو عنا.

ومعنى الجملة: أنّ الهروب من الله تعالى ومن غضبه وانتقامه يستحيل عَلى المذنبين. يقول تعالى: (يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان) الرحمن-٣٣، فليس من ملجأ يلوذ به المذنبون، ويفرّون إليه غير أن يلوذوا ويلجأوا إلى الله تعالى. يقول تعالى: ﴿فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الذاريات:٥٠). يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بهذا الصدد في الدعاء المعروف الذي يرويه عنه كميل بن زياد رحمه الله: «**اللّهم عظم سلطانك، وعلا مكانك، وخفي مكرك، وظهر أمرك، وجرت قدرتك، ولا يمكن الفرار من حكومتك**» فليس من ملجأ للعبد الذي قصر في أعماله غير أن يلوذ العبد بالله ويفر إليه، ويأتي الله نادماً معتذراً، منكسراً، مستقيلاً.

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام - في نفس الدعاء -: «**وقد أتيتك يا إلهي، بعد تقصيري وإسرافي عَلى نفسي، معتذراً، نادماً، منكسراً، مستقيلاً، مستغفراً، منيباً، مقراً، مذعناً، معترفاً، لا أجد مفراً مما كان مني، ولا مفزعاً أتوجه إليه في أمري غير قبولك عذري، وإدخالك إياي في سعة من رحمتك**».

مُتنجّـز[١] مَـا وَعـدت مَـن الـصّفحِ عَمّـن أحـسنَ بـكَ ظنّـاً، وَمـا أنـا يـا رَبّ؟ وَمـا خَطري؟[٢] هَبني بفَضلكَ[٣]، وَتصدّق عَليّ بعَفوكَ[٤]، أي ربّ جَلّلنـي[٥] بـسترِك، وَاعفُ عَنْ تَوبيخي[٦] بكَرم وَجهكَ.

---

(١) جاء في بعض النسخ مستنجز، بدل متنجز.

نجز الحاجة وأنجزها: قضاها، وأنجز الوعد: وفى به، والمصدر منه (الإنجاز) وتنجز الحاجة أو الوعد: طلب انجازهما، كما إن استنجاز الحاجة أو الوعد يأتي بنفس المعنى.

وصفح عنه صفحاً: اعرض عن ذنبه. والمعنى إنني اطلب إنجاز ما وعدنا الله تعالى به من الصفح والعفو عمن أحسن به الظن من عباده.

(٢) الخطر: القدر. والمعنى ما قدري وقيمتي إلهي تجاهك فامنحني عفوك ورحمتك.

في هذه الجملة يشير الإمام عليه السلام إلى صغار العبد تجاه ربه العظيم. فمهما يزداد الإنسان عرفاناً بالله يتصاغر أكثر تجاه جبروته تعالى وكبريائه، ويحتقر نفسه إزاء عظمته وسلطانه تعالى. والعكس صحيح أيضا، فإنّ (الأنانية) تبدأ بالإنسان حيث ينسى ربه العظيم، وحيث لا يشغل ذكر الله قلبه وعقله.

(٣) ثم يقول الإمام عليه السلام: «**إذا لم يكن للعبد خطر ولا شأن إلى جنب جلال الله وجماله وعظمته: فهبني بفضلك**» أي: هب لي ذنوبي وجرأتي عليك، فما قيمتي وما خطري تجاه عظمتك لتحاسبني عليها .

(٤) أي تفضل علي بعفوك، والصدقة: العطية.

والإمام السجاد عليه السلام يشير هنا إلى صغار العبد وحقارته تجاه كبريائه وعظمته وسلطانه تعالى، فيقول: وما أنا يا رب؟ وما قيمتي وقدري؟ وما قيمة ما يقترفه العبد من مخالفة ويرتكبه من معصية؟ حتى تحاسبه عليه، وأنت رب السماوات والأرضين ورب العرش العظيم. ويسأل الله تعالى أن يتصدق عليه بالعفو (وتصدق علي بعفوك) وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾ فقد أمر الله تعالى بإنفاق العفو. وأحرى به تعالى أن ينفق هذا العفو من خزائن رحمته التي لا نفاذ لها عَلى عباده المذنبين.

(٥) جللني: غطني. والمعنى: استر عَلى عيوبي بسترك. وكأنما الإمام عليه السلام يجد نفسه في حضرة الله تعالى، قد ارتفع ما بينه تعالى وبينه من حجب الأنانية التي تحجب الإنسان عن هذه الرؤية الروحية النقية، فينادي ربه بقوله (أي رب) وهي كلمة لخطاب القريب.

(٦) فلا توبخني عَلى ما كان مني من ذنب وتقصير بكرم وجهك، فلست أطيق توبيخك وعتابك.

فَلو اطّلعَ اليَوم[(١)] عَلى ذَنبي غَيركَ مَا فَعلته، وَلو خفت تَعجيل[(٢)] العُقوبة لاجتَنبتُه، لا لأنّك أهونُ النّاظرين إليّ، وأخفّ المطّلعين عَليّ، بَل لأنّكَ يا رَبّ خَيرَ الساترين، وَأحكم الحَاكمين، وَأكرَم الأكرمين، سَتّار العُيوب، غَفّار الذُنوب، عَلاّمُ الغيوب، تَسترُ الذّنبَ بَكرمكَ، وَتؤخّر العُقوبة بحلمكَ.

فَلكَ الحَمدُ عَلى حلمكُ بَعد علمكَ، وَعلى عَفوكَ بَعدَ قُدرتكَ، وَيَحملني وَيجرئني[(٣)] عَلى مَعصيتكَ حِلْمكَ عَنّي، وَيدعُوني إلى قلّةِ الحياءِ سِتْرُكَ عَليّ،

(١) يقول الإمام عليه السلام: «لو اطّلع اليوم على عبدك غيرك من الناظرين لم يقدم عَلى ما أقدم عليه من مخالفتك، ولو كان يخاف منك ان تعجّل عليه العقوبة لم يرتكب ما ارتكبه من معصيتك. وليس مع ذلك يستهين بعلمك بما ارتكب في الخفاء من معصية، أو استخف بمعرفتك بما أقدم عليه، بعيداً عن أنظار الناس من مخالفة، ومعاذَ الله أن يستهين بعلمك، أو يستخف بنظرك.

وإنما ارتكب ما ارتكب من مخالفة ثقة بسترك وكرمك، وعلماً بأنك خير من يستر عَلى عباده: أعمالهم وجرائمهم، وخير من يحكم بالعفو والرحمة، وأنت قادر عَلى العقوبة والانتقام (احكم الحاكمين)، تكرم عبادك، وتستر عيوبهم، وتغفر جرائمهم (ومن يغفر الذنوب إلاّ الله)، وتعلم ما خفى من أعمالهم وجرائمهم عَلى الناس (عالم الغيب والشهادة) ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طه: ٧)، فتستر عليهم بكرمك وحلمك، عسى أن يتوبوا، ويعملوا صالحاً».

ومن هذه الفقرة يبدو ان تأخير العقوبة من جانب الله يكون عَلى نحوين، فقد يكون إمداداً للمجرم عَلى أن يزداد اثماً وبغيا يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾، وقد يكون حلماً وكرماً من الله عَلى عباده عسى أن يتوبوا ويعملوا صالحاً.

وفي هذه الجملة يرجو الإمام السجاد عليه السلام من الله أن يكون تأخير العقوبة من النحو الثاني، وأن يؤخر العقوبة عن عبده عسى أن يتوفق للتوبة والعمل الصالح. وقد ورد ما يشبه هذه الجملة في كلام الإمام الحسين بن علي عليه السلام في دعاء عرفة المعروف: «ولو اطّلعوا يا مولاي عَلى ما اطلعت عليه إذن ما انظروني، ولرفضوني، وقطعوني، فها أنا ذا يا إلهي بين يديك، يا سيدي خاضع ذليل، حصير، حقير، لا ذو براءة فاعتذر، ولا ذو قوة فانتصر».

(٢) فإن الله تعالى، مع علمه بما يرتكبه عباده من مخالفة ومعصية حليم بهم، لا يعجل في عقوبتهم، عسى أن يتوبوا، ويعملوا صالحاً فيمحو سيئاتهم. ومع قدرته عَلى عقوبتهم والانتقام منهم يعفو عنهم. والحلم بعد العلم والعفو بعد القدرة خليق بالحمد والثناء.

(٣) فلو كان العبد يتلقى العقوبة عاجلاً لما جرأ عَلى مخالفة مولاه، ولو كان الله لا يستر عَلى عباده ما

⇐

ويُسرعني إلى التوثّبِ عَلى محارمك معرفتي بسعة رحمتك وعظيم عفوك.

يا حليم يا كريم[١]، يا حي يا قيوم، يا غافر الذنب، يا قابل التوب[٢]، يا عظيم المن، يا قديم الإحسان أين سترك[٣] الجميل؟ أين عفوك الجليل؟ أين فرجك القريب؟ أين غياثك السريع؟ أين رحمتك الواسعة؟ أين عطاياك الفاضلة؟ أين مواهبك الهنيئة؟ أين صنائعك السنية؟ أين فضلك العظيم؟ أين منك الجسيم؟ أين إحسانك القديم؟ أين كرمك يا كريم؟ به وبمحمد وآل

⇒

يرتكبون لا ستحيي العبد من التوغل في المعصية، ولو كان لا يثق بسعة رحمة الله وعظيم عفوه تعالى لم يسرع إلى التوثب عَلى محارم الله. فما أكثر بؤس هذا العبد الذي يقابل رحمة الله وعفوه وستره وسعة رحمته وعظيم عفوه بالتجرئ عَلى حدود الله، والتوثب عَلى محارمه، والصلف، وقلة الحياء، وكان خليقاً به أن يحمله ذلك كله عَلى التقوى، والانقياد، والخضوع، والطاعة، والحياء.

(١) هنا يلتجئ الإمام في مقام التضرع والخشوع إلى التوسل باسماء الله الحسنى، ليدعو الله تعالى بها فيما يريد قضاؤه من حاجاته. يقول تعالى: ﴿**وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾.

(٢) التوب: التوبة، يتوسل الإمامعليه السلامإلى الله بأسمائه الحسنى، ويقول: «**يا حليم، يا كريم، يا حيّ، يا قيّوم، يا غافر الذنب...**».

(٣) وهنا يبدأ الإمام باستنجاز ما وعدنا الله تعالى به من رحمة واسعة، وفرج قريب، وغياث سريع، ومواهب هنيئة، وفضل عظيم. والاستنجاز والطلب هنا لم يأت عَلى صيغة الأمر، كما نعهد فيما يستنجز الإنسان من وعد أو يطلب من أمر وإنما جاء الاستنجاز والطلب عَلى صيغة الاستفهام مراعاة لأدب الدعاء والمناجاة مع الله تعالى. فليس مما يناسب هذا المقام أن يطلب العبد من مولاه استنجاز وعده عَلى نحو الأمر، وإنما يحسن به أن يرفع حاجته وطلبه إلى مولاه في صيغة الاستفهام. وكأنه يقول: هلا أصلح أنا لعفوك الجليل؟ وهلا أكون أهلاً لفرجك القريب وغياثك السريع؟ وهلا تجدني محلاً لائقاً لرحمتك الواسعة وعطاياك الفاضلة؟

وقد وعد الله تعالى عباده بكل ذلك. يقول تعالى: ﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾(الإسراء: ٢٠)، ويقول تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ (الحديد:٢٩)، ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ**﴾ (غافر: ٦١)، ويقول تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ (إبراهيم: ١١).

مُحمّد فاستنقذني، وبرحمتك فخلصني[(١)]،

يا محسن[(٢)] يا مجمل يا منعم يا مفضل، لست اتكل في النجاة[(٣)] من عقابك عَلى أعمالنا بل بفضلك علينا لأنك أهل التقوى وأهل المغفرة تبدىء[(٤)] بالإحسان نعماً، وتعفو عن الذنب كرماً، فما ندري[(٥)] ما نشكر أجميل ما تنشر أم قبيح ما تستر؟ أم عظيم ما أبليت وأوليت أم كثير ما منه نجيت وعافيت؟ يا حبيب[(٦)] من

---

(١) أي خلصني ونجني.

(٢) عود إلى اللجوء إلى أسماء الله الحسنى والتضرع إليه تعالى. و(المجمل) من أجمل: أي أحسن فهو بمعنى المحسن.

(٣) لا يتّكل في النجاة من العقوبة عَلى ما قدّم من عمل صالح. فليس له من عمل صالح يقيه عذاب النار، وإنما اعتماده واتكاله عليك، وعلى واسع رحمتك وعظيم عفوك فإنك أنت يا إلهي أهل للتقوى (أي أهل لأن يتقيك عبادك) وأهل لأن تغفر لهم سيئات أعمالهم.

(٤) فقد بدأتني بالنعم إحساناً وتفضلاً منك، وعفوت عن سيئات أعمالي تكرماً منك سبحانك.

(٥) فلست ادري ماذا أشكر من نعمك الكثيرة ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم:٣٤) أأشكر جميل ما نشرت عني بين الناس من عمل صالح عملته بين حين وآخر، وهو لا يستحق الذكر، أم أشكر لك ما سترت عليّ من عمل قبيح ارتكبته، ولم يعرف به غيرك، أم أشكر لك عظيم ابتلائك وامتحانك لي لأرقى إليك في مدارج الابتلاء، وما أوليتني من النعم الكثيرة (وفي بعض النسخ عظيم ما أنعمت وأعطيت)، أم أشكر لك انك عافيتني ونجيتني من كثير من البلاء، لم يردّه عني غيرك، ولم يحفظني منه غيرك.

وهذه الجملة كما يرى القارئ شكر جميل من العبد عَلى جميل ما أنعم عليه ربه تعالى من النعمة والرحمة.

وبهذا المضمون جاء في الدعاء الذي رواه كميل بن زياد عن الإمام علي عليه السلام. يقول عليه السلام: «**اللّهم مولاي كم من قبيح سترته؟ وكم من فادح من البلاء أقلته؟ وكم من عثار وقيته؟ وكم من مكروه دفعته؟ وكم من ثناء جميل لست أهلاً له نشرته؟**».

(٦) الحبيب هنا بمعنى المحب. والمعنى: يا من يحب من تودد إليه وأحبه. فإن الله تعالى يحب من عباده من تحبب وتودد إليه وأحبه يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١).

وحب الله تعالى من أهم ما يشغل قلب مؤمن، عرف الله حق معرفته، وأحبه حق الحب فيشغله عن

⇐

تحبب إليك[١]، ويا قرة عين من لاذ بك[٢] ...وانقطع[١] إليك.

⇒

غير الله، ومن متاع الدنيا وزخرفها.

يقول الإمام السجادعليه السلام في مناجاة المحبين: «**إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً، إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودّك ومحبتك، وشوّقته إلى لقائك، ورضّيته بقضائك ـ إلى أن يقول ـ وأخليت وجهه لك، وفرّغت فؤاده لحبك، ورغبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، واشغلته بطاعتك**».

(١) هنا مقولتان الحب والانقطاع الذي يحبب إلى الله يحبه الله لا محالة .

﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

حب لله + تبعية وطاعة لله ورسوله حب الله لعبده.

لا شيء ولا أحد يستحق تعلق قلب الإنسان وحب الإنسان غير الله تعالى.. هذا الحطام الزائل في الدنيا والمتاع الذي تكتسب قلوب الناس لا يستحق تعلق القلوب ولا يستحق حب الإنسان ليس يستحق شيء واحد الحب والتعلق من قلب الإنسان إلاّ الله تعالى وهذه هي الحركة الأولى الصاعدة من القلب إلى الله، ثم الحركة الامتدادية النازلة حب الأنبياء وحب رسول اللهصلى الله عليه وآله وأهل بيته.

﴿**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾.

والمؤمنون في هذه الحركة الامتدادية النازلة حب في الله، وإلاّ فإن الله تعالى هو فقط يستحق الحب والتعلق من عباده (توحيد الحب) ولا يصح شيء من الحب في القلب السليم إلاّ أن يكون لله (صاعداً) أو في الله (نازلاً).

(٢) إنّ أكثر الناس يعرفون ملاذات ومعاذات كثيرة غير الله في ساعات الضراء والبأساء والشدة والعسر يلوذون هاهنا وها هناك، ولا يلوذون بالله إلاّ إذا تساقطت أمامهم خيارات السلامة والنجاة كما إذا اختلت بهم الطائرة في أعماق الفضاء فلا يجدون عندئذ ملاذاً ومعاذاً غير الله، فيلوذون بالله.

أما العارفون بالله فلا يجدون ولا يعرفون في ساعات العسر والشدة والبأساء غير الله تعالى.. وذلك لأنهم يعلمون أن الملاذات والمعاذات التي يلجأ إليها الناس كلها من جانب الله تعالى، وتلجئهم وتحميهم بإذن الله فهم لا يعرفون ملجئاً وملاذاً غير الله في حياتهم. فإذا ذهبوا إلى الطبيب بإذن الله فهم قد ذهبوا إلى الله، فهو يعلم (وهذه معرفة ووعي) أن اللجوء إلى الطبيب هو اللجوء إلى الله، وقارب النجاة ملاذ للغريق بإذن الله فهو إذا توجه إلى قارب النجاة يلجأ إلى الله.. فيتذوق عند الرجوع إلى الطبيب والاحتماء بقارب النجاة معنى اللجوء واللواذ بالله.

إذن المسألة مسألة معرفة، وليست مسألة فعل. وهذه المعرفة هي التي تخرج الإنسان من الشرك إلى التوحيد الخالص.. هذه الحقيقة الأولى.

⇐

أنت المحسن ونحن المسيئون فتجاوز[٢] يا رَبّ عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك، وأي جهل[٣] يا رَبّ لا يسعه جودك؟أو أي زمان[٤] أطول من أناتك؟ وما

⇐

والحقيقة الثانية عامة الناس لا يعرفون الحاجة إلى المعاذ والملجأ إلاّ في ساعات البأساء والضراء. في ساعات اليسر والرخاء لا يجدون حاجة إلى اللجوء واللواذ.. وأهل المعرفة والعرفان يعرفون أنهم في اضطرار دائم.. فهو يتنفس بإذن الله وقلبه ينبض بإذن وذاكرته تعمل بإذن وعقله يعمل بإذن والناس يكرمونه ويعينونه بإذن ولو لم يأذن الله لانقطعت نفسه ونبضات قلبه ولم يعتبه ولا يكرمه أحد.. فهو في كل الحالات مضطر إلى الله وهو دائماً لائذ بالله عائذ به وهذا هو معنى الاضطرار.

أولئك يجدون أن الله قرة أعينهم يلوذون به دائماً.

وهذه المرحلة عالية من الوعي والمعرفة رزقنا الله تعالى.

(١) انقطع إليك: أي افرغ قلبه وفؤاده عن أي حب وتعلق بسوى الله، وانقطع إلى الله.

(٢) فتجاوز يا رب عن قبيح جرائمنا وإسائتنا بجميل احسانك وكرمك. فليس لدينا غير الاساءة، ولا نعرف من الله غير الإحسان. فما كان من اساءة فهو منا، وما كان من احسان فهو من الله. يقول تعالى: (ما اصابك من حسنة فمن الله، وما اصابك من سيئة فمن نفسك) النساء–٧٩.

(٣) وأي جهالة لا يسعها جوده تعالى.

والمقصود بالجهل الإساءة الناشئة عن الجهالة والغفلة، فإن الإساءة التي يقدم عليها العبد لا يمكن أن تصدر عن وعي وعقل، وإنما تصدر عن جهالة وغفلة. روى الطبرسي في مجمع البيان ٣: ٢٣ عن الإمام الصادق في تفسير قوله تعالى: (إنما التوبة عَلى الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم) النساء–١٧ انه قال: (كل ذنب عمله العبد، وإن كان عالماً فهو جاهل، حين خاطر بنفسه في معصية ربه. فقد حكى الله تعالى قول يوسف لاخوته: (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ انتم جاهلون)فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله.

(٤) وأي زمان يقضيه الإنسان في معصيتك ومخالفتك أطول من حلمك (أناتك). فمهما قضى الإنسان من عمره في المعصية والإساءة فهو دون حلم الله، وبوسع الإنسان، مع كل ما ارتكب من إساءة ومعصية، أن يأمل في رحمة الله وعفوه، وأن يسرع إلى التوبة عما ارتكبه من إثم، وما اقترفه من موبقة، قبل أن يدركه الموت. فإن الموت إن أدرك الإنسان، ولم يعدل عن المخالفة والمعصية، فليس ينفعه شيء بعد ذلك. يقول تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (النساء: ١٨).

قدر اعمالنا[١] في جنب نعمك؟ وكيف نستكثر أعمالاً نقابلبها كرمك؟ بل كيف يضيق عَلى المذنبين[٢] ما وسعهم من رحمتك؟

يا واسع المغفرة[٣]، يا باسط اليدين بالرحمة، فوعزتك يا سيدي لو نهرتني[٤] ما برحت من بابك[٥] ولا كففت عن تملقك لما انتهى إلي من المعرفة بجودك وكرمك، وأنت الفاعل[٦] لما تشاء تعذب من تشاء بما تشاء كيف تشاء، وترحم

---

(١) ثم كيف نقارن أعمالنا التي بها نرجو النجاة بكرمك؟ فإن ما تفيضه علينا من نعمتك ورحمتك يزيد عَلى حد الوصف، ولا يقاس بما نصنعه من معروف من حين إلى آخر. وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك؟ وما قدر أعمالنا حتى تعادل كرمك وإحسانك؟ وأي عمل صالح لنا يكافئ كرمك ورحمتك إلينا؟

(٢) بل أي ذنب يا إلهي، تتعقبه التوبة تضيق به رحمتك. فمهما بلغت ذنوبنا وسيّئاتنا، فإن رحمتك أوسع منها. أوَ لست أنت وعدتنا برحمتك إن استغفرناك من ذنوبنا وآثامنا.

(٣) يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (النجم:٣٢).

(٤) انتهرتني: أي زجرتني. ما برحت عن بابك: أي لم أذهب عن بابك، ولم أتجاوزها إلى غيرها من الأبواب. ولا كففت عن تملقك: أي لم انقطع عن تملقك، ولم اترك السؤال ببابك إلى غيرها.

والإمام هنا يقسم بعزة الله، التي لا عزة فوقها انه ليس بتارك التملق عَلى باب رحمته تعالى والتضرع والابتهال عند أعتاب كرمه وجوده، حتى لو انتهر عبده وأبعده، وحاشاه أن يبعد عن رحمته عبداً التجأ إلى بابه دون الأبواب. وأي باب يقف عندها الإنسان ويركن إليها غير هذا الباب؟ وأين يجد المضطر نجاة عدا هذا الموقف؟ إلى أين يفر المذنب المضطر إن لم يلتجأ إلى رحمته تعالى؟ يقولعليه السلام: فوعزتك يا سيدي لو انتهرتني، ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملّقك لما انتهى إليّ من المعرفة بجودك وكرمك.

(٥) لأنني لا أعرف باباً آخر يؤويني، ولا أعرف ملاذاً آخر ألوذ به، وأين أعطي وجهي من دون باب رحمة الله الواسعة وعفوه العظيم.

ولا أكف عن تملقك.. ولماذا أكف وأنا واثق بعفوك ورحمتك. والتملق من الإنسان لمثله كذب وذل، وأما بالنسبة إلى الله تعالى فلا يكون إلاّ ثناءً صادقاً ومدحاً دون حقه واستحقاقه تعالى.. والتذلل بين يدي الله بالتملق عز للعبد وكرامة له.

(٦) وإذا اقسم الإمام بعزته تعالى أن لا يبرح بابه، ولن يترك التملق لديه... يقول في حيثية هذا القسم واللجوء والانقطاع إلى الله: فإن عندك السلطان كله، تفعل ما تشاء، وتعذب من تشاء، بما تشاء من

⇐

من تشاء بما تشاء كيف تشاء، لا تُسأل عن فعلك، ولا تنازع في ملكك، ولا تشارك في أمرك، ولا تضاد في حكمك، ولا يعترض عليك أحد في تدبيرك، لك الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

يا رب هذا مقام[1] من لاذ بك واستجار بكرمك وألف إحسانك ونعمك،

⇒

عذاب، وترحم من تشاء بما تشاء من الرحمة، وتعفو عمن تشاء، وتنتقم ممن تشاء. فأين يفرّ العبد، وأي سلطان يلتجئ إليه من دون سلطانك، ولك السلطان والأمر كله. وليس لأحد أن ينازعك في سلطانك، أو يشاركك ملكك، أو يعارضك في تدبيرك، أو يضادك في حكمك، فلك الأمر والخلق والسلطان كله، تباركت وتعاليت.

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّه﴾ (آل عمران:١٥٤)، ويقول تعالى: ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ ويقول تعالى: ﴿بَل لِّلَّه الأَمْرُ جَمِيعاً﴾، ويقول تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف:٥٤)، ويقول تعالى: ﴿يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم:٢٧)، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ (الشورى:١٩)، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران:٤٧)، ﴿يُبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (سبأ: ٣٦)، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢٨٤)، و﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِه﴾ (الشورى: ٨).

فأين يفر العبد من سلطان الله المطلق إن لم تؤويه رحمة الله. وان لم يلتجأ إلى عفوه.فليس له إذن إلاّ أن يقف عَلى باب رحمته تعالى، متضرعاً، خاشعاً، مبتهلاً إليه تعالى، راجياً، آملاً، متملقاً، عسى أن تناله رحمة الله ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللّه قَرِيبٌ منَ الْمُحْسنينَ﴾.

(١) وإذا عرف العَبد واعترف أنَ ليَس لهَ من الله ملجأ إلاّ إليه، وإلاّ أن يلوذ به ويستجير به يقول: يا رب هذا مقام من لاذ واستجار بكرمك. ثم يعود فيقول: وليس هذا أول عهدي بإحسانك وجودك، فقد الفت إحسانك وجودك من قبل، ومع ذلك فلم أحسن شكرك عَلى نعمك وكرمك، فهلا أسبغت عليَّ ما ألفته من جودك وإحسانك، من قبل، وليس يخفى عَلى القارئ ما في هذه الجملة (يا رب هذا مقام من لاذ بك واستجار بكرمك) من معاني رقيقة. فهي تجسيد لمقام الانقطاع والاضطرار إلى الله، حيث لا يجد العبد ملجأً يلوذ به لينقذه إلاّ الله، وقد سبق أن عصاه وخالفه وتمرّد عَلى امره ونهيه، وتجسيد لمقام الالفة والأنس والمحبة، فهو يعود إلى مقام كان قد ألف جوده وكرمه من قبل كثيراً، ومقام الندم أيضاً إذ يشعر انه أساء إلى ولي هذه النعم التي طالما أسبغها عليه مولاه ... وها هو قد تفرغ لربه بالدعاء في هدأة الليل وفي الثلث الاخير منه، حيث يتوقف الناس عن الحركة والضجيج، وتهدأ الأصوات، فيرفع إلى الله ندمه، وتوبته، واعتذاره. وورد قريباً من هذا المضمون في دعاء السحر.

⇐

وأنت الجواد الذي لا يضيق عفوك[١]، ولا ينقص فضلك، ولا تقل رحمتك، وقد توثقنا[٢] منك بالصفح القديم، والفضل العظيم والرحمة الواسعة.

⇐

«يا رب هذا مقام العائذ بك من النار، هذا مقام المستجير بك من النار، هذا مقام المستغيث بك من النار، هذا مقام الهارب إليك من النار، هذا مقام من يبوء لك بخطيئته، ويعترف بذنبه، ويتوب إلى ربه، هذا مقام البائس الفقير، هذا مقام الخائف المستجير، هذا مقام المحزون المكروب، هذا مقام المغموم المهموم، هذا مقام الغريب الغريق، هذا مقام المستوحش الفَرِق، هذا مقام من لا يجد لذنبه غافراً غيرك، ولا لضعفه مقوياً إلاّ أنت، ولا لهمه مفرجاً سواك».

هذه لوحة رائعة لرسم مقام العبد بين يدي الله في الأسحار.

والعناصر المشتركة في رسم هذه اللوحة الاستجارة واللواذ (معنى الاستجارة) + الاضطرار (كل لواذ يصدر عن الاضطرار لا محالة + والانس والالفة (وألف احسانك) + الثقة برحمة الله وفضل الله (وأنت الجواد الذي لا يضيق عفوك ولا ينقص فضلك وقد توثقنا منك بالصفح القديم) هذه الثقة والإلفة لها تاريخ قديم و(بالصفح القديم).

ثم تأتي اللوحة لرسم المقام الثاني.

مقام الله من عبده: **«أفتراك يا رب تخلف ظنوننا أو تخيب آمالنا»**.

هذه اللوحة ترسم على منهج بياني استنكار ونفي.

ثم عودة إلى اللوحة الأولى: الرجاء والأمل (إن لنا فيك أملاً) + الستر في المعصية + والعفو بعد المعصية + ورجاء الاستحالة.

(١) لا يضيق عفوك عن ذنب اقترفناه، ولا ينقص فضلك بإحسان تحسنه، ورحمة تسبغها، ولا تقل رحمتك إذا انعمت إلى المسيئين من عبادك، وكيف ينقص فضله تعالى، أو تقل رحمته، أو يضيق عفوه، وخزائن رحمته وفضله غير متناهية. وقد ورد في دعاء اليماني المروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«اللّهم صل عَلى مُحمّد وآل مُحمّد، ولا تحرمني رفدك، وفضلك، وجمالك، وجلالك، وفرائد كراماتك، وموائد عطياتك، وعوائد افاضاتك، ومواهب فيوضاتك، فإنه لا يعتريك لكثرة ما قد نشرت به من العطايا عوائق البخل، ولا ينقص جودك التقصير في شكرك نعمك، ولا تنفذ خزائنك مواهبك المتسعة، ولا تؤثر في جودك العظيم منحك الفائقة الجميلة، ولا يلحقك خوف عدم فينقص من جودك فيض فضلك»**.

(٢) توثقنا أي تثبتنا وتيقنّا. والصفح: الاعراض عن الذنب والعفو. والمعنى: اننا وثقنا بك، وبقديم عفوك وصفحك، وعظيم فضلك، وواسع رحمتك، وعلمنا انك كما تقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ

⇐

أفتراك يا ربي تخلف ظنوننا[١] أو تخيب امالنا؟ كلا يا كريم فليس هذا ظننا بك ولا هذا فيك طمعنا، يا رَبّ إنّ لنا فيك أملاً طويلاً كثيراً، إن لنا فيك رجاءً عظيماً، عصيناك[٢] ..

ونحن نرجو أن تستر علينا[٣]، ودعوناك ونحن نرجو ان تستجيب لنا، فحقق لنا

⇐

شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:١٥٦)، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ (المؤمن:٧)، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، فليس تضيق رحمتك بذنوبنا، ولا يقلّ فضلك بالإحسان إلينا.

(١) والظن بمعنى الوثوق والرجاء. والمعنى افتراك سيدي بعد أن وثقنا بك وبكرمك وفضلك العظيم، والتجأنا إليك وحدك... تخلف رجائنا وثقتنا بك، ولا تشملنا برحمتك، ولا تسبغ علينا عفوك وفضلك... كلاّ وكلاّ، وحاشا بكرمك أن يضيق بمثلي ومثل ذنوبي وسيئاتي وان تخلف ظنوننا.

وقد جاء في الأحاديث الشريفة الأمر بحسن الظن بالله، وإن الله تعالى عند حسن ظن عبده به. عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**وجدنا في كتاب علي عليه السلام ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال وهو على منبره: والذي لا اله إلاّ هو، ما أُعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلاّ بحسن الظن بالله تعالى ورجائه له، وحسن خلقه، والكف عن اغتياب المؤمنين، والذي لا اله إلاّ هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار، إلاّ بسوء ظنّه، والتقصير في رجائه، وسوء خلقه، واغتيابه للمؤمنين، والذي لا اله إلاّ هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلاّ كان الله عند ظن عبده المؤمن، لأن الله كريم بيده الخيرات، ويستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن، ثم يُخْلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه**». وعن الإمام الرضا عليه السلام: «**أحسن الظن بالله، فإن الله عز وجل يقول: أنا عند حسن ظن عبدي المؤمن بي**».

(٢) ليس المقصود من العصيان هنا معناه المعروف. فالإمام السجاد من بيت أذهب الله عنهم الرجس أهل البيت وطهّرهم تطهيراً، وإنما المقصود بالعصيان ترك ما كان إلى به أن يصنعه في مقام العبودية لله تعالى، فإن ترك امتثال الأولى في مقام العبودية لله معصية ومخالفة توجب الندم والاستغفار بالنسبة إليه عليه السلام، وان كان ذلك بالنسبة إلى الآخرين الذين لم يبلغوا هذا المبلغ من الانقطاع لله والخلوص من بعض مراتب الطاعة. ولذلك فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «**حسنات الأبرار سيئات المقربين**» فربّ حسنة يتقرّب بها الإنسان إلى الله تنقلب إلى سيئة بالنسبة إليه، إذا ما ارتفع إلى مرتبة المقربين. فإن مراتب الامتثال والطاعة والتقوى تختلف بالنسبة إلى مواضع الناس من رضوان الله تعالى.

(٣) فلم نقطع الأمل والرجاء عنك حتى في حالة المعصية. فقد كنا نعصيك ونحن نرجوا أن تستر علينا عيوبنا وجرائمنا. فكيف لا يرجوك عبدك، وقد جاءك تائباً إليك وتوجّه إليك بأسمائك الحسنى.

رجائنا مولانا.

فقد علمنا ما نستوجب بأعمالنا[١]، ولكن علمك فينا[٢]، وعلمنا بأنك لا تصرفنا[٣] عنك حثنا عَلى الرغبة إليك، وإن كنّا غير مستوجبين[٤] لرحمتك. فأنت أهل ان تجود علينا[٥] وعلى المذنبين بفضل سعتك، فأمنن علينا[٦] بما انت أهله، وجُدْ علينا[٧] فإنا محتاجون إلى نيلك[٨].

يا غفار بنورك[٩] اهتدينا، وبفضلك استغنينا، وبنعمتك أصبحنا وأمسينا[١٠]،

---

(١) فقد علمنا نحن ما نستوجبه بأعمالنا. وعلمنا إن أعمالنا التي ارتكبناها جهلاً وغفلةً، تجرنا إلى الهلاك، فليس يخفى علينا، ربنا ما نستحقه بأعمالنا ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾... ولكن علمك فينا، ومعرفتك بعجزنا وضعفنا، وعلمنا بأنك كريم لا تصرفُ السائلين عن بَابَك، ولا تقنط الراجين من فضلك دفعنا إلى التوقف ببابك، إلى تملقك وسؤالك والرغبة إليك.

(٢) علمان متقابلان:

علمك بضعفنا وعجزنا وعلمنا بكرمك ورحمتك جعلنا نلوذ رغم العصيان.

(٣) أنا لدي علمان علم بأعمالي واستحقاقات هذه الأعمال وعلم بأنك لا تصرفنا عنك.

العلم الأول ينتج اليأس والعلم الثاني ينتج الأمل.. ولكن العلم الثاني أقوى بكثير من العلم الأول.

(٤) وإذا لم نكن نحن أهلاً لاستجابة رحمتك وعفوك وجودك، فأنت يا ربُ، أهل لأن تجود عَلى المسيئين والمذنبين بفضلك. فأمنن علينا بما أنت أهله من واسع الرحمة، وعظيم العفو وكريم الصفح.

(٥) فإنك أنت أهل الجود والمغفرة.

(٦) ها هنا العلم برحمته ورجاء الرحمة ينقلب إلى الدعاء (فامنن علينا).

علمك بضعفنا وعجزنا وعلمنا بكرمك ورحمتك جعلنا نلوذ رغم العصيان.

(٧) جُدْ: أمر من جاد يجود، بمعنى الطلب والالتماس، فإنهما من معاني صيغة (إفعل)... والمعنى: تكرّم علينا، وأبدل من رحمتك وفضلك ونيلك.

(٨) النيل: السحاب والعطاء، وهو هنا كناية عن واسع رحمة الله.

هذا مدخل آخر إلى الرحمة وهو الحاجة ومثل ذلك مدخل آخر وهو الرجاء.

يقولعليه السلام: (فحقق رجاءنا مولانا). والإمام يعلمنا هنا مداخل رحمة الله.

(٩) النور كناية عن الهداية، أي اهتدينا بهديك. قال الله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، فإننا قد اهتدينا بهدى الله، ولولا ان الله تعالى ألهمنا الإيمان به لم يتوفق احدَ للأيمانَ. وقد ورد في نصوص الزيارات: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا﴾.

(١٠) هدايتنا منك، وَغنانا منك، ونصبح ونمسي برحمتك.

ذنوبنا بين يديك[١]، نستغفرك اللّهم منها، ونتوب إليك.

تتحبب إلينا بالنعم[٢] ونعارضك بالذنوب، خيرك إلينا نازل، وشرّنا إليك صاعد، ولم يزل ولا يزال ملك كريم يأتيك عنا بعمل قبيح، فلا يمنعك ذلك من أن تحوطنا[٣] بنعمك، وتتفضل علينا بآلائك،..

---

(١) ذنوبنا بين يديك: أي مكشوفة معروفة عندك لا يخفى عليك شيء منها. ولا ينفعنا إخفاؤها عنك، فإنك أنت عالم السر والخفايا... نتوب إليك منها، ونسألك أن تغفرها لنا. وقد أنبانا الله تعالى انه الغفور الرحيم قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ووعدنا أن لو ذكرنا الله واستغفرناه لذنوبنا غفر لنا خطيئاتنا. قال تعالى: لـ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (آل عمران:١٣٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾) وقال تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأحقاف:٣١)، إلاّ أن الاستغفار وحده لا يكفي، ما لم يتب العبد إلى الله. يقول تعالى فيما حكى من قول هود عليه السلام لقومه: ﴿وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ولذلك فإن الإمام زين العابدين عليه السلام يقول: «**نستغفرك اللّهم ونتوب إليك**» فيشفع الاستغفار بالتوبة.

لا نستطيع أن ننفيها وننكرها ولا نستطيع أن نتخلص منها ونهرب منها، وهي مكشوفة لك وليس لنا إلاّ أن نستغفرك منها ونتوب إليك.

الخيار الوحيد الذي نجده أمامنا هو الاستغفار والتوبة، وليس أمامنا خيار آخر، لا نتهرب منها ولا ننكرها وننفيها.

(٢) تتودّد إلينا، بما تنعم علينا من النعم الكثيرة، ثم نعارض نعمك نحن بالذنوب، ونردّ جميل صنعك بنا بقبيح أعمالنا وأفعالنا. وأي قبيح أقبح من أن يرد العبد جميل ما يسبغه عليه الله سبحانه من النعم الجليلة الجميلة بالعمل القبيح، والإثم والذنب.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ (الإسراء:٨٣). ينزل إلينا خيرك ونعمتك من علياء رحمتك، ويصعد إليك ذنوبنا وآثامنا من حضيض شقائنا وبؤسنا، ولم يزل ولا يزال يأتيك عنا كل يوم ملك كريم، وكّلته علينا، ليحصي علينا أعمالنا، بعمل قبيح نرتكبه، أو موبقة نقترفها.

(٣) تحوطنا: من التحويط والاحاطة، وهو كناية عن إسباغ النعمة على العبد من كل صوب.

والمعنى: إن استمرار العبد في المعصية، وإصراره عَلى المخالفة لا يمنع المولى سبحانه وتعالى من أن يسبغ نعمه وآلاءه عَلى عباده، ويحوطهم برحمته، ويرد قبيح ما عندهم بجميل ما عنده، عسى أن يستحيي العبد من قبيح ما يصنع، فيتوب إلى الله ويستغفره، وعسى أن تخجله هذه النعم المتوالية عن

⇐

فسبحانك[١] ما أحلمك وأعظمك وأكرمك، مبدئاً ومعيداً. تقدست أسمائك، وجلّ ثناؤك، وكرم صنائعك[٢] وفعالك.

وأنت إلهي أوسع فضلاً، وأعظم حلماً من أن تقايسني بفعلي وخطيئتي[٣]، فالعفو، العفو، العفو[٤]، سيدي سيدي سيدي.

⇒

الاستمرار في المعصية، والمخالفة. وعجيب أمر هذا الإنسان، يعصي أمر ربه، ويتمرّد على سلطانه، وهو يعيش في ملكه، ويتزود بنعمه، ولو شاء الله أن تبتلعه الأرض، أو تنخسف عليه السماء، أو يقف قلبه عن الحركة، أو تنقطع أنفاسه، لم يكن لأحد أن يحول بينه وبين ما يريد.

(١) فسبحان الله وتعالى اسمه وشانه، ما أكرمه من مولى، يعفو ويصفح عن ذنوب عباده، وما أحلمه عمّا يصنع عباده من سوء، فلا يأخذهم بذنوبهم، ولا يعجّل عليهم بالعقوبة، وما أعظمه من رب، يرد عَلى قبيح أعمال عباده بجميل صنعه ونعمه. تبدأ عبادك بالنعمة، ثم تعيدها عليهم، وتفتح عليهم أبواب رحمتك مرة بعد أخرى.

والتسبيح تقديس لله تعالى وتنزيه له جل شأنه، وذكر لله بالتنزيه والتقديس، وقد أمر به تعالى في قوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

(٢) كرم صنائعك وفعالك، أي عزّ وعَظم وحَسُن.

(٣) بعد أن استعرض الإمام عليه السلام جميل صنع الله تعالى بعبده، وقبيح ما يَرُدّ العبد عَلى مولاه... يعود فيسال الله تعالى أن لا يكافئ العبد بما يصنع من سوء أدبه وفعله، ولا يَرُدّ عليه ذنبه بالعقوبة، فإنك أنت اللّهم أوسع فضلاً وأعظم حلماً من أن تقايسني، وتقيس ما تهبني من رحمتك بما أعمل من سوء، وما ارتكب من ذنب.

وطرفا القياس هنا درجة العبد عند ربه وذنوبه وخطاياه، وقياس درجته وموقعه عند ربه بذنوبه وخطاياه، وهو حق وعدل، ولكننا نطلب من الله تعالى ان يتعامل معنا بفضله ورحمته، وليس بعدله، فلا يقيسنا بأعمالنا وسيئاتنا.

(٤) وهنا بعد أن مهّد الإمام عليه السلام للدعاء بهذا اللون من التذلل، والابتهال، والخشوع، والخضوع، والاعتذار... يتضرع إلى الله في حاجاته بالدعاء مباشرة.

ولابد في الدعاء وفي مناجاة الله تعالى من أن يُعدّ الإنسان نفسه اعداداً كاملاً لمناجاته تعالى، ويتبرّأ عن تقصيراته وذنوبه، ليعفو عنه الله، وليكون اهلاً لمناجاته ودعائه تعالى.

وقد مهّد الإمام عليه السلام طويلاً للسؤال والدعاء والرغبة إلى الله، بالتذلّل، والخشوع، والخضوع، ثم اعقب

⇐

اللّهم اشغلنا بذكرك[١]، وأعذنا من سخطك، وأجرنا من عذابك[١]، وارزقنا

⇒

ذلك بطلب العفو (العفو. العفو. العفو. سيدي. سيدي. سيدي)، في إصرار وتكرار.

وليس من شك ان الله تعالى لا يردّ طلب عبده بالعفو، فهو تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾. وكيف يصف الله تعالى نفسه بالعفو الغفور، ثم يَردّ دعاء عبده بالعفو والمغفرة.

(١) هذا هو أول الدعاء، وهو من أهم ما يدعو الإنسان به ربّه أيضاً، فليس هناك من مطلب أهم من أن يشغل الله الإنسان بذكره تعالى، ويصرفه عمّا لا يهمّه، ولا ينفعه، من اهتمامات صغيرة وضيعة إلى الاهتمامات العالية في دنياه وآخرته، إلى ذكره الذي هو أساس كل الاهتمامات العالية في حياة الإنسان. وذكر الله تعالى هو انشغال القلب في جميع الأحوال به تعالى، وأن تتوجّه اهتمامات الإنسان إلى كسب رضاه سبحانه وتعالى، حتى تكون حياته كلّها لله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا هو معنى الانصراف إلى ذكر الله تعالى.

فليس ينبغي أن ينسى الإنسان ربّه في حال ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (النور:٣٧)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (المنافقون:٩). وليس الولد والمال مرغوباً عنهما في دين الله، ولا ينهى الله أن ينشغل الإنسان بتجارة أو بيع، وإنما الذي ينهى عنه الله هو أن يلتهي الإنسان بهذا أو بذاك عن ذكره، وينصرف عن ذكر الله تعالى بهذه أو بغيرها من شؤون الحياة واهتماماتها، فإذا كان كذلك وأعرض عن ذكره قدّر الله تعالى له معيشة ضنكا، وقيّض له شيطاناً قريناً ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف:٣٦)، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:١٢٤)، ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾. وبعكس ذلك الاستمرار في ذكر الله، والمداومة عليه يبعث في نفس الإنسان اطمئناناً واستقراراً وركوناً إلى الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨).

وقد ورد هذا المضمون في كثير من جمل الدعاء المأثورة عن أهل البيتعليهم السلام. ففي الدعاء الذي رواه كميل بن زيادرحمه الله عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام: «**وأسألك بجودك أن تدنيني من قربك، وأن توزعني شكرك، وأن تلهمني ذكرك**»، (**وأسألك بحقّك، وقدسك، وأعظم صفاك وأسمائك أن تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة، وبخدمتك موصولة، وأعمالي عندك مقبولة، حتى تكون أعمالي وأورادي كلّها ورداً واحداً، وحالي في خدمتك سرمداً**»، «**وقوّ عَلى خدمتك جوارحي، واشدد عَلى العزيمة جوانحي، وهب لي الجدّ في خشيتك، والدوام في**

⇐

من مواهبك، وأنعم علينا من فضلك، وارزقنا حج بيتك، وزيارة قبر نبيك، صلواتك، ورحمتك، ومغفرتك، ورضوانك عليه، وعلى أهل بيته إنك قريب مجيب، وارزقنا عملاً بطاعتك[٢]، وتوفّنا عَلى ملّتك[٣] وسنة نبيك.

اللّهم اغفر لي، وَلوالديّ، وارْحَمهما، كَما رَبّياني صَغيراً، إجزهما[٤] بالإحْسان إحساناً، وَبالسّيئات غُفراناً. اللّهم اغْفرْ للمُؤمنينَ وَالمؤمنات، الأحياء مِنْهم وَالأموات، وَتابعِ[٥] بَيننا وَبَينهُمْ بالخيرات. اللّهم اغْفرْ لحيّنا، وَمَيّتنا[٦]، وَشاهدنا،

⇐

الاتصال بخدمتك». وقد أمرنا الله تعالى بذكره كثيراً، وفي كلّ وقت **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً*وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾**(الأحزاب:٤٢)، **﴿وَاذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾** (الأعراف:٢٠٥).

(١) أي احمنا واحفظنا وانقذنا من عذابك.

(٢) أي: وفّقناأن نعمل بطاعتك. وهو رزق جميل وعظيم من عند الله.

(٣) وأمتنا عَلى ملّتك ودينك، وسنّة نبيّكصلى الله عليه وآله.

(٤) واجزهما بالإحسان إحساناً، أي هبهما إلهي جزاء إحسانهما إحساناً من لدنك، وهبهما بإزاء إسائتهما غفراناً من لدنك. ومن خير ما يدعو الإنسان ربّه الدعاء للوالدين. وقد أمر الله تعالى به حيث يقول تعالى: **﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾**.

ومن دعاء نوحعليه السلام، كما يحكيه القرآن: **﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾** (نوح:٢٨).

(٥) أي اتبعنا بخيراتهم وبرّهم، وأتبعهم بخيرنا وبرّنا، وألحقنا بخيرهم وبرّهم، وألحقهم بخيرنا وبرّنا، واجعل علاقة ما بيننا وبينهم خيراً وبراً. واجعل الدعاء وطلب الخير والمغفرة هو العلاقة ما بيننا وبينهم.

(٦) من جميل أدب الدعاء في الإسلام أن لا ينسى الإنسان الآخرين إذا رفع يديه إلى الله تضرعاً ودعاءً من سؤال الخير، بل يقدّمهم عَلى نفسه في الدعاء والمسألة، حتى تكون مطالبهم ومسائلهم مقدّمة عَلى مطالبه ومسائله، فهو نحو من الشعور بالعطف والإحساس بالإيثار نحو الآخرين.

عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام، قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: **«ما من مؤمن دعا للمؤمنين والمؤمنات إلاّ رد الله عليه مثل الذي دعا لهم به من كل مؤمن ومؤمنة مضى من أول الدهر أو هو آت إلى يوم القيامة. وأن العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيامة فيسحب، فيقول المؤمنون والمؤمنات: يا رب، هذا الذي كان**

⇐

وَغائبنا. ذُكرنا، وَانثانا، صَغيرنا، وَكبيرنا، حُرّنا، وَمملوكنا.

كَذَبَ العادلون[(١)] بالله، وَضَلّوا ضَلالاً بَعيداً، وَخسروا خُسراناً مُبيناً.

اللّهم صلِّ عَلى مُحمّد وَآل مُحمّد[(٢)] واخْتمْ لي بخيرْ[(٣)]، وَاكْفني ما أهمّني مِنْ أمر دنياي وَآخرتي، وَلا تسلّطْ عليّ مَنْ لا يَرْحَمُني، وَاجْعَل عَليّ منكَ واقيةً باقيةً[(٤)]، وَلا تَسلبني[(٥)] صالحِ ما أنعمْتَ به عَليّ، وَارْزُقني مِنْ فَضلك رِزْقاً، واسعاً، حَلالاً، طَيباً.

⇐

يدعو لنا، فشفّعنا فيه، فيشفّعهم الله عز وجل فينجو» (أصول الكافي / ٥٣٥، أمالي الطوسي ٢/ ٩٥، وسائل الشيعة ٤/ ١١٥١).

وهذا هو التعميم في الدعاء.

(١) كذب الذين يعدلون عن الله المنحرفون عنه، الذين يعدلون في مسائلهم وحاجاتهم إلى غير الله، فإنّ الله وحده هو الذي يستجيب دعاء المضطرّين، المتضرّعين إليه، وله الأمر والسلطان، وليس لغيره شيء من الأمر.

(٢) الصلاة عَلى مُحمّد وآل مُحمّد صلى الله عليه وآله، والدعاء لهم إلى الله بالرحمة من أفضل الدعاء ومن خيره. ولا يردّ الله تعالى عبداً يسأل الرحمة لنبيّه وحبيبه. كيف وقد أمر عباده أن يضمّوا صلواتهم على رسول الله صلى الله عليه وآله إلى صلواته وصلوات ملائكته على رسوله صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب:٥٦).

ويستحب تقديم الصلاة عَلى النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عَلى دعاء المرء لنفسه، عسى أن يستجيب الله تعالى لدعائه ببركة الصلاة والدعاء له صلى الله عليه وآله.

(٣) اللّهم ارزقني حسن العاقبة (اختم لي بخير)، واختم حياتي بما ترضى به عنه.

(٤) واجعل لي من لدنك ستراً يحميني ويقيني شرّ الدنيا والآخرة، ويبقى معي، ولا يفارقني في حال (واقية باقية). والجُنّة - بالضم - الستر والوقاية.

(٥) ولا تسلبني ما وهبتني من نعمة صالحة، وصحّة، وعافية، وموهبة، وسلامة في أعضائي وجوارحي، وسمعة طيبة، وذكر حسن بين الناس، وقلب قد شغفه حبّك، وفطرة ألهمتني ذكرك والإيمان بك.

اللّهم احرُسني بِحراسَتِكَ، وَاحْفَظني بِحفظك، وَاكلأني[١] بكلاءتكَ، وَارزقني حَجّ بَيتكَ الحرامِ في عامنا هَذا وَفي كلّ عام، وَزيارة قَبر نَبيّك[٢] وَالأئمّة عَليهم السّلام، وَلا تُخلني[٣] يَا رَبّ مِنْ تلكَ المشاهِد الشّريفة وَالمواقِف الكَريمة.

اللّهم تُبْ عَليّ حَتّى لا أعْصيك[٤]، وَألهمْني الخيرَ[٥] وَالعَملَ بِه وَخَشيتكَ[٦]

---

(١) واكلأني: أي احفظني.
والمعنى اللّهم إحفظني بحفظك وحراستك وعنايتك ورعايتك، فلا يمسني سوء أو شرّ، ولا أنزلق إلى هلاكة وضلالة. يقول تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

(٢) من نافلة القول الحديث عن استحباب زيارة مرقد النبيصلى الله عليه وآله فقد ثبت عن النبي أنّه قال: «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**» وقد فصّل القول في طرقه الشيخ الأميني في (الغدير ٥: ٩٣ – ٩٦)، والسبكي الشافعي في (شفاء السقام : ٣– ١١).
كما ورد عنهصلى الله عليه وآله: «**من جاءني زائراً، لا تحمله إلاّ زيارتي كان حقاً عليّ أن أكون شفيعاً له**» ذكره السبكي في شفاء السقام (٣/ ١٦) والأميني في الغدير ٥: ٩٧ – ٩٨ عن طرق كثيرة وورد أيضاً عنهصلى الله عليه وآله: «**من حجّ فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي**». أورده جمع من الحفاظ والمحدّثين كالبيهقي في السنن ٥: ٢٤٦ والسبكي في شفاء السقام ١٦ – ٢١ والسمهودي في وفاء الوفاء ٢: ١٣٧. وقد أورد طرقه بصورة مشروحة العلاّمة الأميني في الغدير ٥: ٩٨ – ١٠٠ وغير ذلك من الأحاديث التي نقلها أئمة الحديث والرواية وكبار الحفّاظ والعلماء، وقد ذكر الشيخ الأميني في الجزء الخامس من الغدير طرفاً من هذه الروايات وطرقها.

(٣) ولا تخلني: أي لا تجعل مكاني خالياً في تلك المشاهد الشريفة.

(٤) أي هبني اللّهم توفيقاً لتوبة حقيقية كاملة حتى لا أعصيك بعدها، ولا أعدل عنها.
وقد ورد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ (التحريم:٨)، إنّ التوبة الحقيقية هي التي لا يعدل الإنسان عنها إلى الذنب أبداً بعد أن أقلع عنها، وبعد أن غلبه الندم عَلى ما صدر عنه.

(٥) الخير هو الإيمان وفضائل الأخلاق والتقوى. والنية الصالحة، والعمل به هو العمل بمقتضى ذلك.

(٦) أي وألهمني خشيتك دائماً، وفي كلّ وقت، ما أبقيتني عَلى وجه الأرض، حتى لا أجرأ عَلى معصيتك وتجاوز حدودك. والخشية هذه من خصائص العلماء العارفين بالله سبحانه وتعالى، الذين لا يفترون عن ذلك، ولا تفارقهم خشية الله، والذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا

⇐

بالليل وَالنّهار مَا أَبقَيتني يَا رَبّ العَالمين.

اللّهم(١) إنّي كَلمّا قُلتَ قَد تَهيّأتَ...

⇒

﴿يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

(١) من المسائل المهمّة في حياة الانسان (التوفيق).. وهو أمر غير السعي والطلب، وإن كان يتوقف كثيراً على السعي والطلب، إلاّ أنه أمر آخر قد يجده صاحب السعي والطلب، وقد لا يجده رغم كثرة السعي والطلب منه.

وهذه المسألة من رقائق التوحيد، لا يعرفها إلاّ الموحدون. فليست أسباب النجاح كلها بيد الانسان، فقد جعل الله تعالى (السعي) و(الحركة) و(الطلب) بيد الانسان، واختص بـ (التوفيق). وليس كل من يسعى ويتحرك ويطلب يحقق الغاية التي يطلبها. وما اكثر الناس الذين يبالغون في السعي والحركة، فلا يحققون مايريدون.

وهذا هو الذي يذكره القرآن عن العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

ووقوع التوفيق بين النفي والاستثناء في كلام شعيب عليه السلام هو دليل انحصار التوفيق بيد الله، وأن الله تعالى اختص هو عز شأنه بالتوفيق.. وأما السعي والطلب فقد جعله الله تعالى بيد عباده، يأخذون منها على قدر ما يرزقهم الله تعالى.

إذن لتحقيق الغايات التي يسعى اليها الانسان في حياته لابد من أمرين، أحدهما السعي والطلب، وقد جعله الله تعالى بيد عباده، والآخر التوفيق، قد اختص الله تعالى به، يهب من يشاء من عباده ما يشاء منه، وهو بيد الله تعالى محضاً.. والتوفيق من أبواب التوحيد، يعرف الانسان به يد الله تعالى في حياته.

فقد يسعى الإنسان إلى زوجة صالحة ويطلبها سعياً حثيثاً ثم لا يجدها، ومهما طرق باباً انغلقت دونه.

وقد يبحث الإنسان عن شريك صالح لتجارته في السوق أو موظف صالح يأتمنهما في عمله وتجارته، فلا يجدهما، رغم كثرة السعي والطلب.

وقد يسعى إلى طبيب يعرف مرضه ويعالجه فلا يتوفق له، وقد يبحث عن سكن له ولعائلته بالمواصفات التي يريدها فلا يجده رغم كثرة السعي والحركة والسؤال.

إذن السعي والطلب وإن كانا على درجة عالية من الأهمية في تحقيق ما يطلبه الإنسان من نجاح في حياته، ولكنهما ليسا كل شيء، وهناك شطر آخر من أسباب النجاح أمره بيد الله تعالى محضاً، وليس بيد الإنسان، وإلى ذلك يشير رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يروى عنه: «**إن لم ييسره الله لا يتيسر**».

وهذا باب من أبواب التوحيد فتحه الله على عباده، قد أتاح الله تعالى هذا الباب من أبواب المعرفة

⇐

⇐

والتوحيد لكل عباده المؤمن منهم والكافر.

وبعكس ذلك قد يقدم الإنسان على مشروع أو عمل فيجد أسباب ذلك كله أمامه واحداً بعد الآخر. قد يقبل على الزواج فيلتقي في مسعاه الأول بالفتاة الصالحة التي يطلبها، وقد يفكر في شريك صالح لعمله فيجده أمامه في المراحل الأولى من سعيه، وكأنه كان معه على ميعاد. وقد يبحث عن سكن صالح فيجده أمامه من دون مشقة ولا عناء.. وهذا هو التوفيق.

وهناك توفيق يطلبك كما تطلب التوفيق، فقد يخرج الشاب من بيته، وهو لم يفكر في الزواج، فيقترح عليه أحد الزواج من فتاة مؤمنة صالحة، فَتُحْدث في نفسه رغبة في الزواج فيقدم على الزواج منها. وقد يخرج من بيته، وهو لم يفكر في شراكة في التجارة فيقترح عليه أحد الشراكة، فيعتذر بأنه لا يملك رأس المال الكافي للشراكة، فيقول له أنه لا يطلب منه غير العمل والنزاهة والأمانة.. وقد يتصل به أحد فيعرض عليه سكناً للبيع في مكان مناسب وبسعر مناسب فيعتذر بأنه لا يملك المال الكافي للشراء، فيقول أن صاحب الدار يقسّط الثمن عليه، وهذا هو التوفيق الذي يطلبك.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اطلبوا التوفيق من الله فإن موسى عليه السلام خرج يطلب لأهله قبساً من النار فرجع بالنبوة**»(مضمون الرواية).

وهناك (سوء التوفيق) وهو أن يطلب الانسان الحرام ويسعى إليه، فيجد أسبابه ماثلة أمامه من غير جهد ولا مشقة، كما لو كان معها على ميعاد.

وفي مقابل ذلك (حسن التوفيق) للعبادة والعمل الصالح، فقد يساكن الطالب فترة الدراسة طالباً صالحاً يقوم لصلاة الليل، إذا مضى شطر من الليل، فيتعلم منه صلاة الليل ويلتزمها. وقد يبحث عن شريك فيرزقه الله شريكاً صالحاً ينفق من أمواله على الفقراء، فيتعلم منه الإنفاق، وقد يطلب لنفسه سكناً فيرزقه الله سكناً بجنب الجامع فيلتزم حضور الصلاة جماعة في أول وقتها.. وهكذا.

وقد يسلبه الله التوفيق ـ بسبب سيئاته وذنوبه ـ فيقوم لصلاة الليل فيغلبه النعاس ويريد أن يصوم فيمنعه المرض.

ولكل ذلك أسباب وعلل، فلا يحدث شيء للإنسان في أعماله ونيّاته إلاّ بسبب. والعلاقة بين عمل الإنسان و(التوفيق) و(سوء التوفيق) و(سلب التوفيق) كالعلاقة بين الظواهر المادية في الكون.. وكما نجد في العلاقات المادية بين الأشياء المادية تأثيراً سببياً بين الظواهر المادية، كذلك العلاقة بين عمل الإنسان صالحاً كان أو فاسداً وبين ظاهرة التوفيق، إيجاباً وسلباً، وحسناً وسوءً.

وليس معنى هذا الكلام إننا تراجعنا عن المبدأ الذي سبق أن شرحناه، وهو أنّ الله تعالى أولى الإنسان السعي والطلب، واختص تعالى لنفسه بعامل التوفيق.. فإن هذا المبدأ لا ينافي القول بأن مفاتيح (التوفيق) و(سوء التوفيق) و(حسن التوفيق) و(سلب التوفيق) و(رزق التوفيق) بيد الإنسان بالذات، كما

⇐

⇒

أن النصر من عند الله البتة، ولكن مفاتحه بيد الإنسان، وهو قوله تعالى: (إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم).

ومن المهم أن نتعرّف نحن أسباب التوفيق، وسوء التوفيق، وحسن التوفيق، وسلب التوفيق، ورزق التوفيق، لنتجنّب حالة سلب التوفيق وحالة سوء التوفيق، ونكتسب حالة التوفيق وحسن التوفيق.

وقد روي أن شخصاً شكى إلى أمير المؤمنينعليه السلام أنه لا يتوفق لصلاة الليل، فقال لهعليه السلام: «**إن سيئاتك منعتك صلاة الليل**».

وفي هذه الفقرة من الدعاء نقرأ شكوى العبد إلى الله من سوء التوفيق: (ما لي كلما قلت قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي، عرضت لي بلية أزالت قدمي، وحالت بيني وبين خدمتك سيدي).

(والمشتكى إليه) في هذه الشكوى هو الله تعالى والشاكي هو الإنسان، والله تعالى يسمع شكوى عبده، وينصفه ويزيل عنه الحيف والظلم إذا كان صادقاً في شكواه.. ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾.

أجل، إن الله سميع بصير يسمع الشكوى ويستجيب لها، ويرفع أسباب الشكوى، إذا كان العبد صادقاً في شكواه.

ولكن من هو الذي نشكو منه إلى الله.. وهذا هو الركن الثالث للشكوى، إنه النفس الأمارة بالسوء بين جنبيه، وهي مصدر كل مصائبنا. وقد روي في أدعية الإمام زين العابدينعليه السلام شكوى إلى الله في ذلك «**أشكو إليك نفساً بالسوء أمّارة**».

وهو أعظم شكوى الإنسان.. فقد يشكو الإنسان إلى الله إنساناً مثله، وقد يشكو الشيطان الذي يغدر به ويمكر به، ولكن كل هذه الشكاوى دون الشكوى إلى الله من (النفس الأمّارة بالسوء).

وفي هذه الفقرات من الدعاء نشكو إلى الله الحالة التي يستحق فيها الإنسان أن يسلب الله عنه التوفيق.. تأمّلوا:

«**اللهم أني كلما قلت قد تهيّأت وتعبّأت وقمت للصلاة بين يديك، وناجيتك، ألقيت عليّ نعاساً، إذا أنا صليت، وسلبتني مناجاتك إذا أنا ناجيت**».

ثم نجد في الدعاء إشارة سريعة إلى أسباب سلب التوفيق وسوء التوفيق في حياة الانسان.. يذكرها زين العابدينعليه السلام ليعلمنا إياها ويعرفنا عليها:

«**لعلك رأيتني مستخفّاً بحقك فأقصيتني، أو لعلك رأيتني معرضاً عنك فقليتني، أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني، أو لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني، أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين، فبيني وبينهم خليتني، أو لعلك بجرمي**

⇐

وَتعبأت[1] وَقمت للصّلاة بَين يديك وَناديتكَ ألقيتَ عَليّ نُعاساً[2] إذا أنا صَلّيت،

⇐

وجريرتي كافيتني، أو لعلك بقلّة حيائي منك جازيتني».

ثم حيث يجد العبد أنّه بسيئاته وذنوبه وإعراضه عن الله قد استحق من عند الله سوء التوفيق وسلب التوفيق، فيلوذ بالله ويلجأ إلى الله لينقذه من سوء أعماله وآثارها، ويعفو عنه فيعوذ بالله ويلوذ بالله، حيث لا يجد لنفسه ملاذاً ومعاذاً في مصيبته ومحنته غير الله:

«وأنا عائذ بفضلك هارب منك إليك».

«فإن عفوت يا رب فطالما عفوت عن المذنبين قبلي، لأنّ كرمك أي رب يجل عن مكافأة المقصرين.. وما أنا يا سيدي؟ وما خطري؟ هبني بفضلك، وتصدّق عليّ بعفوك، وجلّلني بسترك، واعف عن توبيخي بكرم وجهك».

والوسيلة التي يقدمها العبد بين يدي الله لقبول عذره وشموله بالعفو هو حسن ظنه بالله، فإن الله تعالى يعطي عبده بحسن ظنه به ما لا يعطيه من لا يحسن به الظن:

«وأنا متنجز ما وعدت من الصفح عمن أحسن بك ظناً».

(١) تعبأ : أي تهيّأ وتجهّز.

(٢) والمعنى إنني كلما عزمت عَلى الخلوص لك، والقيام لك بالعبادة ومناجاتك، وقرّرت بيني وبين نفسي أن أنتزع نفسي مما أنا فيه من التكاسل والإهمال، وأنصرف إلى عبادتك وذكرك وطاعتك عرض لي عارض يشغلني ويصرفني عن ذكرك.

فأعني اللّهم عَلى عبادتك وطاعتك، وخذ بيدي وأمددني بمددك، وهيّأ لي أسباب التوفيق، واشرح صدري للإقبال إليك، فلولا إمدادك ورحمتك لي لم تتيسر لي أسباب النجاة. وليس غيرك من يأخذ بيد العباد في مزالق الحياة ومهالكها.

وإنما يسلب الله تعالى توفيق الطاعة والعبادة عن عبده، عندما لا تخلص نيّته، ولا تصدق عزيمته. فإن الله تعالى يجازي العبد عَلى ذلك بأن يسلب عنه توفيق طاعته وعبادته، ويقهره بالكسل، ويبتليه بما يصرفه عن ذكره. وأما عندما تصدق نيّة العبد، ويصحّ عزمه فإن الله تعالى يلهمه الهداية، ويرزقه توفيق الطاعة (والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا).

والإمام السجاد عليه السلام هنا بصدد التعليم والتوجيه لمن غلبتهم شقوتهم، وطاوعوا أهواءهم، فيسلبهم الله توفيق الطاعة والعبادة، فيعلّمهم الإمام السجاد عليه السلام كيف يعود العبد إلى ربه، ويتوب إليه، بعد طول انقطاع، وتنكّر لرحمته وآلائه، وتمرّد عَلى شريعته ورسالته.

وَسلبتني مُناجاتكَ إذا أنا نَاجيت[(١)].

(١) إقبال القلوب وإدبارها:

للقلوب إقبال وإدبار.

في حال الإقبال ينشط القلب لذكر الله، ويبتهج بالإقبال على الدعاء والمناجاة، ويرق، ويشرق، وينتعش ويتفاعل مع ذكر الله، ويستغرق، صاحبه في الصلاة والدعاء، والمناجاة من غير ان يملّ،ويملكه الخوف من الله والرجاء لله والشوق والأنس بالله.. وينقطع إلى الله.

وفي حالات الإدبار يكسل الإنسان عن الذكر والدعاء والمناجاة وتلاوة القرآن والصلاة.. ولا يجد الشوق والإقبال على ذكر الله تعالى.

وهاتان الحالتان موجودتان في كثير من الناس بدرجات متفاوتة في الإقبال والإدبار.

وقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام: «**إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، ونشاطاً وفتوراً، فإذا أقبلت بصرت وفهمت، وإذا أدبرت كلّت وملّت، فخذوها عند إقبالها ونشاطها، واتركوها عند إدبارها وفتورها**» (بحار الأنوار ٧٨ / ٣٥٣).

كيف نتعامل مع حالات الإقبال والإدبار:

على الإنسان أن ينتهز ساعات الإقبال، ويشتغل بالذكر والدعاء وقراءة القرآن والصلاة والمناجاة، فإن القلوب تنفتح ساعات الإقبال، وعلى صاحبه أن ينتهز حالة انفتاح القلب فيقبل على الله ويتلقّى من عند الله النور، والهدى والبصيرة، وشرح الصدر، والرقة، والخشوع، فإن القلوب إذا انفتحت على الله أفاض الله عليها من رحمته وفضله ما لا يدخل في الوصف..

وإذا شعر الإنسان بالكسل والإدبار والفتور عن الصلاة والذكر والدعاء عليه ان يقتصر على الفرائض ولا يكره نفسه على النوافل، فإن الفرائض كافية للإبقاء على سلامة القلوب ارتباطها بالله، وإكراه القلوب على الذكر والدعاء في هذه اللحظات تترك انطباعاً سلبياً في نفس الإنسان تجاه العبادة والذكر والدعاء.

عن أمير المؤمنين: (إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض)(نهج البلاغة/ الحكمة ٣١٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن القلب يحيى ويموت فإذا حيى (يعني نشط) فأدبه بالتطوع (يعني النوافل) وإذا مات (يعني الفتور والكسل) فاقصره على الفرائض)**»(اعلام الدين: ٣٠٤ ، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٥٢).

الحالة الصحية والمرضية للقلوب في الإقبال والإدبار:

إن وجود حالة الإقبال والإدبار عند الإنسان حالة طبيعية، ولكنه إذا وجد ان حالات الإقبال في توسع وتنامي وحالات الإدبار في تقلص فتلك حالة صحية عن صاحبها، وإذا وجد العكس وعرف من

⇐

⇒

نفسه ان حالة الإقبال في ضمور وتقلص، وحالة الإدبار في تمدد وتوسع فتلك حالة مرضية، ينبغي ان يبادر إلى علاجها.

وعلاج هذه الحالة يتم بمعرفة عوامل الإدبار وعوامل الإقبال في القلوب، فإذا عرف الإنسان هذه وتلك حاول أن يكافح في نفسه وحياته عوامل إدبار القلوب ويتخلّص منها، ويلتزم عوامل الإقبال، وينعش بها قلبه.

وقد ورد في النصوص الإسلامية ذكر عوامل إقبال القلوب وإدبارها بتفصيل، لا يسعنا ذكرها هنا، إلاّ أننا نحاول أن نشير إلى طائفة من عوامل الإقبال والإدبار من خلال النصوص الإسلامية.

عوامل إدبار القلوب:

هذه العوامل كثيرة وهي تؤدي إلى إدبار القلوب، وقسوتها ومرضها وموتها بالتدريج.

ومن أهم هذه العوامل:

١- الذنوب والمعاصي: فهي تسلب النور من القلوب، وتؤدي إلى ضمور القلب وسوادها ودنسها.

يقول تعالى: **﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ* كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذ لَمَحْجُوبُونَ﴾** (المطففين: ١٤ ـ ١٥) .

إن الذنوب والسيئات تغلب على قلوب أصحابها فتكون ريناً ودنساً وخبثاً، فتفقد قلوبهم حالة الإشراق والإقبال والطهارة وتحجبها عن الله.

﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذ لَمَحْجُوبُونَ﴾.

عن الإمام موسى بن جعفرعليه السلام: **«أوحى الله إلى داودعليه السلام: يا داود، حذّر وأنذر أصحابك عن حب الشهوات، فإن المعلقة قلوبهم بشهوات الدنيا قلوبهم محجوبة عني»**(تحف العقول: ٣٩٧).

وعن رسول اللهصلى الله عليه وآله: **«إذا أذنب العبد نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب صقل منها، فإن عاد زادت حتى تغطه في قلبه»**(كنز العمال/ ١٠٢٨٨، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٥٨).

وعن أمير المؤمنين عليعليه السلام: **«ما جفّت الدموع إلاّ لقسوة القلوب، وما قست القلوب، إلاّ لكثرة الذنوب»**(علل الشرائع ٨١/ ١).

وعن أمير المؤمنينعليه السلام: **«طهروا أنفسكم من دنس الشهوات تدركوا رفيع الدرجات»**(غرر الحكم للآمدي: ٦٠٢٠).

وعن أمير المؤمنينعليه السلام: **«لا وجع أوجع للقلوب من الذنوب»** (أصول الكافي ٣ / ٣٠٠، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٦٤).

والمقصود بالوجع المرض، والمعنى لا مرض أفسد للقلوب وأكثر إضراراً به من الذنوب.

وعن الإمام الباقرعليه السلام: **«ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة (الخطيئة)، إن القلب ليواقع الخطيئة فما**

⇐

⇒

تزال به، حتى تغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله»(أصول الكافي ٣ / ٣٦٨).

وهذه هي حالة انتكاسة القلوب، وعامل هذه الانتكاسة الذنوب تبدأ بالقلب بالتدريج حتى ينتكس القلب تماماً، فيكون أعلاه أسفله، ويكون أسفله أعلاه، فيرى الحق باطلاً، ويرى الباطل حقاص. وهذا هو معنى انتكاسة القلوب.

ومن مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام:

«**إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجلّلني التباعد منك لباس مسكنتي، وأمات قلبي عظيم جنايتي، فاحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي**»(مناجاة التائبين المروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام / مفاتيح الجنان وسائر كتب الأدعية).

٢- ومن عوامل إدبار القلوب وانتهاك حرمات الله والتجري على الله.. وواضح أن انتهاك حرمات الله والتجري عليه تعالى لا يكون إلاّ بارتكاب الذنوب والمعاصي، وإنما أفردناه بالذكر، لأنه ليس كل ذنب انتهاكاً لحرمات الله، واجتراءً على الله.. فقد يخفي المذنب ذنبه، وهو خائف من الله، يتكتم بها.. وقد يُشهرها إشهاراً ويرتكبها علانية.. وهذا هو مصداق بانتهاك حرمات الله والاجتراء على الله، وبحكم مبارزة الله تعالى.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الطابع** (المقصود بـ (الطابع): حالة طبع القلوب التي يقول عنها الله تعالى ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ (غافر: ٣٥) **معلّق بقائمة العرش، فإذا انتهكت الحرمة، وعمل بالمعاصي، واجترأ على الله بعث الله على الطابع، فيطبع الله على قلبه، فلا يعقل بعد ذلك شيئاً**»(كنز العمال / ١٠٢١٣).

٣- ومن عوامل إدبار القلوب اتباع الهوى، فإنه يحبس الإنسان في دائرة الهوى الضيقة، ويمكن الهوى من الإنسان، فيكون الإنسان أسيراً للهوى لا يتمكن أن يحرر نفسه من سلطانها وأسرها.

يقول تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (الجاثية: ٢٣).

أولئك يختم الله على أسماعهم وقلوبهم، ويجعل غشاوة على أبصارهم، ولا يهتدون.. وبعكس ذلك مخافة الهوى والتحرر من سلطان الهوى فإنها من عوامل عروج القلب إلى الله.

٤- ومن عوامل إدبار القلوب (أكل الحرام)، فإن للجسم علاقة وثيقة بالروح والقلب.. فيفسد الروح أكل الحرام وينعشه أكل الطيب الطاهر الحلال.

لما عبأ عمر بن سعد أصحابه لمحاربة الحسين عليه السلام وأحاطوا به من كل جانب، حتى جعلوه في مثل الحلقة، فخرج عليه السلام حتى أتى الناس، فاستنصتهم فأبوا أن ينصتوا، حتى قال لهم: «**ويلكم ما عليكم ان تنصتوا إليّ، فتسمعوا قولي، إنما أدعوكم إلى سبيل الرشاد .. وكلكم عاص لأمري غير مسمع**

⇐

⇒

قولي، فقد ملئت بطونكم من الحرام، وطبع على قلوبكم»(بحار الأنوار ٤٥ / ٨، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٥٦).

وعن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**العبادة مع أكل الحرام كالبناء على الرمل، وقيل على الماء**»(عدة الداعي: ١٤١).

٥- ومن عوامل إدبار القلوب الغش والخيانة.

عن الإمام عليعليه السلام: «**شر ما ألقي في القلوب (الغلول)**»(غرر الحكم/ ٥٦٩٦ ، في القاموس المحيط للفيروزآبادي، الغلول: الخيانة).

٦- الحب والبغض في غير الله، وهو نحو من الهوى والرغبة الملحّة في شيء، في غير مرضاة الله، والافتتان بشيء أو شخص.

وعن علي أمير المؤمنينعليه السلام: «**من عشق شيئاً أعشى بصره، وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه**»(نهج البلاغة/ الخطبة ١٠٩).

إن الولع بالشيء أو بالشخص والافتتان بهما في غير حب الله تعالى يسلب القلب الرؤية الشفافة الصحيحة فيرى الانحراف فيه استقامة والباطل فيه حقاً والقبيح فيه جميلاً.. وهذا نحو من أنحاء اختلال الرؤية.. نعوذ بالله منها.

٧- الحقد: إن الحقد من أهم عوامل تلوث القلوب، يسلب القلب رقته وصفائه، ويبدله عند بظلمات الحقد والبغضاء، إذا كان ذلك في غير الله.

عن أمير المؤمنين عليعليه السلام: «**طهروا قلوبكم من الحقد فإنه داء موبئ**»(غرر الحكم: ٦٠١٧).

ومن أراد أن يريح قلبه من هذا المرض، فعليه ان يطرح الحقد من نفسه.. عن أمير المؤمنينعليه السلام: «**من طرح الحقد استراح قلبه ولبّه**»(غرر الحكم/ ٨٥٨٤).

٨- التكبر والترفع على الحق:

يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾ (غافر:٣٥).

٩- تكذيب الأنبياء فيما جاءوا به من الحق.. كذلك كل تكذيب للحق عناداً وجدالاً، يقول تعالى: ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (يونس: ٧٤).

إن تكذيب آيات الله وأنبياء الله يترك في قلب المكذبين ريناً يحجبهم عن الله، وعن الحق، فلا يرون بعد ذلك الحق، ولا يميزون بين الحق والباطل، جزاءً على تكذيبهم لما عرفوا أنه الحق من آيات الله

⇐

⇐

وأحكامه.

ويقول تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٠١).

١٠- ومن عوامل إدبار القلوب الجهالة والجهل والامتناع من التعقل والتفكير.

قول تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٥٩).

ويقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

إن القلوب إذا فقدت خاصية التفكير والتعقل عميت، فلا ترى بعد ذلك الحق حقاً والباطل باطلاً..

١١- ومن عوامل إدبار القلوب المراء والخصومة في العلاقات الاجتماعية.

عن علي عليه السلام: «**إياكم والمراء والخصومة، فإنهما يمرضان القلوب على الأخوان وينبت عليهما النفاق**»(أصول الكافي ٢ / ٣٠٠).

١٢- الحرص والطمع من عوامل إدبار القلوب وانتكاسها.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إياكم واستشعار الطمع، فإنه يشوب القلب شدة الحرص، ويختم على القلوب بطبائع حب الدنيا**»(إعلام الدين/ ٣٤٠، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٥٥).

إن الحرص والطمع يلصقان الإنسان بالدنيا إلصاقاً ويقيدانه بمتاع الدنيا تقييداً، فيفقد خاصية العروج والانطلاق.

١٣- من عوامل إدبار القلوب الفتن، فإن القلوب تزيغ في الفتن، إذا كان لم يحصنها التقوى والتقوى من أهم عوامل سلامة القلوب واستقامتها في الفتن.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في التحذير من الفتن: «**ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف، والقاصمة الزحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، وتضلّ رجال بعد سلامة**»(نهج البلاغة/ الخطبة ١٥١).

عن رسول الله عليه السلام: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب اشربها نُكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة، ما دامت السماوات والارض، والآخر أسود مُرباداً**(أي مائلاً إلى الرمادي) **لا يعرف معروفاً، ولا يُنكر منكراً إلاّ ما أشرب من هواه**» (الترغيب والترهيب ٣ / ٢٣١، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٦٣).

إن القلوب أزاء الفتن تنقسم إلى طائفتين: قلوب تقاوم الفتن وتنكرها، فلا تضره فتنة، مهما كانت ولو عاش صاحبه الدهر كله، وقلوب تزيغ في الفتن، وتنقاد لها، فتفقد الرؤية، فلا ترى المعروف معروفاً، ولا المنكر منكراً.

⇐

⇒

وعن أمير المؤمنينعليه السلام في التحذير من الفتن: «**ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، وتضل رجال بعد سلامة**» (نهج البلاغة/ الخطبة ١٥١).

١٤- وفرة المال ومتاع الحياة الدنيا من أسباب إدبار القلوب، فإنها تشغل صاحبها، شاء أم لم يشأ بها، اللهم إلاّ الأوحدي من الناس الذين لا تشغل الدنيا قلوبهم مهما كان نصيبهم من متاع الحياة الدنيا، ويمكنهم الله تعالى من الترفع عن الدنيا، والاستهانة والانصراف عنها إلى الله، إلاّ ما يقع منها في امتداد مرضاة الله، وهؤلاء أقل من القليل.

وأما غالب الناس فإن الدنيا إذا فتحت أبوابها وخزائنها عليهم، تشغلهم وتحجبهم عن الله تعالى وعن أنفسهم.

عن أمير المؤمنين عليعليه السلام: «**إن كثرة المال مقساة للقلب**» (مستدرك الوسائل ١٢ / ٩٣، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٦١).

وقد كان سلمان الفارسيرضي الله عنه متحسراً عند وفاته، فسئل عن تحسّره وتأسفه عند الموت، فقال: ليس تأسفي على الدنيا، ولكن رسول اللهصلى الله عليه وآله عهد إلينا، وقال: وليكن بلغة أحدكم كزاد الراكب، وأخاف ان نكون قد جاوزنا أمره وحولي هذه الأساود، وأشار إلى ما في بيته، وقال: هو دست وسيف وجفنة(بحار الأنوار ٧٢ / ٥٤).

١٥- اعتزال جماعة المؤمنين في جمعاتهم، وجماعاتهم وتجمعاتهم الراشدة الهادية، فإن مشاركة جماعات المؤمنين وبشكل خاص صلاة الجمعة ؟؟ للنور من قلبه.

عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه**» (كنز العمال/ ٢١١٣٣، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٦٢).

١٦- مجالسة المترفين والفارغين والبطالين.. فإن هذه المجالس تبعد الإنسان عن الله، وتحجبه عنه تعالى وتفسد قلب الإنسان.. وقد ذم رسول اللهصلى الله عليه وآله - كما في بعض الروايات - مجالس الموتى.

فقيل له يا رسول الله، وما الموتى؟ قال: كل غني مترف(الخصال للصدوق: ٢٢٨).

وهذه المجالس تميت القلوب، كما روي عنهصلى الله عليه وآله. (معاني الأخبار: ٣٣٥).

١٧- خلوة الرجال بالنساء، والحديث معهن فإن هذه الخلوات من إشراك الشيطان، يستدرجهم إلى السقوط في معصية الله.

وقد روي عنهصلى الله عليه وآله أنها من عوامل إفساد القلوب.(أمالي الطوسي ٨٣ / ١٢٢).

١٨- ومن عوامل إدبار القلوب الثرثرة وكثرة الكلام فإن الإنسان إذا كثر كلامه دخل في اللغو والباطل لا محالة..

وقد كان الصالحون من عباد الله يضبطون الكلام الذي يتكلمونه ويقيسونه قياساً دقيقاً ويفرضون

⇐

⇐

سيطرتهم على كلماتهم، وليس العكس.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن (في) كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب. إن أبعد الناس من الله القلب القاسي**». (أمالي الطوسي ٣ / ١ ، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٦١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار**». (الخصال للصدوق: ١٢٦).

١٩- ومن عوامل إدبار القلوب مرافقة الحكام الظالمين.. فإن الدخول معهم في أعمالهم ومصاحبتهم يؤدي إلى إدبار القلوب وقساوتها، إلاّ أن يكون من أجل دفع الضر والظلم والحيف عن المؤمنين.

٢٠- ومن عوامل إدبار القلوب طول الأمل في الحياة الدنيا فإنه يزيد من حرص الإنسان وطمعه وينسيه الموت وينسبه ذكر الله ويلهيه بالدنيا.. وكل هذه الأمور من عوامل إدبار القلوب وقسوتها.

روى ثقة الإسلام الكليني في الكافي عن علي بن عيسى مرفوعاً فيما ناجى الله عز وجل من الحديث القدسي موسى عليه السلام: «**يا موسى، لا تطوّل في الدنيا أملك، فيقسو قلبك، والقاسي قلبه مني بعيد**».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من يأمل ان يعيش غداً فإنه يأمل ان يعيش أبداً، ومن يأمل ان يعيش أبداً يقسو قلبه ويرغب في دنياه**».

هذه عشرون نقطة من عوامل إدبار القلوب جمعناها من النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة. وهي تؤدي إلى حالات الفتور عن العبادة والكسل عن الصلاة والدعاء والمناجاة، وعدم الرغبة في ذكر الله، وهي حالة مرضية بلا شك.. وعوامل هذه الحالة المرضية هي التنبه إلى هذه النقاط واجتنابها.

عوامل إقبال القلوب على الله:

نتحدث الآن عن عوامل إقبال القلوب على الله، في ضوء النصوص الإسلامية، كما تحدثنا عن عكسها من قبل.. ومعرفة هذه النقاط والنقاط السابقة عليها، والالتزام بها، وتجنب النقاط السابقة عليها كافية في تنشيط القلوب للذكر والعبادة، وإقبالها على الله.

١- وأول هذه النقاط التقوى.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أبصاركم**»(نهج البلاغة / الخطبة ١٩٨).

وعن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: «**اجعلوا قلوبكم بيوتاً للتقوى، ولا تجعلوا قلوبكم مأوى للشهوات**»(تحف العقول / ٣٩٣).

إن للتقوى أثراً عظيماً في صفاء القلوب، وتطهيرها وشفافيتها وطهرها، كما أن للذنوب والمعاصي دور كبير في دنس القلوب ورينها وانتكاستها.

⇒

⇒

٢- ذكر أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام حكمة تجمع بين الذكر والتقوى في عمارة القلوب.

فقد روى عنه أنه عليه السلام قال في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «**أوصيك بتقوى الله - أي بُنيّ - ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره**» (نهج البلاغة / الكتاب ٣١).

ومن أفضل الذكر: ذكر الله تعالى في الخلوات، فإنه يرقق القلب ويفتحه على فيوضات رحمة الله.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «**تعرض لرقّة القلب بكثرة الذكر في الخلوات**»(تحف العقول / ٢٨٥).

وفي ذكر الله جلاء للقلوب.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن الله سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة**»(نهج البلاغة/ الخطبة ٢٢٢).

إن ذكر الله يسمع القلوب ويفتح منافذ سمعها وبصرها بعد الوقرة والعمى.

وعنه عليه السلام أيضاً: «**أصل صلاح القلب اشتغاله بذكر الله**» (غرر الحكم للآمدي/ ٣٠٨٣).

٣- من عوامل إقبال القلوب وانفتاحها وبصرها: التفكر.

عن الإمام الحسن عليه السلام: «**التفكر حياة قلب البصير**» (الدرة الباهرة/ ٢٢ ، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٦٥).

وعنه عليه السلام أيضاً: «**عليكم بالتفكر، فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة**»(أعلام الدين/ ٢٩٧).

إن الله تعالى جعل قلب الإنسان خزائن معرفة، ما لم يفسد الإنسان قلبه، وجعل مفتاح هذه الخزانة التفكير كما عن الإمام الحسن عليه السلام: «**فإنه حياة قلب البصير ومفاتيح أبواب الحكمة**). ومن دون التفكير القلب يموت، وإذا مات القلب فصاحبه ميت بين الأحياء.

٤- ومن عوامل الإقبال العلم والمعرفة والحكمة.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله في الحديث القدسي: «**إن الله عز وجول يقول: تذاكر العلم بين عبادي مما تحيا عليه القلوب الميتة، إذا هم انتهوا فيه إلى أمري**»(أصول الكافي ١ / ٤١).

إن مذاكرة العلم الذي يؤدي إلى معرفة الله تعالى وتداوله تحيي القول الميتة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أحيي قلبك بالموعظة.. ونوّره بالحكمة**»(نهج البلاغة / الكتاب ٣١).

٥- ومن عوامل الإقبال على الله: التوبة والاستغفار.

من المناجاة المروية عن الإمام زين العابدين عليه السلام المعروفة بمناجاة التائبين: «**إلهي ألبستني الخطايا ذوب مذلتي، وجلّلني التباعد منك لباس مسكنتي، وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي**» (مناجاة التائبين/ كتب الأدعية ومفاتيح الجنان).

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن للقلوب صدءاً كصدأ النحاس، فاجلوها بالاستغفار**» (عدة

⇐

⇒

الداعي/ ٢٤٩).

٦- ومن عوامل إقبال القلوب على الله تلاوة القرآن واللجوء إلى القرآن، فإن القرآن يحيي القلوب الميتة، ويضيء القلوب المعتمة.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن هذه القلوب تصدأ، كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء. قيل: وما جلاؤها؟ قال: كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن**»(كنز العمال/ ٤٢١٣٠).

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**جلاء هذه القلوب ذكر الله وتلاوة القرآن**» (تنبيه الخواطر ٢ / ١٢٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن الله سبحنه لم يعط أحداً بمثل هذا القرآن.. وفيه ربيع القلب وينابيع العلم**» (نهج البلاغة / الخطبة ١٧٦).

وفي كلمة أخرى في نفس المورد عن أمير المؤمنين: «**إن الله سبحانه لم يعط أحداً بمثل هذا القرآن، وما للقلب جلاء غيره**» (نهج الكتب/ ٣١).

٧- من عوامل إقبال القلوب على الله مجالسة العلماء بالله والصالحين.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لقاء أهل المعرفة عمارة القلوب ومستفاد الحكمة**» (غرر الحكم/ ٧٦٣٥).

وعنه عليه السلام أيضاً: «**عمارة القلوب في معاشرة ذوي العقول**» (غرر الحكم/ ٦٣١٣).

وعنه عليه السلام أيضاً: «**معاشرة ذوي الفضائل حياة القلوب**» (غرر الحكم/ ٦٣١٣).

وعن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: «**يا بني إسرائيل، زاحموا العلماء في مجالستهم.. فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل المطر**» (تحف العقول/ ٣٩٣).

٨- الموعظة والزهد في الدنيا.

فإن الموعظة جلاء للقلوب وتذكير وتوعية لها وبالموعظة تحيي القلوب الميتة وتنتعش القلوب الخاملة الفاترة.

وبالزهد يتحرر الإنسان من أسر الدنيا وفتنتها، وإذا تحرر الإنسان من الدنيا انتعش قلبه ونشط للعبادة والذكر.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «**أحيي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة وقوّه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلّله بذكر الموت، وقرّره بالفناء، وبصّره فجائع الدنيا، وحذّره صولة الدهر وفحش تقلّب الليالي والأيام**» (نهج البلاغة / الكتاب ٣١).

٩- ذكر الموت: وهو يقصّر أمل الإنسان في الدنيا، ويذكّره بالله تعالى وبنفسه.

وتذكير النفس بالموت عامل قوي لتجهيز الإنسان وإعداده للرحلة الشاقة الصعبة، التي تلي هذه الدنيا، ويتغافل عنها الإنسان، وهو يتخيل أنه إذا تغافل من الموت ونسي الموت، يتركه الموت

⇐

⇒

وشأنه، ومثل الإنسان في ذلك مثل طير (القبج) يخفي رأسه في الثلج إذا طارده الصياد، ويتصور أنه إذا اختفى عنه الصياد، يختفي هو عن الصياد، فينقض الصياد عليه فجأة ويمسكه.. وكذلك الإنسان.

إن ذكر الموت تنبيه وإنذار دائم للإنسان.

للإعداد والتحضير للسفر الطويل العسير الذي يفاجؤه، وهو لا يعلم متى، وكيف يكون أمره في هذا السفر الشاق.

وهذا التنبيه والانذار من عوامل ترقيق القلوب، وإزالة الحجب عنها وتوجيهها إلى الله والى نفسها.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، إذا أصابه الماء. قيل: وما جلاؤها؟ قال: كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن**» (كنز العمال/ ٤٢١٣٠).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**أكثروا ذكر الموت فما من عبد أكثر ذكره إلاّ أحيى الله قلبه، وهوّن عليه الموت**» (الخصال للصدوق/ ٦١٦).

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوي القلب بمواعد الله، ويُرق الطمع، ويكسر أعلام الهوى، ويطفئ نار الحرص، ويحقّر الدنيا**» (بحار الأنوار ٦ / ١٣٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أوصيكم بذكر الموت، وإقلال الغفلة عنه، وكيف غفلتم عما ليس يغفلكم؟ وطمعكم فيمن ليس يمهلكم؟ فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم**» (نهج البلاغة/ الخطبة ١٨٨).

١٠- البكاء من خشية الله:

إن شهقة بكاء من خشية الله في جوف الليل يذيب جليداً من تراكم الذنوب ؟؟ في عمر الإنسان، فيزيله كله، وكأنها تفجره مرة واحدة، فيقبل العبد على الله من غير حجاب يحجبه عنه تعالى.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**عوّدوا قلوبكم الرقة، وأكثروا من التفكر والبكاء من خشية الله**» (أعلام الدين/ ٣٦٥ ، ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٦٧).

إن البكاء من خشية الله يستنزل رحمة الله على عبده، ويفتح قلب العبد لاستقبالها.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**بكاء العيون وخشية القلوب من رحمة الله تعالى ذكره، فإذا وجدتموها فاغتنموا الدعاء**» (مكارم الأخلاق ٢ / ٩٦).

وعنه عليه السلام أيضاً: «**البكاء من خشية الله ينير القلب، ويعصم من معاودة الذنب**» (غرر الحكم للآمدي/ ٢٠١٦).

فإذا لم يجد الإنسان البكاء في نفسه وعينيه فليتباك فإنه مفتاح البكاء، والبكاء مفتاح الرقة، وبرقة القلوب تنزل رحمة الله تعالى على عباده من غير حساب.

عن الصادق عليه السلام: «**إن لم يجبك البكاء فتباك، فإن خرج منك مثل رأس الذباب فبخ بخ**» (عدة

⇐

⇒

الداعي/ ١٦١).

١١- الإحسان وإطعام المساكين ورعاية الأيتام وتفقدهم:

فإن هذه الأمور ترقق القلوب بطبيعة الحال، وإذا رقّت القلوب أقبلت على الله.

شكى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قساوة قلبه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله - كما في الرواية -: «**إذا أردت ان يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم**» (مشكاة الأنوار/ ١٦٧ . ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٦٧).

وكل إحسان وتفقد للمستضعفين والفقراء ورعايتهم وقضاء حوائجهم بحكم ذلك.

١٢- اكتساب اليقين من عوامل إقبال القلوب على الله فإن العجز في اليقين يسلب النشاط عن الإنسان في الإقبال على الله، وكلما ازداد الإنسان طمأنينة ويقيناً اشتد إقباله على الله وشوقه إلى الله وأنسه بالله، وعمر قلبه بذكر الله وخشيته.

فإن اليقين نور في القلوب كما في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام (غرر الحكم / ٦٨).

وعنه عليه السلام أيضاً: «**أحيي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوّه باليقين**» (نهج البلاغة/ الكتاب ٣١).

وهذه وصفة كاملة في إحياء القلوب وتقويتها وتحديد الشهوات والسيطرة عليها.

١٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من رأى عدواناً يعمل به، ومنكراً يدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ، ومن أنكره بلسانه فقد أُجرَ، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الظالمين هي السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، وقام على الطريق، ونوّر في قلبه اليقين**» (نهج البلاغة/ الكلمة ٣٧٣).

إن بعض الناس يتصورون أن القلوب تستنير باليقين في خلوات الذكر فقط، وهو صحيح، ولكن ليس حصراً، فإن الله تعالى إذا وجد عبده في وسط زحام المجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحافظ على حدود الله وحلاله وحرامه، ويعرض نفسه لمساعدة الناس وثقتهم له، بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإن الناس يزعجهم ان يراقبهم أحد فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فيكرهونه ويمقتونه، ويعوضه الله تعالى عن هذه الكراهية والرفض في وسط المجتمع بنور اليقين في قلبه.

١٤- التقشف في المعيشة يمنح الإنسان التواضع في نفسه والخشوع في قلبه.. وبعكس ذلك الترف في المسكن والمبس والطعام والتظاهر والترائي به يورث النفس الخيلاء والغرور الكاذب والبطر والرئاء والاستعلاء على الفقراء والمستضعفين.

عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد شوهد عليه إزار خَلِق مرفوع، فقيل له في ذلك، فقال: «**يخشع له القلب وتذل به النفس، ويقتدى به المؤمنون**» (نهج البلاغة/ الحكمة ١٠٣).

⇐

⇐

وعلينا ان نعرف ان وظيفة الإمام في اللباس والسكن والمطعم يختلف عن غيره من عامة الناس.. فقد أنكر الإمام‌عليه السلام على عاصم بن زياد الحارثي‌عليه السلام تقشفه ومشاركته لأهله وبنته.
فقال عاصم: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك!
فقال له‌عليه السلام: «**ويحك إني لست كأنت. إن الله تعالى فرض على أئمة العدل ان يقدّروا أنفسهم بضعف الناس كيلا يتبيغ**(أي لا يثيره فقره ولا يهيجه ضعفه وحرمانه) **بالفقير فقره**» (نهج البلاغة/ الخطبة ٢٠٩).
على أن حالة الترف في المأكل والمبس والطعام والتظاهر به حالة مكروهة على كل حال من الإمام ومن الرعية، ويورث القلب حالة الخيلاء والغرور والاستعلاء على المؤمنين.
١٥- الدعاء: فإن الله تعالى يرزق بالدعاء عباده ما يطلبون من رقة القلوب وخشوعها وإقبالها على الله، ويرزقهم حبه والأنس به والشوق إليه، والثقة به والتوكل عليه.
من مناجاة للإمام زين العابدين‌عليه السلام، كما في الرواية: «**وسقمي لا يشفيه إلاّ طبك، وغمي لا يزيله إلاّ قربك، وجرحي لا يبرؤه إلاّ صفحك، ورين قلبي لا يجلوه إلاّ عفوك**».
١٦- التوكل على الله حالة نفسية، وليست حالة لفظية، وكلمة (التوكيل) تعبير عن تلك الحالة النفسية، وهي إيكال الأمور جميعاً إلى الله.. وهذه الحالة هي حالة الثقة المطلقة بالله وبسلطانه وحكمته ورحمته، فيوكل الإنسان الله في كل أموره، في حياته وفي زواجه، وفي عائلته، وفي تجارته، وفي مستقبله، وفي دراسته، واثقاً بأن الله تعالى لا يجزي إلاّ ما فيه خيره وصلاحه، وواثقاً بأن الله يقبل التوكيل من عبده، فيطمئن الإنسان إلى هذه الوكالة الإلهية التي طلبها العبد من ربه، فيسلّم أمره كله لله تعالى بثقة واطمئنان.. وهذه الثقة والاطمئنان بالله تعالى تستقر في قلب العبد بهذا التوكيل (توكلت على الله).
ويعم هذا التوكيل كل مساحة حياة الإنسان، ويتوكل الإنسان على الله تعالى في كل شؤون حياته، وفي دنياه وآخرته.
وبسبب هذا التوكيل، في هذه المساحة الواسعة من حياته، تستقر الثقة بالله والتسليم لله في قلب العبد، ويتمرس الإنسان في وضع الثقة بالله تعالى في كل شؤون حياته.
وهذه الثقة المطلقة الواسعة بالله تعالى تنعش قلب العبد، وتنوره باليقين.
ولست نحتاج إلى توضيح أن التوكل ليس بديلاً عن العمل والجهد والتخطيط والمواصلة، وإنما هو بديل عن الغرور الكاذب الذي يصيب الإنسان إذا أصاب نجاحاً في حياته فيتصور أنه بجهده حقق هذا النجاح، وبديل عن الخوف عن العقبات والمعيقات التي تعترضه في الطريق، وبديل عن المخاوف التي تنتاب الإنسان لما يضمره له المستقبل، فلا يعرف كيف يؤول أمره، تجاه هذه

⇐

⇒

العقبات والمعيقات، وتجاه المخاوف التي تواجهه في المستقبل.. وتجاه المخاوف التي تنتاب الإنسان من الخطأ في المحاسبات. فإن الإنسان إذا أقدم على عمل تجاري - مثلاً - ووضع رأس ماله في ذلك العمل، يجري بصورة دقيقة، فيقدم إذا كان الحساب ايجابياً، ويحجم إذا كانت نتيجة المحاسبة سلبية... فإذا أخطأ في المحاسبة، ويتفق ذلك كثيراً للإنسان، فسوف يخسر رأس ماله وجهده وعمره من غير أي مردود مالي.

ومعنى التوكل: أن الإنسان يعلم ان هذا النجاح والتوفيق ليس من فكره وجهده، وإنما كان من عند الله فلا يملكه الغرور، ويعرف ان الله تعالى يتولى عنه إزالة العقبات والمعيقات التي لا يراها أولاً يقدر على إزالتها بجهده، ولا تدخل في محاسبته، وأن الله تعالى يؤمن له المستقبل المجهول، كما أمن له الحال والماضي، وما عليه إلاّ أن يحاسب حساب المستقبل بقدر ما يفهم، ويوكل أمر ما لا يدخل في المحاسبة مما يضمره المستقبل له إلى الله، ويبذل جهده في التخطيط والمحاسبة والاستفسار، فإذا كانت النتيجة إيجابية يقدم متوكلاً على الله ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ**﴾، فيزيل التوكل الغرور من نفس الإنسان، ويبدله بالثقة بالله، ويطمأن إلى تسديد الله تعالى له، ورعايته له، وتوفيقه إياه، وتأييده له، ودفاعه عنه، فيمضي في حمله بهذه الثقة المطلقة في جهد وعمل مدروس مخطط منظم من غير غرور، لا يخاف شيئاً إلاّ الله، ولا يثق بشيء إلاّ الله.

﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**﴾ (الطلاق: ٣).

والتوكل بهذا المعنى العميق ينشأ قلب الإنسان إنشاء توحيدياً، ويعمق حالة التوحيد والثقة بالله والتسليم لأمره في عمق ضمير الإنسان وقلبه.

سأل رسول الله صلى الله عليه وآله جبرئيل عن التوكل على الله، فقال: «**العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع واستعمال اليأس عن الخلق، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله، ولم يطمع في أحد سوى الله فهذا هو التوكل**» (معاني الأخبار/ ٢٦١).

وعن علي عليه السلام: «**حسبك من توكلك أن لا ترى لرزقك مجرياً إلاّ الله سبحانه**» (غرر الحكم/ ٤٨٩٥).

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن التوكل، قال: «**أن لا تخاف مع الله شيئاً**» (بحار الأنوار ٧١ / ١٥٦).

عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «**ليس شيء إلاّ وله حدّ، قلت: جعلت فداك، فما حد التوكل؟ قال: اليقين، قلت: فما حدّ اليقين؟ قال: أن لا تخاف مع الله شيئاً**» (أصول الكافي ٢ / ٥٧).

سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله عن دابته يعقلها ويتوكل على الله، أو يرسلها ويتوكل على الله، فقال له صلى الله عليه وآله: «**اعقلها وتوكّل**» (أصول الكافي ٢ / ٥٧).

التوكل بهذا المعنى من خير ما يعمق الإنسان التوحيد والثقة بالله في قلبه.

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**أصل قوة القلب التوكل على الله**» (غرر الحكم/ ٣٠٨٢).

⇐

⇒

١٧- الحلم وكظم الغيظ، يحرران القلب من سلطان الغضب والانفعالات النفسية الشديدة.. وهذه العملية تؤكد سلطان الإنسان على أهوائه وانفعالاته النفسية.

عن الإمام العسكريعليه السلام: «**لم يعرف راحة القلب من لم يجرّعه الحلم غصص الغيظ**» (ميزان الحكمة ٨ / ٣٤٧١).

فإذا تجرع الإنسان غصص الغيظ بالحلم تمكن من انفعالات نفسه.. والسيطرة على النفس في حال الانفعال غاية من الغايات الصعبة. فلربّ جريمة كبيرة يرتكبها الإنسان في ساعة غضب وانفعال.. والأداة المفضلة للتمكن من حالات الانفعال في النفس هو الحلم.. وهو من خير ما يدعم الإنسان به قلبه ويحرره الغضب.

١٨- النظر في العواقب:

الإنسان ينشأ عن الارتجال الكثير من الجهالات التي يرتكبها السريع والتفاعل النفسي، وفوران الهوى والشهوات، فيفسد بذلك دنياه وآخرته وقلبه وروحه وجسمه، وليس فقط دينه وقلبه وإنما يفسد أيضاً مستقبله في هذه الدنيا ويفسد جسمه كذلك.

وإذا توقف الإنسان عن هذه الحالات ونظر إلى البعيد وتأمل في عواقب الأمور، ولم تمتلكه لحظة الانفعال والشهوة كان ذلك أصلح لدنياه وآخرته وجسمه وروحه وقلبه.

وهذه وقفة تعقّل وتأمّل لعواقب الأمور، وبعدٌ في النظر، يدعم القلب ويحفظه.

عن الإمام الصادقعليه السلام: «**النظر في العواقب تلقيح القلوب**» (أمالي الصدوق : ٣٠١، ميزان الحكمة ٨/ ٣٤٧١).

١٩- وأخيراً نختم هذه النقاط بهذه الوصفة الشاملة لإصلاح القلوب: الجوع، والقنوع، والغرم، واليقظة.

وهذه أربعة، وأية أربعة في صلاح القلوب وتنشيطها للذكر والعبادة والإقبال على الله تعالى.

عن أمير المؤمنينعليه السلام: «**تأدم بالجوع، وتأدب بالقنوع، تداوي داء الفترة في قلبك بعزيمة (عزم) ومن كري الغفلة من ناظرك بيقظة**» (غرر الحكم للآمدي / ٤٥٦١).

وبعد هذه عشرون نقطة في إصلاح القلوب وتنشيطها للذكر والدعاء، وإقبالها على الله وخلاصها من الفتور والكسل.

وإذا ضممنا هذه العشرين إلى النقاط العشرين التي ذكرناها من قبل في مكافحة حالات الإدبار والكسل في العبادة والذكر والفتور عن الإقبال على الله.. كان منهجاً متكاملاً للإقبال على الله تعالى ومكافحة حالات الكسل والفتور.

علامات إقبال القلوب:

⇐

⇒

تلك كانت عوامل إقبال القلوب أما الآن فنتحدث عن علامات إقبال القلوب على الله.

وقد وردت في نصوص الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام طائفة من هذه العلامات يستطيع الإنسان ان يعرف بها سلامة قلبه واستقامته وإقباله على الله.

١ - ٢ - التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت.

روى الطبرسي في تفسيره عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «**لما نزلت هذه الآية: ﴿فمن يرد الله ان يهديه﴾ سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن شرح الصدر ما هو؟ قال: نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له صدره وينفسح.**

قالوا: فهل لذلك من إمارة يعرف بها؟

قال صلى الله عليه وآله: **نعم، الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت**» (مجمع البيان ٤ / ٥٦١).

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً لابن مسعود: «**يا ابن مسعود، فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، فإن النور إذا وقع في القلب انشرح وانفسح**».

فقيل: يا رسول الله، فهل لذلك من علامة؟

فقال: **نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الفوت. فمن زهد في الدنيا قصّر أمله فيها، وتركها لأهلها**» (مكارم الأخلاق ٢ / ٣٤٠).

وهذه ثلاث علامات.

تحب للمؤمنين ما تحب لنفسك.

وهذه علامة رابعة، ان تحب للمؤمنين ما تحب لنفسك.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يسلم لك قلبك حتى تحب للمؤمنين ما تحب لنفسك**» (بحار الأنوار ٨٧ / ٨).

نتائج إقبال القلوب:

من النتائج والعلامات تداخل شديد.. ولكننا ما دمنا في سياق مقال توجيهي ولسنا في سياق تقسيم فني لهذا الموضوع، فلا نتوقف كثيراً عند نقطة التفريق بين العلائم والآثار..

وها نحن نستعرض طائفة من الروايات الإسلامية دون ان نتوقف عندها بالشرح والتعليق.

١ -٢ -٣ - الرقة والصفاء والصلابة:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن لله تعالى في الأرض أواني، إلاّ وهي القلوب، فأحبها إلى الله أرقها، وأصفاها وأصلبها أرقها للأخوان، وأصفاها من الذنوب، وأصلبها في ذات الله**» (كنز العمال/ ١٢٢٥).

وهذه ثلاثة خصال من نتائج سلامة القلوب وإقبالها على الله: الرقة في التعامل مع الاخوان في مقابل

⇐

⇒

الفظاظة، وصفاء القلوب من الذنوب، ومعنى صفاء القلوب أن هذه القلوب لا تدخلها نية الذنب والعزم عليه.

٤- سراج يزهر:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**قلب المؤمن أجرد، فيه سراج يزهر، وقلب الكافر منكوس**» (بحار الأنوار ٧٠ / ٥٩).

وهذا السراج الذي يزهر في قلوب المؤمنين هو النور الذي يودعه الله تعالى في قلوبهم فيرون ما لا يرى الآخرون.

٥- وعاء المعرفة:

عن أمير المؤمنين عليه السلام في كلمته المعروفة لكميل رضي الله عنه: «**يا كميل: إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها**» (نهج البلاغة/ الحكمة ١٤٧).

إن القلوب أوعية المعرفة والخير والحق.

فما كان في حياة الإنسان من خير وفضيلة فهو نابع من هذا الوعاء، وخير القلوب أوعاها وأكثرها استيعاباً للمعرفة والقيم والنور والخير والحق.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**اعلموا ان الله سبحانه لم يمدح من القلوب إلاّ أوعاها للحكمة، ومن الناس إلاّ أسرعهم إلى الحق إجابة**»(غرر الحكم / ١١٠٠٥).

٦- القلب الذي ليس فيه إلاّ الله: (الإخلاص)

وهو أفضل هذه الآثار جميعاً.. فإن القلب إذا سلم من الأمراض كلها، وصفا، وطاب، واستقام، وخلص لله، فلا تجد فيه غير الله ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

وليس معنى ذلك أن صاحب هذا القلب يعتزل المجتمع والسوق، والعائلة، والسياسة، والعلاقات الاجتماعية والعائلية، وإنما يضعها جميعاً في امتداد العلاقة بالله. فإذا تتبعت نياته لم تجد في جذورها وأصولها غير الله، فإذا أحب أحبّ لله، وإذا أبغض أبغض في الله، ولا تعرف له فيما عدا ذلك حباً أو بغضاً، وإذا رضي يرضى لله، وإذا غضب غضب لله، ولا تجد له فيما دون ذلك رضىً أو غضباً، إلاّ أن يكون في امتداد رضى الله تعالى وغضبه.

والآن فلنستمع إلى هذا الحديث الذي يرويه ثقة الإسلام الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله: ﴿**إلاّ من أتى الله بقلب سليم**﴾.

قال: «**القلب السليم الذي يلقى ربه، وليس فيه أحد سواه، وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط**) (دعاء أبي حمزة الثمالي).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**القلب حرم الله، فلا تُسكن حرم الله غير الله**».

⇐

⇒

وهذه صفة خاصة للقلب، فإن الجوارح تسعى وتتحرك في الحياة باتجاهات وشؤون شتى فيما أباحه الله تعالى وأجازه، أما القلب فهو حرم الله تعالى، ولا ينبغي أن يحلّ فيه حب لغير الله وتعلّق بسواه.

والتعبير عن (القلب) في النص (بالحرم) دقيق ومعبّر، فإن الحرم منطقة آمنة ومغلقة على كل غريب، لا ينال أهلها سوء أو خوف، ولا يدخلها غريب، وكذلك القلب حرم الله الآمن لا يدخله حب آخر غير حب الله ولا يمسّ فيه حب الله سوء أو خوف.

ولذلك فإن الصدّيقين والأولياء من عباد الله يخلصون الحب لله، ولا يجمعون بين حب الله وحب آخر، مهما كان، إلاّ ان يكون في امتداد حب الله.

وفي المناجاة التالية نلمس لوعة الحب وصدق الإخلاص في الحب في كلمات زين العابدين عليه السلام: **«سيدي إليك رغبتي، وإليك رهبتي، وإليك تأميلي، وقد ساقني إليك أملي،وعليك يا واحدي عكفت همّتي، وفيما عندك انبسطت رغبتي، ولك خالص رجائي وخوفي، وبك انست محبتي، وإليك ألقيت بيدي، وبحبل طاعتك مددت رهبتي، يا مولاي بذكرك عاش قلبي، وبمناجاتك برّدت أمل الخوف عني..»** (دعاء أبي حمزة الثمالي).

فالإمام عليه السلام في هذه المقطوعة من المناجاة يربط رغبته ورهبته وأمله كلها بالله، ويعكف بهمته كلها عليه تعالى، ويجعل له خالص رجائه وخوفه.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أحبّوا الله من كل قلوبكم**» (أصول الكافي ٢ / ١٦).

وفي الدعاء عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي حباً لك، وخشية منك، وتصديقاً لك، وإيماناً بك، وفرقاً منك، وشوقاً إليك**» (بحار الأنوار ٧٠ / ٢٥).

وإذا كان حب الله والشوق إليه ملاء قلب العبد فلا يبقى في قلبه محل شاغر لحب آخر غير حب الله، إلاّ أن يكون في امتداد حبه تعالى، وهو في الحقيقة من حب الله والشوق إليه.

وفي الدعاء عن الإمام الصادق عليه السلام عند حضور شهر رمضان: «**صل على محمد وآل محمد واشغل قلبي بعظم شأنك، وارسل محبتك إلي حتى ألقاك وأوداجي تشخب دما**» (الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام / للمؤلف ٢٥٥ - ٢٥٦).

وهو بمعنى إخلاص الحب لله حتى يكون حب الله هو الشغل الشاغل للقلب وهمه الذي لا يفارقه..

٧- السلامة من حب الدنيا:

القلب السليم هو القلب الذي يعبر الدنيا ويعيشها كما يعيشها سائر الناس، ولكن يسلم منها، ولا يتعلق بها.

عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير القلب السليم:

«**هو القلب الذي سَلم من حب الدنيا**» (نور الثقلين ٤ / ٥٨).

⇐

⇐

٨- النية الصادقة:

صدق النية من آثار سلامة القلب وإقباله على الله. والنية الصادقة هي النية التي يطابقها العمل، وإلاّ تتحول من النية إلى أمنية.. وصاحب القلب السليم هو الذي يطابق عمله نيته.. وهذا التطابق من نتائج سلامة القلب.

عن الإمام الصادقعليه السلام: «**صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأن سلامة القلب من هواجس المذكورات تخلص النية لله في الأمور كلها**» (المصدر السابق نفسه).

٩- رؤية الملكوت:

عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت**» (بحار الأنوار ٧٠ / ٥٩).

وليس يرى الإنسان الملكوت بعينه التي في رأسه، ولكن يراها بعينه التي جعلها الله تعالى في قلبه..

وقد روي عن الإمام زين العابدينعليه السلام: «**إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب في أمر آخرته**» (الخصال/ ٢٤٠).

فإذا سلم للعبد قلبه، واستقام له، وأقبل على الله فتح الله على قلبه بصيرة يرى بها ملكوت السماوات، كما أراه رسوله وخليله إبراهيمعليه السلام..

﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾ (الأنعام: ٧٥).

١٠- السماع إلى الملكوت:

عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**لولا تمرّغ قلوبكم، وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع**»(الترغيب والترهيب ٣ / ٤٩٧).

والذي يحجب قلوبنا عن سماع الملكوت هو حجاب الذنوب والتعلق بالدنيا.

ومن يفتح الله تعالى مسامع قلبه لا يتردد في معرفة الحق والباطل فيما يتحدث به الناس، وعرف أن ذا الكلام حق وصدق، وذا الكلام باطل وكذب.. ولم يتردد في ذلك لحظة واحدة، وإنما يحجب الناس عن معرفة الحق والباطل والصدق والكذب لتراكم الذنوب والسيئات والحب والبغض في غير الله على قلوبهم.

عن عليعليه السلام: «**اسمعوا أيها الناس، وعوا، واحضروا أذان قلوبكم تفقهوا**» (نهج البلاغة / الخطبة ١٨٧).

إن القلب إذا استقام وسلم أقبل على الله وصفا من الحب والبغض في غير الله، وسلم يسمع الحق حقاً ويسمع الباطل باطلاً فلا يتردد في تمييز الحق من الباطل والكذب عن الصدق.

عن الإمام الصادقعليه السلام: «**إن لك قلباً ومسامع، وإن الله إذا أراد ان يهدي عبداً فتح مسامع قلبه، وإذا**

⇐

⇐

أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه، فلا يصلح أبداً، وهو قول الله تعالى: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾» (المحاسن للبرقي ١ / ٣١٨).

١١- همومهم واهتماماتهم في ملكوت السماوات:

عن الإمام زين العابدينعليه السلام- فيما يروى عنه من المناجاة -: «**اللهم صل على محمد وآل محمد، واجعلنا من الذين أرسلت عليهم ستور عصمة الاولياء، وخصصت قلوبهم بطهارة الصفاء، وزينتها بالفهم والحياء في منزل الأصفياء وسيّرت همومهم في ملكوت سماواتك حجباً حجباً حتى ينتهي إليك واردها**» (بحار الانوار ٩٤ / ١٢٨).

إن أصحاب القلوب الصافية السليمة ينتزعون همومهم واهتماماتهم من الحياة الدنيا وما فيها من المتاع، فيعينهم الله تعالى فيسيّر همومهم واهتماماتهم مما يطلبه الناس من متاع الدنيا وخرفها إلى ملكوت سماواته ويرفع عنهم الحجب التي تحجب الناس عن الله حجاباً حجاباً حتى ترد همومهم واهتماماتهم إلى الله (حتى ينتهي إليك واردها)، وتلك غاية لا ينالها إلاّ الأنبياء والصديقين من عباد الله.

فلا تبقى لهم في هذه الدنيا حاجة ولا رغبة، وتصعد كل رغباتهم إلى الله، وتكون حاجتهم رضوان الله ولقاءه ومناجاته وجواره.

١٢- كمال الانقطاع إلى الله:

في المناجاة الشعبانية، وهي من غرر المناجاة عن أمير المؤمنينعليه السلام:

«**إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنرْ أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك**» (المناجاة الشعبانية/ كتب الأدعية).

وأي انقطاع إلى الله هذا الانقطاع. إن الانقطاع إلى الله دائماً بمعنى ان يقطع الإنسان عن كل شيء وينقطع إلى الله..

ولكن التعبير هنا (كمال الانقطاع إليك) وكأن للانقطاع مراحل ومستويات والذي يطلبه أمير المؤمنينعليه السلام من الله في هذه المناجاة هو كمال الانقطاع إلى الله، حتى لا يبقى لغير الله في نفس الإنسان عين ولا أثر من قريب أو بعيد.

١٣- اختراق حجب النور:

ثم يطلب أمير المؤمنينعليه السلام من الله تعالى في المناجاة المتقدمة ان ينير بصر قلبه بضياء من عنده تمكنه من النظر إليه تعالى، حتى يخرق بصره الذي في قلبه حجب النور حجاباً حجاباً حتى يصل إلى الله تعالى معدن العظمة والجلال والجبروت.

⇐

⇐

والحجاب حجابان حجاب ظلمة وحجاب نور، والإمام عليه السلام يتجاوز في هذا الدعاء حجب الظلمة من الذنوب والسيئات والتعلق بالدنيا والأنا والأنانية يتجاوز هذه الحجب إلى حجب النور والمعرفة، كما لو أراد أحد أن ينظر إلى الشمس في وضح النهار فليس يمنعه من النظر إلى الشمس حجاب ظلمة، وليس في النور ظلام، وإنما الذي يحجبه عن نور الشمس هو شدة وهج الشمس ونوره... وهذا هو حجاب النور الذي يحجب عمش العيون من النظر إلى الشمس.

والإمام عليه السلام هنا يتجاوز حجاب الظلم، ويطلب منه تعالى ان يهبه في بصره الذي في قلبه نوراً يخترق به حجب النورن فيصل إلى ذي الجلال والجمال والجبروت ومعدن العظمة.

١٤- أصحاب القلوب الطاهرة يظلهم الله في ظل عرشه:

في الحديث القدسي: سأل موسى بن عمران عليه السلام ربه تعالى فقال: «**يا رب، من أهلك الذين تظلهم في ظل عرشك يوم لا ظل إلاّ ظلك؟ فأوحى الله إليه، الطاهرة قلوبهم**» (المحاسن للبرقي ١ / ٤٥٧).

١٥- شرح الصدر:

يقول تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنعام: ١٢٥).

من نتائج إقبال القلوب على الله شرح الصدر، وإذا شرح الله تعالى صدر عبد من عباده، اتسع صدره لما ينزل إليه من النور والمعرفة من جانب الله تعالى فيتسع صدره للمعارف الإلهية لما لا يطيقه الآخرون.

وهذا هو الشرح الأول.

والشرح الثاني يشرح صدوره لنزول البلاء، فيطيق من الابتلاء النازل من عند الله ما لا يطيقه الآخرون.

١٦- هيام القلوب:

في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام:

﴿**فاجعلنا ممن ... هيمت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك**» (مناجاة المحبين للإمام زين العابدين عليه السلام).

الهيام من أشد درجات الحب، فقد المحب فيه استقراره ويكون كالظمآن الذي لا يقر له قرار إلاّ ان يرتوي من الماء.. ولذلك جاء في معاني الهيام الظمأ الشديد.. والإمام هنا يدعو الله تعالى ان يجعله ممن هيّم قلبه وسلب استقراره وقراره في حبه، فلا يكون له قرار إلاّ بلقائه ولا يشبع من ذكره ومناجاته، ولا يطيق ان يفارق ذكر الله والوقوف بين يديه في الخلوات.

وأن من عباد الله من يترقب الليل ليخلو إلى ربه - سبحانه وتعالى - بالمناجاة والدعاء، ويبثه عمومه وشكواه في فراقه ويناجيه، ويذكره ذكر الحبيب لحبيبه... أولئك هم الذين هيّم الله تعالى قلوبهم

⇐

⇐
بحبه، لا يريدون من الله غير الله، ولا يطيقون مفارقة ذكر الله، ولا يستقر لهم قرار حتى يأذن الله لهم بقائه.

وأود ان أقرأ عليكم هذه اللوحة الفريدة في مناجاة المحبين التي وصلت إلينا فيما وصلت من تراث الإمام زين العابدين(ع):

«إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً؟ ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا؟ إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودّك ومحبتك، وشوّقته إلى لقائك، ورضّيته بقضائك، ومنحته النظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك وقلاك، وبوأته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهلته لعبادتك، وهيّمت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرّغت فؤاده لحبك، ورغّبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك.. إلى آخر المناجاة».

ويصعب عليّ ان أقطع هذا المسلسل الذهبي من كلمات الإمام علي بن الحسين في الحب لله والوله بالله والهيام...

١٧- قلوب المؤمنين حدائق الشوق إلى الله:

إن قلوب عباد الله الصالحين وصدورهم (القلوب هي الصدور) حدائق تنبت منها أشجار الشوق إلى الله تعالى والأنس بالله.

يقول الإمام زين العابدين(ع): **«إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت (توشحت) أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم، فهم إلى أوكار الأفكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون، ومن حياض المحبة بكأس الملاطفة يكرعون، وشرائع المصافاة يردون، قد كُشف الغطاء عن أبصارهم، وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم وضمائرهم، وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم، وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم، وعذُب في معين المعاملة شربهم، وطاب في مجلس الأنس سرّهم، وأمن في موطن المخافة سربهم، واطمأنّت بالرجوع إلى ربّ الأرباب أنفسهم، وتيقّنت بالفوز والفلاح أرواحهم، وقرّت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، واستقرّ بإدراك السؤل ونيل المأمول قرارهم، وربحت في بيع الدنيا بالآخرة تجارتهم.**

إلهي ما ألذّ خواطر الإلهام بك على القلوب، وما أحلى المسير إليك بالأوهام في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبك، وما أعذب شرب قربك، فأعذنا من طردك وإبعادك، واجعلنا من أخصّ عارفيك، وأصلح عبّادك وأصدق طائعيك وأخلص عُبّادك» (مفاتيح الجنان/ مناجاة العارفين).

ولست أريد هنا الوقوف للتأمل عند هذه المناجاة التي هي رائعة من روائع أهل البيت(ع) في الدعاء والمناجاة، ولكن أودّ ان أقف قليلاً عند هذه الجملة التي يبدأ بها الإمام علي بن الحسين(ع) مناجاته:
⇐

⇐

«إلهي واجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم»، فإن صدور أولياء الله – كما يظهر من كلام الإمام – حدائق ذات بهجة، وذات ثمار طيبة، وإن صدور الناس على أنحاء: فمن الصدور مكاتب ومدارس للعلم، والعلم خير ونور، ولكن على ان يبقى الصدر حديقة للشوق إلى الله، ومن الصدور متاجر وبنوك وبورصات للمال تزدحم بالأرقام وجداول الإحصاء وحسابات الربح والخسارة، والمال والتجارة خير بشرط ان لا يكون الشغل الشاغل لقلب الإنسان وصدره، ولا يكون همّه الذي لا يفارقه ومن الصدور أراض سبخة بنت فيها الشوك والحنظل والسموم والأحقاد والصراع على المال والسلطان والكيد والمكر بالآخرين ومن الصدور ملاه وملاعب والدنيا لهوٌ ولعبٌ لطائفة واسعة من الناس.

ومن الناس مَن ينشطر صدره إلى شطرين: شطر للسموم والأحقاد والمكر والكيد، والشطر الآخر للهو وللعب فإذا أقلقه الشطر الأول وسلب راحته واستقراره لجأ إلى الشطر الثاني، واستعان باللهو لكي ينقذ نفسه من عذاب الشطر الأول.

وأما صدور أولياء الله، فهي حدائق الشوق ـ كما يقول زين العابدين ـ ذات بهجة وثمار طيبة. وقد ترسّخت فيها أشجار الشوق وامتدت فيها جذورها فليس الشوق إلى الله أمراً طارئاً يزول إذا ألحّ عليه الهوى أو أقبلت وتزينت له الدنيا، ولا يخفّ هذا الشوق، ولا تذبل أوراقه إذا ضاقت بصاحبه الدنيا، وتراكمت عليه الابتلاءات، فإن أشجار الشوق إذا كانت راسخة في هذه الصدور تبقى مورقة وخضراء ومثمرة رغم كل العقبات والمتاعب.

وحالة الشوق حالة خفة الروح، وهي حالة معاكسة للتناقل والركون إلى الدنيا التي تتحدث عنها الآية الكريمة **﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾** (التوبة: ٣٨).

إن النفس تثقل وتترهل كلما تعلق الإنسان بالدنيا ورضيها، وركن إليها فإذا تحرر من الدنيا ونزع نفسه *(ليس معنى التحرر من الدنيا تركها، فقد كان رسول الله‌صلى الله عليه وآله متحررا من الدنيا وهو يعمل لتمكين الدعوة من الدنيا وإخضاع الدنيا لها)* منها خف فجذبه حب الله تعالى والشوق إليه.

ولنقف عند هذا الحد من استعراض صور الحب والشوق والأنس من نصوص أدعية أهل البيت‌عليهم السلام ونصرف إلى غير ذلك من مباحث الحب الإلهي. (الدعاء عند أهل البيت‌عليهم السلام / للمؤلف ص ٢٥٣ – ٢٥٤).

١٨- القلوب المطمئنة:

يقول تعالى: **﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** (الرعد: ٢٨).

وهي تحصل بالإنابة والرجوع إلى الله، وذكر الله، فإذا أناب العبد إلى الله ورجع إليه، ولم يعرض عنه،

⇐

⇐

وذكَرَه، ولم يغفل عنه تعالى رزقه الله الاطمئنان في قلبه جزاء للإنابة والذكر.

وأتلو عليكم الآية من سورة الرعد قبلها وبعدها ليستقيم لنا فهم آية الرعد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ* الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٧ – ٢٨).

لقد طلب الكفار من رسول الله صلى الله عليه وآله ان ينزل الله عليه آية ليؤمنوا بها فيقول الله لهم أن الهداية والضلالة من الله، وليس بالآيات النازلة.. وأن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ثم يبين لهم أن مشيئة الله تعالى في هداية الناس وإضلالهم ليس اعتباطياً، وإنما هي سنة من سنن الله الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول فمن أناب إلى الله هداه الله ومن لم ينب ولم يعد إلى الله أضلّه الله... والذين أنابوا إلى الله وذكروا الله ولم يعرضوا عن الله ولم يغفلوا عنه تطمئن قلوبهم وتهبهم الطمأنينة في القلوب.

وهذه الطمأنينة التي يهبها الله تعالى للقلوب هي حالة السكينة والاستقرار النفسي، وهي حالة يتلقاها الإنسان إذا استقر ذكر الله في قلبه.. عند ذلك يطمئن إلى الله تعالى، لأنه يعلم أن كل شيء في هذا الكون في قبضة سلطان الله تعالى، ولا يخرج عن سلطانه شيء، وكل سبب آخر في الكون، كما يقول العلامة الطباطبائي(الميزان: ١١ / ٣٩٢) في تفسير الميزان غالب على شيء ومغلوب لشيء، إلاّ الله تعالى فهو الغالب القاهر فوق كل شيء، يقهر كل شيء، ولا يقهره شيء، ويغلب كل شيء ولا يغلبه شيء، فيطمئن إليه تعالى نفس الإنسان، ويزول عنه القلق والخوف، ويتوكل على الله، ويرضى بقضائه، ويفوض أمره كله إليه تعالى ويزول عنه القلق و وتستقر الطمأنينة في نفسه.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ) (الفتح: ٤).

وهذه السكينة طمأنينة القلوب.

وقد جاء في زيارة أمين الله، وهي من المتون الإسلامية الغنية بمعارف التوحيد: «**اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك، راضية بقضائك، مولعة بذكرك ودعائك، محبة لصفوة أوليائك، محبوبة في أرضك وسماءك... الخ**» إلى آخر الزيارة.

ونقرأ في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢) .

ولعل أحداً يسأل ان الوجل والخوف حالة مغايرة لحالة الطمأنينة وسكينة النفس والقرآن يصف كلا مهما من نتائج استقرار الذكر هي قلب الإنسان.

يقول صاحب مجمع البيان في الإجابة على هذا السؤال:

(وقد وصف الله المؤمن هنا بانه يطمئن قلبه إلى ذكر الله، ووصفه في موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وجل قلبه، لأن المراد بالأول أنه يذكر ثوابه وإنعامه وآلاءه التي لا تحصى وأياديه التي لا تجازى

⇐

⇒

فيسكن إليه، وبالثاني أنه يذكر عقابه وانتقامه فيخافه ويوجل قلبه... وهذا حث للعباد على تسكين القلب إلى ما وعد الله به من النعيم والثواب والطمأنينة إليه، فإن وعده سبحانه وتعالى صادق، ولا شيء تطمئن النفس إليه أبلغ من الوعد الصادق) (مجمع البيان ٦ / ٣٩، إصدار سنة ١٤١٧ / ١٩٩٧، مؤسسة الهدى).

وإذا رزق الله عبده الطمأنينة في قلبه استقر قلبه وسكن إلى مشيئة الله.

يقول تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ (الحديد: ٢٢ – ٢٣).

فلو عرف الإنسان ان كل ما يقع في هذا الكون من خير وسوء يقع بإذن الله، فلا يحزنه لما أصابه من سوء، لأنه يعلم ان ذلك جرى بإذن الله وعلمه، وهو أرحم الراحمين، لا يريد به شراً.

فلا يسوؤه ذلك، ولا يحزنه، إذا علم ان الله رحمن رحيم، رؤوف شفيق بعباده وإذا أصابه خير من عمل الله، فلا يتباهى ولا يصيبه الخيلاء والفرح ولا يغتر به، لأنه يعلم أن لا شأن له بذلك، وإنما هو من عند الله، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾.

١٩- تساقط حجب الشك عن القلوب:

في مناجاة المطيعين عن الإمام زين العابدينعليه السلام:

«**واكشف عن قلوبنا أغشية المرية والحجاب**».

والمرية هي الجدل، والحجاب قد يكون حجاب الشك والارتياب، وقد يكون حجاب الذنوب والمعاصي،وكل منهما حجاب.

وورد أيضاً فيما روي عن الإمام علي بن الحسينعليه السلام من المناجاة في مناجاة العارفين: «**قد كشف الغطاء عن أبصارهم، وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم ضمائرهم، وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم**».

وإذا تساقطت حجب الشك عن القلوب وقبلت القلوب على عبادة الله وذكره وطاعته، ولم يشغلها عن ذكر الله وعبادته شيء.. وهذه هي خاصية اليقين في القلوب.

عن إسحاق بن عمار، قال: سمعت الإمام الصادقعليه السلام يقول: إن رسول اللهصلى الله عليه وآله صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفراً لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه.

فقال له رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**كيف أصبحت يا فلان؟**» (في رواية أخرى أنه حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري).

⇐

مَالي كُلّما قُلتُ قَد صَلُحت سَريرتي[١]، وَقَرُبَ مِنْ مَجالس التّوابين مَجلسي عَرَضت[٢] لي بَليّة أزالتْ قَدمي وَحالت بَيني وَبين خِدمتك؟ سَيدي لَعلّك عَن

⇒

قال: أصبحت يا رسول الله موقناً. فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله، وقال: إن لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟

فقال: ان يقيني يا رسول الله، هو الذي أحزنني وأسهر ليالي، وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها..

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان. ثم قال له: ألزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن أُرزق الشهادة معك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يلبث ان خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر، وكان وهو العاشر. (الكافي/ كتاب الإيمان والكفر ، باب حقيقة الإيمان).

٢٠- قلوبهم حزينة

من خصائص المتقين غلبة الحزن على قلوبهم، وقد وصفهم أمير المؤمنين في الخطبة المعروفة بصفات المتقين برواية الشريف الرضي في نهج البلاغة:

«قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة.. أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم» (نهج البلاغة/ الخطبة ١٩٣ ، في صفات المتقين).

وإنما يحزنون لما يرون أنهم قد صرفوا أعمارهم في غير ذكر الله وطاعته، فيغلبهم الحزن والأسى.

ترى على وجوههم البشر وهم يختزنون الحزن في قلوبهم.

كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«المؤمن بُشره في وجهه، وحزنه في قلبه»**.

ويتحول هذا الحزن في قلوبهم إلى نور وبصر.

في وصية الإمام الباقر عليه السلام إلى جابر الجعفي رحمه الله:

«تخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجمام القلب، وتخلص إلى إجمام القلب بقلة الخطأ، وتعرض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق».

وهي ستة نقاط تستحق ان نتوقف عند كل واحدة منها طويلاً، لولا أننا قد أسهبنا في هذا التعليق.

(١) السريرة: النية. وطيب السريرة طيب القلب. وصلحت سريرتي أي صلحت نيتي وقلبي.

(٢) عرض لي عارض من الابتلاء دفعني عن مواقف طاعتك ومنعتني عن ذكرك، وأزالت قدمي عن

⇐

⇐

مواقع ذكرك وشكرك ودعائك واستغفارك، وحالت بيني وبين ذكرك وخدمتك.

والشواغل التي تحجب الإنسان عن الله، وتحول بينه وبين ذكر الله وطاعته وعبادته والإقبال عليه وخدمته كثيرة، ولكن أعظمها وأهمها الدنيا.

حجاب الدنيا

إن حجاب الدنيا هو أعظم حائل يحول بين الإنسان وبين الله، وهو شر الشواغل والحجب التي تحجب الإنسان عن الله جميعاً... كما يحجب السجن صاحبه عن الحركة والانطلاق. وكما يكون السجين حبيس السجن، كذلك الدنيا تحبس صاحبها وتحجبه عن الانطلاق والحركة إلى الله، كما يحبس السجن السجين ويحجبه.

وقد ورد في الدعاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «**ولا تجعل الدنيا عليّ سجناً، ولا تجعل فراقها عليّ حزناً**» (بحار الأنوار ٩٧ / ٣٧٩).

وهذا الحجاب يكمن في حب الدنيا والتعلق بالدنيا، وليس في ذات الدنيا.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أكبر الكبائر حب الدنيا**» (كنز العمال / ٦٠٧٤).

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً: «**حب الدنيا أصل كل معصية، وأول كل ذنب**» (تنبيه الخواطر ٢ / ١٢٢).

وهو حديث عجيب يستوقف الإنسان طويلاً.. فما من معصية إلاّ كانت جذورها الأولى ومبادؤها حب الدنيا.. وعن حب الدنيا يصدر كل ذنب.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**حب الدنيا رأس الفتن وأصل المحن**» (غرر الحكم / ٤٨٧٠).

ومعنى ذلك أن كل مصائب الإنسان نابع من حب الدنيا وبنفس المعنى والسياق عن الإمام الصادق عليه السلام: «**رأس كل خطيئة حب الدنيا**» (الكافي ٢/ ٣١٥. عن ميزان الحكمة ٣ / ١٢٠١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**رأس الآفات الوله بالدنيا**» (غرر الحكم / ٥٣٦٤).

وهو تأكيد وتعمق للمعنى السابق وهو: إنّ كل مصائب الإنسان ومحنه نابع من الوله بالدنيا.

الاشتغال بالدنيا والانصراف إلى الدنيا:

والتعلق بالدنيا على نحوين: الاشتغال بالدنيا (جزئياً) والانصراف الكامل إلى الدنيا، فقد تشغل الدنيا شطراً من قلب الإنسان واهتمامه وتفكيره وتعلقه، وقد تشغل الدنيا قلب الإنسان كله، وتحتله احتلالاً كاملاً، وتشغل كل اهتماماته، فلا يكون له همّ ولا شغل غير الدنيا.. وهذا هو الانصراف الكامل إلى الدنيا.

والأول من أمراض القلب الخطيرة.

والثاني موت وسقوط كامل للقلب.

أي الحالة الأولى حالة انشطار للقلب، ينشطر فيها القلب إلى شطرين، شطر منه للدنيا، والشطر الذي

⇐

⇐

يتعلق منه بالدنيا لا يكون لله البتة، والشطر الذي لا يتعلق بالدنيا لا يخلص لله البتة، فإن القلب إذا انشطر شطرين فقد خاصية (الإخلاص) و(التوحيد)، ولم يعد خالصاً لله تعالى، وهذا هو معنى قوله تعالى في سورة الأحزاب/ ٤ : ﴿ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ فإن خاصية القلب الانصراف الواحد والانشغال الواحد، فإذا تشطر القلب بين طرفين فقد خاصيته بالكلية. فقد جعل الله لكل إنسان قلباً واحداً، وجعل للقلب الواحد انصرافاً واحداً إلى الله، وهو معنى (التوحيد) و(الإخلاص)، فإذا تشطر القلب بين الدنيا وبين الله فقد القلب خاصيته الأصلية وهي الانصراف الكامل والانشغال الكامل بالله اغني (التوحيد) و(الإخلاص).

إن القلب السليم لا يحمل إلاّ تعلقاً واحداً وانصرافاً واحداً إلى الله، وولاءً واحداً لله وبراءة واحدة عن اعداء الله.

الشرك الخفي والكفر الخفي:

واما إذا تشطر فكان يحمل ولائين ورأيين في وقت واحد فقد الخاصية الأصلية للقلب، وهي وحدة الولاء لله والبراءة عن أعداء الله والانصراف الكامل إلى الله.. وهذا هو الشرك (الخفي) في مقابل الشرك الجلي الذي كان يمارسه الناس في الجاهلية في عبادة الأصنام.

ولكن إذا كان انشطار القلب بين الدنيا وبين الله من (الشرك الخفي)، فان الانصراف الكامل والانشغال الكامل للقلوب بالدنيا هو الكفر الخفي في مقابل الكفر الجلي بمعنى الإلحاد.

فكما أن الشرك على نحوين جلي وخفي، كذلك الكفر على نحوين جلي وخفي.

هذا الأخير من الكفر الخفي، حيث يغلق قلب صاحبه بالكامل بالدنيا، فتكون الدنيا كل همّه وشغله.. وهذا هو هلاك القلب وسقوطه.

والحالة الصحية الوحيدة للقلوب، هي الانصراف إلى الله والانشغال به، والولاء الواحد والبراءة الواحدة.. فيكون كل شغل آخر للقلب في امتداد اشتغاله بالله، وليس في عرضه، وكل هم آخر له في امتداد همّه الوحيد وهو الله، ويكون الله تعالى محور كل اهتماماته وحبه وتعلقاته... وهذا هو معنى التوحيد الخالص والإخلاص، وهو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

نتائج وآثار التعلق بالدنيا:

للتعلق بالدنيا على كل المستويات آثار ونتائج قهرية في حياة الإنسان.

منها: طول الأمل في الدنيا.

ومنها: الركون والاطمئنان إلى الدنيا.

ومنها: الاغترار بالدنيا.

⇐

⇐

والعلاقة بين التعلق بالدنيا وهذه الخصال الثلاثة علاقة طبيعية.. فإن الإنسان إذا أحب الدنيا وتعلّق بها يودّ أن تبقى له، ويحدث نفسه ببقائها له فيطول أمله في الدنيا، ويطمئن ويركن إليها.

وهذه جميعاً من مصاديق الاغترار بالدنيا.

أ - الاغترار بالدنيا:

والاغترار بالدنيا هو السبب في اطمئنان النفس إلى الدنيا وركونها إليها.

وقد نهانا الله تعالى عن الاغترار بالدنيا.

يقول تعالى: **﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾** (لقمان: ٣٣).

وأن الحياة الدنيا متاع الغرور، والدنيا غرارة خداعة يجب على الإنسان أن يحذر من الاغترار بها.

يقول تعالى: **﴿وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾** (آل عمران: ١٨٥).

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**ألا وأن الدنيا دار غرّارة خداعة**» (نهج السعادة ٣ / ١٧٤ . عن ميزان الحكمة ٣ / ١٢١٢).

وعنه عليه السلام أيضاً: «**فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها**» (بحار الأنوار ٧٣/ ١١٨).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في صفة الدنيا: «**تغرّ، وتضرّ، وتمرّ. إن الله تعالى لم يرضها ثواباً لأوليائه ولا عقاباً لأعدائه**» (نهج البلاغة/ الحكمة ٣٧٠).

وما أجمل وصف علي عليه السلام لها في إقبالها وإدبارها: «**إن أقبلت غرّت، وإن أدبرت ضرّت**» (بحار الأنوار ٧٨ / ٢٣ . عن ميزان الحكمة).

ب- الاطمئنان والركون إلى الدنيا:

وقد ذمّه الله تعالى في كتابه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ* أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (يونس: ٧ - ٨).

وكيف يطمأن العاقل إلى هذه الدنيا وهو يرى تقلبها يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة.

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**فربّ مستقبل يوم، ليس بمستدبره، ومغبوط في أول ليلة، قامت بواكيه في آخره**» (غرر الحكم/ ٢٥٧٢).

فكيف يطمأن الإنسان العاقل إلى هذه الدنيا، وهو يرى تقلباتها السريعة.

عن علي عليه السلام، في قوله تعالى: **﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: كان ذلك الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يرى الدنيا وتصرف أهلها حالاً بعد حال كيف يطمأن إليها؟**» (معاني الأخبار/ ٢٠٠، عن ميزان الحكمة).

ج - طول الأمل في الدنيا:

⇐

⇐

وهو أيضاً من نتائج التعلق بالدنيا وآثارها...

فإن الإنسان حينما يتعلق بالدنيا يحدث نفسه بثباتها له ويتحاشى أن يتذكر الموت، فيطول أمله في الدنيا، ويُخيّل إلى نفسه البقاء في هذه الدنيا طويلاً، وهذا هو (الأمل) الذي يُلهي الإنسان عن الله وعن الموت وعن الحساب والميزان يقول تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٣) .

فإذا طال أمل الإنسان في الدنيا ولم يتذكر الموت، ولم يفكر في الأعمال الصالحة التي يتزود بها لحياته ولا يسعى إليها، وتسوء أعماله، ويقسو قلبه، فإن العلاقة بين تناسي الموت وطول الأمل علاقة جدلية متبادلة نسيان الموت يؤدي إلى طول الأمل، وطول الأمل يؤدي إلى نسيان الموت.

في أصول الكافي مرفوعاً: قال فيما ناجى الله عز وجل به موسى: يا موسى، لا تطوّل في الدنيا أملك، فيقسو قلبك، والقاسي القلب مني بعيد).

وعن أمير المؤمنينعليه السلام:«**أطول الناس أملاً أقلهم عملاً**» (أصول الكافي ٢ / ٣٢٩).

وعنهعليه السلامأيضاً:«**أكثر الناس أملاً أقلهم للموت ذكراً**» (غرر الحكم / ٣٠٥٤).

الدنيا المذمومة والدنيا الممدوحة:

وقبل أن نفارق البحث عن (حجاب الدنيا) يجب ان نشير إلى أن الدنيا، ليست كلها مذمومة... ولم يحرم الله تعالى على الناس طيبات هذه الدنيا ورزقها:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢) .

والله يرزق الصالحين من عباده ثواب الدنيا والآخرة ويجمعهما لهم.

﴿فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٨).

عن أمير المؤمنينعليه السلام:«**اعلموا عباد الله، إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم.. أصابوا زهد الدنيا في دنياهم، وتيقّنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذة**» (نهج البلاغة/ الكتاب ٢٧).

وعن الإمام موسى بن جعفر الكاظمعليه السلام:«**اجعلوا لأنفسكم حظاً من الدنيا، بإعطائها ما تشتهي من الحلال، وما لا يثلم المروّة، وما لا سرف فيه، واستعينوا بذلك على أمور الدين، فإنه روي ليس منّا من ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه**» (بحار الأنوار ٧٨/ ٣٢١).

والفارق بين هذه الدنيا وتلك التعلق والزهد، والزهد بمعنى رفض التعلق. لأن الدنيا المذمومة هي الدنيا التي يتعلق بها الإنسان ويحبها ويعطيها ذات نفسه، والدنيا الممدوحة هي التي يتمتع بها صاحبها، دون ان يتعلق بها وهذا هو معنى (الزهد) في الدنيا... فليس الزهد هو الإعراض عن الدنيا،

⇐

⇐

وإنما الزهد هو التحرّر عن الدنيا.

عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**الاحر يدع هذه اللحاظة لأهلها. إنه لس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنة، فلا تبيعوها إلاّ بها**» (نهج البلاغة/ الحكمة ٤٥٦).

علاج حجاب الدنيا:

ولكي لا تشغل الدنيا صاحبها عن الله ولا تحجبه عنه تعالى نذكر هنا نقاطاً أربع على نحو الإجمال:

١- الزهد في الدنيا

وقد تحدثنا عن الزهد قبل قليل. وقلنا ليس معنى الزهد الإعراض عن الدنيا، وإنما معناه التحرر من الدنيا، والتخلص من أسرها وسلطانها، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في تعريف الزهد كلمة جامعة مقتبسة من كتاب الله: الزهد كلّه في كلمتين من القرآن. قال الله:«**﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾، فمن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فهو الزاهد**» (بحار الأنوار ٧٨ / ٢٧).

والأسى على ما فات الإنسان من الخير، والفرح بما أوتي منه هو معنى التعلق بالدنيا، والتحرر منها هو الزهد.

وإلى ذلك تشير كلمة أمير المؤمنين عليه السلام:

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام:«**ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال، ولا بتحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا أن لا يكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عز وجل**» (بحار الأنوار ٧٠ / ٣١٠).

وهي الأخرى كلمة بليغة في تحديد الزهد: إن الزهد هو أن لا تثق بما في يدك، يعني لا تطمئن ولا تركن إليه، بل يكون ثقتك وبركونك إلى ما في يد الله.

والطمأنينة والركون والثقة بالدنيا من تبعات تعلق النفس بالدنيا.. والزهد هو التحرر عن التعلق بالدنيا والاطمئنان والركون إليها.

٢- خلوص النية:

أن يجعل الإنسان سعيه في الدنيا في امتداد حركته وسعيه إلى الله، فيطلب وجه الله تعالى في كل حركته وسعيه في الدنيا ويوجه كل اهتماماته الدنيوية بهذه الوجهة.. وهو توجيه يصعب على الإنسان في بدايات الحركة، ولكنه إذا تحرك بهذا الاتجاه ويسهل عليه ذلك.

وقد كان بعضهم يعتذر إذا طلب منه شيء، لا تتهيأ له النية فيه، فيقول: لا تحضرني الآن النية، فإذا توفر للإنسان مثل هذا الخلوص في النية في كل حاجة وشأن من شؤون الدنيا، وتمكن الإنسان من إخلاص النية لله في سعيه في السوق والبيت وساحات السياسة والاجتماع، تحول سعيه في الدنيا إلى عبادة وحركة إلى الله.. وهو مكسب جليل لا يؤتاه إلاّ ذو حظ عظيم.

⇐

بابِـكَ طَردتنـي، وَعَـن خِـدمتك نَحّيتنـي، أو لَعلّـك رَأيتنـي مُـستخفّاً بحقّـك

⟹

عندئذ إذا سعى في السوق من أجل الرزق يجعل سعيه في السوق لله، ويراقب في سعيه حدود الله، وإذا جاهد الحكام الظالمين في الساحة السياسية، يجعل جهاده لله ولوجهه الكريم، وإذا برز للإعلام وتحدث يجعل ذلك كله لله، ويراقب في ذلك كله حدود الله، فيخلص في كل عمله وجهده وسعيه في الدنيا لله تعالى.

هذا هو خلوص النية لله، فلا يعل مع الله تعالى شريكاً في نيته في كل ما يقدم عليه أو يكف عنه.

٣- الاقتصاد في الدنيا

صحيح أن الله تعالى أحلّ طيبات هذه الدنيا لعباده، وأنكر على من يحرم ذلك على نفسه.. ولكن الإسراف في متاع الدنيا الحلال والإكثار من الدنيا يسلب الإنسان خلوص القصد والنية لله تعالى، ويحجبه عن الله بدرجة من الدرجات. وكلما كان حظ الإنسان أكثر من متاع الدنيا كان الحجاب أشد وأقوى.. فإن الدنيا على كل حال تشغل صاحبها، حتى لو كانت الدنيا من الحلال الذي أباحه الله تعالى لعباده.. وعندما يكثر الإنسان من متاع الدنيا تتحول علاقته بالدنيا إلى التعلق بالدنيا والحرص عليها بصورة تلقائية.

وهذه الحالة من الحالات التي ينقلب فيها الكم إلى الكيف، ويكون الإكثار من الدنيا سبباً لتحول علاقة الإنسان بالدنيا إلى ذلوله بها والحرص عليها وحبها.

ولذلك وردت في الأحاديث الإسلامية تأكيد على الاقتصاد في الدنيا والإقلال منها، والحذر من الإكثار منها.

عن جابر الأنصاري، قال: رأى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام وعليها كساء من أجلّة الإبل، وهي تطحن بيديها، وترضع ولدها فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «**يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة. فقالت: يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾** (نور الثقلين ٥ / ٥٩٤).

وأتي رسول الله من خبيص (نوع من الحلوى) فأبى أن يأكله، فقيل: أنحرّمه؟ قال: لا، ولكني أكره أن تتوق إليه نفسي، ثم تلا الآية: **﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾** (نور الثقلين ٥ / ١٥).

إن الإنسان إذا أقبل على طيبات الدنيا، بدون حدود وبلا حساب، تتوق نفسه إليها، فتشغله عن ذكر الله تعالى، شاء أم أبى، وينقلب ذلك إلى حجاب يحجبه عن ذكر الله.

إذن لكي يصفو للإنسان علاقته بالله وإقباله على الله يجب عليه ان يحذر من الإكثار من التعلقات التي تشدّه بالدنيا.

فَأقصيتني، أو لَعلّك رَأيتني مُعرضاً عَنك فَقليتني[١]، أو لَعلّك وَجدّتني في مَقام الكاذبين[٢] فَرَفضتني[٣]، أو لَعلّك رَأيتني غَير شَاكرٍ لِنعمائك[٤] فَحرمتني، أو

---

(١) قليتني: أي أبغضتني.

(٢) المعنى: ليس من صفاتك يا رب أن تحرم عبداً يقصدك، عن طاعتك، وتُردّهُ من بابك. فلعلّك لم تجدني أهلا لرحمتك فطردتني عن بابك، أو لعلّك وجدتني أستخف بحرمتك وحدودك فأقصيتني عن جنابك ورحمتك، أو وجدتني كاذباً في حبي لك، وإقبالي عليك، فرفضت حبّي وإقبالي، وأشغلتني عن حبك والانقطاع إليك بما يعرض لي من ألوان الابتلاء والانشغال.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: ٣).

فإنّ قلب العبد حيث يتعلق بغير الله من متاع الدنيا، وحيث يتمكّن منه الهوى وحبّ الدنيا، ولا يكون صادقاً في حبّه لله، لا يصلح محلاً لنور الله، ولا موضعاً لحبّه.

فإن محبة الله تعالى لا تحل في قلب يشوبه حبّ في غير الله، ولم يخلصه صاحبه لله. وعلى العبد في هذه الحالة أن يتضرع إلى الله ليوفقه في أن يخلص قلبه لحبّه، وينتزع عن قلبه كلّ حبّ في غير الله، وكلّ هوى يصرف العبد عن الله، حتى يحب في الله، ويبغض في الله، وهو من أسمى ما يناله العبد من الزلفى عند الله... والسياق كما ذكرنا سياق التعليم والتوجيه بلسان الدعاء.

(٣) أي لم تنصرني، وتركتني لنفسي.

(٤) ولعلّك إلهي وجدتني غير شاكر لنعمة هدايتك وحبّك وطاعتك فحرمتني منها، فإن هدى الله، والحب في الله، وطاعة الله، نعمة لا ينالها العبد إلاّ بتوفيق من الله، وحيث لا يحسن العبد أداء شكر هذه النعمة فإنّ الله تعالى يقطع عنه هذه النعمة.

ولعلّك إلهي وجدتني مقاطعاً لمجالس العلماء العارفين بالله، وآلفاً لمجالس البطّالين، فخذلتني وخلّيت بيني وبينهم. فإنّ مجالس العلماء تبعث الورع والخشية في نفس الإنسان، وتمنح القلب والعقل إيماناً ونوراً ووعياً.

يقول تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ (الكهف:٢٨). وحيث يترك الإنسان مجالسة العلماء العاملين العارفين بالله، ويألف مجالس البطّالين، ويأنس إلى حديثهم، تخلو حياته عن الاهتمامات العالية، وتنصبّ اهتماماته على الرخيص التافه من متاع الدنيا الذي يملأ حياة الفارغين من الناس.

ولعلّك أخذتني بجرمي وجريرتي وتقصيري في طاعتك فجازيتني بإقصائي عن حضرتك، وسلبت عني توفيق عبادتك.

أو لعلّك وجدتني قليل الحياء، وقحاً في ارتكاب معاصيك، يخجلني ارتكاب المعصية في حضور

⇐

لَعلّك فَقدتني مِنْ مَجالسِ العُلماءِ فَخذلتني، أو لَعلّك رَأيتني في الغَافلين فَمن رَحمتك آيستني، أو لَعلّك رَأيتني آلف مَجالسِ البطّالين[1] فَبيني وَبَينهم خلّيتني،

⇒

آخرين من أمثالي، ولا أتورع عن معصيتك ومخالفتك بحضرتك، وأنا أعلم أن ليس يخفى شيء من إسراري وإعلاني عليك. فإنّك عالم السر والخفيات. وليس شيء أدعى من ذلك عَلى أن أستحي من معصيتك وأتورع عن محارمك.

فلعلّك إلهي لمثل هذا وذاك سلبت عن قلبي حبّك، وطردتني من بابك، ولم تحب أن تسمع دعائي، وأقصيتني عن رحمتك، ولم تشرح صدري لمناجاتك ودعائك. والسياق كما قلنا سياق التوجيه والتعليم بلغة الدعاء.

(١) البطالة: فراغ الاهتمامات ويتبع فراغ الاهتمامات فراغ الوقت بطبيعة الحال...

وليس كل شغل واهتمام في حياة الإنسان ممدوح، وإنما الاهتمام والشغل الممدوح هو الاهتمامات العالية التي تتطلبها الحركة إلى الله.. وهذه الاهتمامات تتوزع على الدنيا والآخرة. وقد يكون سعي الإنسان في الدنيا، (في السوق والمزرعة والمعمل) جزءاً من هذه الاهتمامات العالية، وذلك عندما يقصد الإنسان أن يؤمّن السوق والمزرعة حركته إلى الله ويكون جزءاً من حركته التكاملية.

وليس كل شغل واهتمام يضع الإنسان على هذا الخط الصاعد إلى الله.

وأما إذا كان اهتمامه لا يتجاوز حاجاته الحيوانية، التي يحتاجها كل حيوان من أي فصيل من الشراب والطعام والجنس، فلا تزيد قيمة هذا الإنسان على الحيوان.

وإنما قيمة الإنسان بما يؤمن به من القيم ما يحمل من الاهتمام في تصحيل هذه القيم وما يقوم به من الجهد لتحقيق هذه الاهتمامات، ومن دون ذلك لا قيمة له.

لا قيمة لمن كان كل همّه بطنه وشهوته، ولا قيمة لمن لا اهتمام به، ويقضي عمره في فراغ من الاهتمامات، وكل منهما بطالة إلاّ أن الأولى بطالة مقنّعة بالعمل والثانية بطالة مكشوفة.

ولدى هؤلاء البطالين: الوقت مشكلة، لا يعرفون كيف يتخلصون منه. هؤلاء يعانون من مشكلة تصريف الوقت فالوقت لديهم كثير وطويل، ولا يعرفون طريقاً لتصريف الوقت. وهمّهم قتل الوقت كيفما يتأتى لهم، والتخلص منه بأي شكل، فإن الوقت الفارغ عن العمل يمر ثقيلاً على صاحبه، فيحاول أصحابه قتل الوقت باللهو والبطر وأحياناً قتل الوقت بالجريمة.. وعلى كل حال، الوقت الفارغ عند هذه الطبقة مفسدة في حياتهم وفي حياة المجتمع.

وإذا كان العمل والجهد في حياة الإنسان مَجْهدة فإن الفراغ مفسدة.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أشد الناس حساباً يوم القيامة المكفيّ الفارغ. إن كان الشغل مجهدة فالفراغ**

⇐

⇒

مفسدة» (تنبيه الخواطر ١ / ٦٠. عن ميزان الحكمة ٨ / ٣١٩٢).

عن أمير المؤمنينعليه السلام:«**إن يكن الشغل مجهدة فاتصال الفراغ مفسدة**» (بحار الأنوار ٧٧/ ٤١٩).

والله تعالى يبغض العبد الفارغ عن العمل والاهتمام، قد خلقه لاهتمامات وغايات سامية، فيقضي حياته ووقته في فراغ، لا يعرف كيف يصرف وقته وعمره.

عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**إن الله يبغض الصحيح الفارغ، لا في شغل الدنيا، ولا في شغل الآخرة**» (شرح نهج البلاغة ١٧/ ١٤٦ عن ميزان الحكمة ٨ / ٣١٩٢).

وعن موسى بن جعفرعليه السلام: «**إن الله يبغض العبد النوّام. إن الله تعالى ليبغض العبد الفارغ**» (من لا يحضره الفقيه ٣ / ١٦٩).

وبعكس البطالين الفارغين من الاهتمام والعمل.. المؤمنون العاملون، الوقت عندهم قليل، وهو حافل بالأعمال والاهتمامات الكبيرة.. وإذا كان الوقت لدى الطائفة الأولى مشكلة، فإنه عند هذه الطائفة أزمة لا يكفي لاهتماماتهم وأعمالهم الكبيرة.. ومن دعائهم أن يجعل الله تعالى أوقاتهم بذلة في طاعته.

ففي دعاء الإمام زين العابدينعليه السلام:«**وعمّرني ما كان عمري بذلة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل ان يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ**» (الصحيفة السجادية، الدعاء العشرون).

ومن دعائهعليه السلام، كما في الصحيفة:«**واستعملني بطاعتك في أيام المّهلة**» (الصحيفة السجادية، الدعاء العشرون).

وفي الدعاء الذي علّمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام لكميل:«**أسألك بحقك وقدسك، وأعظم صفاتك، وأسمائك ان تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة، وبخدمتك موصولة، وأعمالي عندك مقبولة، حتى تكون أعمالي وأورادي كلها ورداً واحداً، وحالي في خدمتك سرمداً**» (دعاء كميل ، كتب الأدعية).

إن الوقت هو رأس مال الإنسان، فإذا صرف الإنسان وقته وعمره في طاعة الله اكتسب برأس ماله رضوان الله ورحمته في الدنيا والآخرة، وإذا خسر وقته في الفراغ والبطالة فقد خسر نفسه، وأعظم الخسائر ان يخسر الإنسان نفسه، لأن عمر الإنسان ووقته هو كل رأس ماله، فخسارته خسارة لنفسه.

يقول تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾.

إن الناس - كل الناس - في خسارة، وكل ساعة تمرّ عليهم يفقدون شطراً من أعمارهم.. وهذه هي الخسارة التي تعم الجميع ﴿وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ولا يسلم من هذه الخسارة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ

⇐

أو لَعلّك لَمَ تُحب أنْ تَسمعَ دُعائي فباعدتني، أو لَعلّك بجُرمي وَجريرتي كَافيتَني، أوْ لَعلّك بقلّة حَيائي منك جَازيتني.

فَإنْ عَفوتَ[(١)] يَا رَبّ، فَطالما عَفوتَ عَنْ المُذنبينَ قَبلي، لأنّ كَرَمك أي رَبّ يَجلّ عَن مَكافاة المُقصّرينَ، وَأنا عَائذ بِفَضلكَ[(٢)]، هَاربٌ منْكَ إليكَ، مُتنجّزٌ[(٣)] مَا

⇒

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. أولئك يعمرون أعمارهم بالإيمان، والعمل، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فلا يخسرون أنفسهم وأعمارهم.

وللإمام زين العابدين عليه السلام دعاء في هذا الأمر ورد في الصحيفة: **«اللهم صل على محمد وآل محمد، واكفني ما يشغلني الاهتمام به، واستعملني بما تسألني غداً عنه، واستفرغ أيامي فيما خلقتني له»**.

وهو ثلاث فقرات.

في الفقرة الأولى يسأل الله تعالى ان يكفيه ما يهمه ويشغل باله من شؤون الدنيا، حتى لا تبقى الدنيا همّه وشغله.

وفي الفقرة الثانية يسأل الله تعالى ان يستعمله فيما يسأله عنه، يوم يوقف الله الإنسان للسؤال عند موقف السؤال والحساب ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾، ولا يستعمله فيما لا يعود عليه بالنفع في موقف السؤال.

وفي الفقرة الثالثة يسأل الله تعالى ان يفرغه ويفرغ وقته لما خلقه الله تعالى، فيستفرغ وقته وعمره للحركة على مسير التكامل والعروج إلى الله تعالى.

(١) فإذا كنت، سيدي، قد سلبت عني توفيق ذكرك ومناجاتك والانقطاع إليك فلأنني أنا لم أكن أستحق منك هذا التوفيق، وفرّطت في حقّ نفسي، وظلمت نفسي، واتبعت هواي، وعصيتك بوقاحة وقلّة حياء. ولكنني، مع ذلك أرجو من كرمك وعفوك، أن تعفو عن تقصيري وظلمي وإسرافي، وتهب لي رحمتك وهديك وتوفيقك. فطالما عفوت إلهي عن تقصير المقصّرين مثلي، وعن إسراف المسرفين من قبلي، ومهما بلغ ذنوبنا وتقصيرنا فإنّ كرمك وعفوك أسمى من أن يأخذ المذنبين بذنوبهم، وحلمك أكبر من أن يكافئ المقصّرين عَلى تقصيرهم وإسرافهم.

(٢) وإذ لا أملك في محنتي هذه من ملاذ غيرك، فأنا ألوذ بك وأعوذ بفضلك. وإذ ليس للعبد من ملجأ يفر إليه من عقوبتك وانتقامك، فأنا أفرّ منك إليك، وألجأ إلى فضلك من عدلك، إلى عفوك من عقوبتك. وأين يهرب العبد الذي أسرف عَلى نفسه، إن لم يلجأ إلى كرمك وعفوك ورحمتك. يقول تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات: ٥٠).

(٣) أنجز الحاجة أو الوعد: قضاه. والصفح: العفو والإعراض. ومتنجّز ما وعدت من الصفح: أي

⇐

وَعدتَ مِنْ الصّفح عَمّنْ أحْسَنَ بكَ ظَناً[١].

إلهي أنتَ أوسَعُ فَضلاً، وَأعظمُ حِلْماً مِنْ أن تُقايِسْني بِعَمَلي[٢]، أو أنْ تَستزِلّني[٣] بِخَطيئتي، وَما انا يا سَيدي وَما خَطري؟[٤] هَبني بِفضلك[٥]، سَيدي،

⇒

أطلب إنجاز ما وعدتنا من الصفح والعفو عمّن أحسن بك ظنّاً.

(١) قد مرّ أنّ الله تعالى يعطي العبد عَلى قدر ظنّه به تعالى. فمن أحسن ظنه بالله، فإنّ الله لا يخيّب له ظنّاً.

(٢) تقايسني بعملي. أي تقدّرني بعملي، وتهبني من رحمتك بقدر ما أستحقّه من عملي. والمعنى أن الله أوسع فضلاً وأعظم حلماً من أن يقدّر منزلة العبد لديه وما يهبه من رحمته وكرمه بما يستحقّ بعمله فإنّ الله تعالى أرحم الراحمين، غفور كريم، واسع العطية، جليل الألطاف.

(٣) الزلل: الزلق والانحراف. وتستزلني: أي تطلب زللي. والمعنى أنّ الله أوسع فضلاً وأعظم من أن يجازي العبد بخطيئته وزلله، فيدفعه إلى مزالق الهلكة والانحراف.

وليس من شك أنّ الله تعالى يجازي العبد المسيء الذي يتمرّد عَلى أمره تبارك وتعالى بإمداده في الطغيان، وتضليله، وتحريفه، ليستحق مزيداً من عقوبة الله وعذابه. يقول تعالى: ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧)، ويقول تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة:١٠)، ويقول تعالى: ﴿اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة:١٥)، كما أنّ العكس أيضاً صحيح فإن العبد إذ يستجيب لأمر الله، ويخالف هواه، فإن الله تعالى يزيده هدى، ويربط عَلى قلبه. يقول تعالى في قصّة الفتية من أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى* وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾. والإمام السجاد عليه السلام يعلّمنا في هذه الجملة من الدعاء أن ندعو الله تعالى بواسع فضله وعظيم حلمه أن لا يجازينا عَلى سوء أعمالنا بإمدادنا في الطغيان والانحراف وأن لا يستزلّنا بخطيئتنا، وإنما يسددنا في حياتنا، ويعيننا عَلى إغواء الشيطان وأهواء النفس.

(٤) وما خطري: أي وما قيمتي وقدري. والمعنى: وما قدري وقيمتي إلهي حتى تجازيني عَلى فعلي، وتنتقم مني. فأنا لست بشيء يذكر تجاه عظمتك وكبريائك، وسلطانك، فما قدري، وما قدر ما يصدر عنّي من خطيئة وذنب، فتجاوز يا رب عن خطيئة عُبيد فقير، لا يملك حولاً ولا طولاً، وأنت ذو القوة والكبرياء، ولك الأمر كله والسلطان كلّه.

(٥) هبني بفضلك: أي اعطني من عفوك ورحمتك، فتجاوز عنّي وعن خطيئآتي. وجلّلني بسترك أي

⇐

وَتَصدّق عَليّ بِعفوكَ، وَجلّلني بِستركَ، وَاعفُ عَنْ تَوبيخي بِكرمِ وَجهكَ.

سَيدي أنا الصّغير الذي ربّيته[1]، وَأنا الجّاهل الّذي عَلّمته، وأنا الضّال الّذي

⇐

استرني بسترك، واستر عَلى ذنوبي وتقصيري وخطيئآتي، ولا تفضحني بما تعرف عني من ذنب وتقصير في الدنيا والآخرة. واعف عن توبيخي: أي اعفني عن التوبيخ، فلست أطيق توبيخك، فضلاً عن عذابك وعقوبتك، وأملي في كرم وجهك وكريم ألطافك أن لا تخجلني، وتحرج موقفي، يوم القيامة، بتوبيخك، فلست أملك عذراً لتقصيري، فأعتذر إليك، ولست أجد مهرباً منك فأهرب عنك.

(١) الخط النازل والصاعد في العلاقة المتبادلة بين الله وعباده:

في هذه الكلمات سياقات ثلاثة في علاقة الله بعبده، وعلاقة العبد بالله.

وهذه السياقات الثلاثة ترسم العلاقة المتبادلة بين الله وعباده في ثلاث خطوط: الخط النازل في علاقة الله بعباده، والخط الصاعد في علاقة العباد بربهم، والخط الثالث في العلاقة المزدوجة بين الله وعبده.

ففي الخط النازل وهو في رحمة الله بعبده ورعايته له وإحسانه إليه ومغفرته ورزقه وهدايته وتعليمه له، نقرأ:

(سَيدي أنا الصّغير الذي ربّيته، وَأنا الجّاهل الّذي عَلّمته، وأنا الضّال الّذي هَديته، وَأنا الوَضيعُ الّذي رَفَعته، وَأنا الخائفُ الّذي آمنته، والجّائعُ الّذي أشبعته، وَالعَطشان الّذي أرْوَيتَه، وَالعاري الّذي كَسَوته، وَالفقير الّذي أغْنيتهُ، وَالضّعيفُ الّذي قُوّيته، وَالذّليل الّذي أَعززته، وَالسّقيم الّذي شَفيته، وَالسّائل الّذي أعْطَيته، وَالمذنبُ الّذي سَترته، وَالخاطئُ الّذي أقَلتهُ، وَأنا القَليل الّذي كثّرته، وَالمُستضعفُ الّذي نَصرته، وَأنا الطّريد الّذي آويته). هذا في الخط النازل.

ونقرأ في الخط الصاعد من هذه العلاقة، في علاقة العبد بربه:

(أنا يَا رَبُّ الّذي لمَ أستحيك في الخَلاء، وَلمَ أُراقبكَ في الملاء. أنا صَاحب الدّواهي العُظمى، أنَا الّذي عَلى سَيده اجْتَرأ، أنا الّذي عَصَيتُ جبّار السّماء، أنا الّذي أعطيتُ عَلى مَعاصي الجّليل الرُشى، أنَا الّذي حينَ بُشّرت بها خَرجْتُ إليها أسعى).

ونقرأ في الخط الثالث في العلاقة المزدوجة بين الله وعبده في خط صاعد نازل في جملة واحدة:

«أنَا الّذي أمهلتني فَما ارعَويتُ، وَسترتَ عَليّ فَما اسْتحييتُ».

هذه ثلاثة خطوط في العلاقة المتبادلة بين الله تعالى وعباده.

ورحم الله العارف الذي كان يقول:

«إلهي، الحمد لله لكل ما ينزل إلينا من عندك ونستغفر الله لما يصعد إليك منا».

وهذه الكلمة توجز العلاقة المتبادلة بين الله وعباده.

⇐

⇒

إن الذي ينزل إلينا من جانب الله رحمة، وفضل، وإحسان، وعفو، ومغفرة، وتوفيق، وتأييد، ورزق، وجميل من أياديه.. وما لا أطيق إحصاءه من أنحاء فضله ورحمته بعباده.

وما يصعد من عباده إليه ذنوب، ومعاصي، وآثام، وموبقات يرتكبها العبد.

فهما سنخان مختلفان متعاكسان من العلاقة، وأقل ما يقال في هذه العلاقة المتخالفة عدم الوفاء لله تعالى في أياديه الجميلة بعبده.

وأعظم ما يقال فيه جرأة العبد على مولاه ومخالفته وعصيانه له.

ولا يزال الله تعالى يواصل على عبده الرحمة، والفضل، والنور، والهداية، ولا يزال العبد يرفع إلى الله السيئات، والمعاصي، والذنوب.

فما أجمل إحسانه إلينا!

وما أقبح سيئاتنا إليه!

وإنه لمن المفيد للإنسان أن يجعل أمامه هذه اللوحة في العلاقة المتبادلة بينه وبين ربه ليستحيي من ربه، ويحاول أن يعدّل سلوكه بما يناسب رحمة الله تعالى وفضله إليه، ولئلاّ يدخله العجب إذا قام بين يدي الله بركعتين أو أنفق من ماله برهمين لله.

مقام الاعتراف:

الخط الصاعد في علاقة العبد بالله، هو مقام الاعتراف بين يدي الله.

واستمع إلى جمل الاعتراف بين يدي الله تعالى من الإمام زين العابدينعليه السلام:**«أنا يَا رَبّ الّذي لَمَ أستحيك في الخَلاء، وَلَمَ أُراقبكَ في الملاء. أنا صَاحب الدّواهي العُظمى، أَنَا الّذي عَلى سَيده اجْتَرأ، أنا الّذي عَصَيتُ جبّار السّماء...»**.

هذه جمل من الاعتراف بين يدي الله، يعلمنا الإمام علي بن الحسينعليه السلامفي هذا الدعاء الجليل.

ويتساءل البعض: ما جدوى الاعتراف بين يدي الله؟ فإن الله تعالى عالم بما جنى العبد على نفسه، قبل هذا الاعتراف، ويذكر ما ينساه العبد من جنايته.

والجواب: أن الاعتراف بين يدي الله ينفع العبد المعترف نفسه بين يدي الله.

يُذكّره بذنوبه وسيئاته وجرأته على مولاه، ويُحسّسه بصغاره وذلّ موقفه بين يدي الله، ويُشعره بالاستحياء من الله.

إن العبد يعصي الله تعالى بحضوره، والله تعالى لا يغيب عن شيء من سيئاتنا وآثامنا، وهو حاضر في الكون كله، فإذا أدرك العبد هذه الحقيقة واستذكر ذنوبه وسيئاته بحضور الله استحيى من عند الله، وندم على ما صدر منه من السيئات، وعزم على الكف منها فيما يستقبل من حياته.. وهذه المقامات جميعاً (الحياء، الندم، التوبة، والعزم على الكفّ عن الذنب) منازل الرحمة الإلهية في حياة الإنسان.

⇐

⇒

بين مقامات العبودية ومنازل الرحمة:

إن في حياة الإنسان مقامات للعبودية وهذه المقامات هي منازل رحمة الله، تحل فيها الرحمة الإلهية. ومن هذا القبيل مقام الاعتراف، ومقام الندم، ومقام الاستحياء من الله، ومقام التوبة، ومقام الخوف والرهبة من عند الله..

هذه المقامات هي مقامات العبودية... وكل مقام من هذه المقامات مطابق منزلاً من منازل رحمة الله. وبين مقامات العبودية ومنازل الرحمة والقرب إلى الله تناسباً طردياً، فكلّما يكون مقام العبد أكثر تمثيلاً لذلّ العبودية وصغارها بين يدي الله يكون أقرب إلى الله وإلى منازل رحمة الله.

نقرأ في دعاء الأسحار في شهر رمضان، برواية الشيخ الطوسي رحمه الله هذه اللوحة الرائعة لمقامات العبودية.

«يا رب هذا مقام العائذ بك من النار.

هذا مقام المستجير بك من النار.

هذا مقام المستغيث بك من النار.

هذا مقام الهارب إليك من النار.

هذا مقام من يبوء لك بخطيئته، ويعترف بذنبه، ويتوب إلى ربه.

هذا مقام البائس الفقير.

هذا مقام الخائف المستجير.

هذا مقام المحزون المكروب.

هذا مقام الغريب الغريق.

هذا مقام المستوحش الفرق.

هذا مام من لا يجد لذنبه غافراً غيرك».

وهذه المقامات كلها من مقامات العبودية بين يدي الله:

مقام اللجوء إلى الله، والاستجارة به.

مقام الاستغاثة والهروب إلى الله.

مقام الاعتراف والتوبة.

مقام البؤس والفقر بين يدي الله.

مقام الخائف من الله المستجير بالله.

مقام الغريب الغريق.. الخ.

وهذه المقامات جميعاً تجعل الإنسان في منازل رحمة الله.

⇐

⇐

منازل الرحمة:

إن رحمة الله تعالى في إفاضة ونزول مستمر ودائم من خزائن رحمته، والدعاء والاستغفار والصلاة لا تثير رحمة الله تعالى.

فهي في إفاضة دائمة ومتصلة ومستمرة لا تنقطع ولا تتوقف، ولا تحتاج إلى عامل للإثارة والإفاضة.

ونحن لا نستثير رحمة الله بدعائنا، ولا نرققه علينا ونستعطفه بضعفنا وانكسارنا، وسبحانه وتعالى أجل من أن نرققه ونستثيره نحن بدعائنا وضعفنا واستكانتنا بين يديه.

ولكننا بالدعاء والانكسار والتذلل بين يديه، نضع أنفسنا في منازل هبوط رحمته ومغفرته ورزقه وكرمه.

ولنضرب لذلك مثلاً.

فقد يستخرج أحد الماء من الأرض، فيحفر الأرض، ويصل إلى المياه الجوفية داخل الأرض، فيرتوي من الماء ويسقي زرعه وأنعامه منه.

وقد لا يكون الأمر كذلك، وإنما يجري الماء على الأرض على مسافة، فيسعى طالب الماء إلى مشرعة الماء ليرتوي منه، ويأخذ معه أنعامه إلى الماء ليسقيها الماء، ويزرع الأرض على شواطئ الماء ليسقيها.

وبين الأمرين فرق.. في الحالة الأولى هو يستخرج الماء من الأرض حيث هو وزرعه وأنعامه، وفي الحالة الثانية يسعى هو إلى الماء حيث مشرعة الماء، ويأخذ معه أنعامه وزراعته.

ومثلنا في ابتغاء رضوان الله ورحمته هو الثاني، وليس الأول، وأنّ الدعاء والصلاة، والتذلل، والانكسار بين يدي الله، والخضوع، والإخبات، والتوبة، والإنابة، إنما هي حركة في داخل النفس إلى منازل رحمة الله، حيث تهبط رحمة الله على عباده.

وليس على عباد الله إلاّ أن يعرفوا منازل رحمة الله فيقصدونها.

ومنازل رحمة الله تختلف من منزل إلى منزل، فهناك منازل تهطل فيها الرحمة، كالشلاّل الهادر، أو ما هو أعظم من ذلك، وهناك منازل للرحمة تنزل فيها الرحمة كما ينزل المطر الغزير، كأفواه القرب، وهناك منازل للرحمة دون ذلك.

وهناك منازل بعيدة عن رحمة الله، ولا نقصد بها المنازل الزمانية والمكانية، وإنما نقصد بها المنازل النفسية، وسوف يأتي توضيح ذلك إن شاء الله.

ولنضرب على ذلك مثلا للتوضيح، عاجلاً قبل ان ندخل تفاصيل الموضوع.

إن الرحمة تنزل على المواضع النفسية الهابطة والواطئة، ولا تنزل على المواطن النفسية المستعلية والناتئة، كما يجري الماء على المواضع الواطئة من الأرض، ولا يصعد إلى النقاط المرتفعة والناتئة.

⇐

⇐

فتنزل الرحمة على مواطن الفقر إلى الله، ووعى الفاقة إلى الله، ومواطن الذلّ، والانكسار، والإخبات، والندم، والاستغفار، والحياء من عند الله، وهي جميعاً تمثّل المواضع الواطئة والهابطة من النفس.

ولا تنزل الرحمة الإلهية على مواطن الاستكبار، والاستعلاء، والطغيان، والأنانية في نفس الإنسان.

فإذا أقبل الإنسان على الله تعالى مستكيناً، مستغفراً، منيباً، مقراً، مذعناً حلّ في منازل رحمة الله، وإذا أقبل الإنسان على الله تعالى مستكبراً، معتدّاً بنفسه، يتخيّل الاستغناء عن الله (أن رآه استغنى)، ويحمل معه (الأنا) و(الأنانية)، ويداخله العجب والغرور، فلا يبلغ منازل رحمة الله.

مثل آخر:

إن المطر ينزل من السماء فينزل على الصخور الصلبة، وسرعان ما ينحسر عنها، وتعود الصخور إلى الجفاف والنضوب، وينزل المطر على التربة الهشة فينفذ فيها المطر، ويمتص المطر، وسرعان ما تتفجّر عليها العيون، وتجري عليها، وتخضرّ الأرض، وتنبت عليها الأشجار المثمرة والأزهار، والرياحين.. وليس في نزول المطر شُحّ، وإنما البأس كل البأس في منازل نزول المطر.

وكذلك الأمر في رحمة الله، إن الرحمة تنزل على الناس جميعاً، فتستقبلها النفوس المؤمنة والقلوب الرقيقة، وترفضها النفوس الملحدة والمشركة، والمنافقة، والقلوب القاسية الغليظة.

«إننا إذا استغفرنا الله تعالى، ودعونا الله، لا نقصد بذلك أن نرقق الله تعالى ونسترحمه لحوائجنا، فهو سبحانه: رحمان، رحيم، رؤوف، شفيق على عباده، ولكننا نبتغي من ذلك أن نسترق (من الاسترقاق بمعنى طلب ترقيق النفس) نفوسنا، ونشعرها بالحياء من عند الله والانكسار، والتضرع، والإنابة، والندم، لتحل فيها رحمة الله، (فإنّ الله في القلوب المنكسرة)» (هذا مضمون حديث ولا تتوفر لدي الآن المصادر اللازمة لاستخراج هذا الحديث).

ونقصد بذلك أن نضع أنفسنا في مواطن الضعف والعجز والفقر والإخبات إلى الله، وهي المواطن النفسية الواطئة لتنزل عليها رحمة الله، ونبعّدها من مواطن الاستعلاء، والاستكبار، والعجب، والغرور، البعيدة عن مواطن رحمة الله.

إن رحمة الله هابطة، باستمرار واتصال، ولكنها تتجه إلى مواطن العجز، والفقر، والرقة، والفاقة، والانكسار، والندم، والحياء من عند الله في نفس الإنسان، ولا تنزل على مواطن الغرور، والاستكبار، والعجب، والقسوة، والأنانية في نفس الإنسان.

وعلى الإنسان أن يسعى لتحقيق هذه المنازل داخل نفسه.

النقاط الثلاثة في منازل الرحمة:

ولابد لهذا الإيجاز من شرح، وسوف نشرح إن شاء الله منازل الرحمة ضمن ثلاث نقاط:

١- نزول الرحمة. ٢- منازل الرحمة. ٣- ابتغاء الرحمة.

⇐

⇒

١- نزول الرحمة:

لم نستحدث نحن كلمة نزول الرحمة، وإنما اقتبسناها من القرآن الكريم.

فقد استخدم القرآن هذه الكلمة في مواضع متعددة وفي موارد عديدة من أبواب رحمة الله.

ولم تختص كلمة النزول في القرآن بموارد الرحمة المادية المحسوسة، كالماء، والمطر، والحديد، والأنعام.

وإنما تشمل الموارد المادية للرحمة والموارد غير المادية وغير المحسوسة من الرحمة.

وسوف نورد نماذج من تلك وهذه يقول تعالى:

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاء مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ (الأنفال: ١١) .

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقاً﴾ (غافر: ١٣).

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ (الشورى: ٢٧) .

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ١٧).

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر: ٦) .

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً﴾ (الأعراف: ٢٦)

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ (الحديد: ٢٥)

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾ (النبأ: ١٤)

كما يستعمل القرآن النزول في موارد الرحمة غير المادية، يقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح: ٤)

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح: ٢٦)

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤)

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾ (النساء: ١٧٤)

﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (الأنعام: ٩٢)

﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ﴾ (الأنعام: ١٥٥)

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ (الأنبياء: ٥٠)

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ (فصلت: ٣٠)

والآية التي هي كالقانون لكل نزول للرحمة هو آية الحجر:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١)

هذه الرحمة الإلهية النازلة، تنزل على الجميع من غير انقطاع، تنزل على المؤمن، والكافر، والمشرك، والجاحد، والإنسان، والحيوان، والنبات، وعلى الكون كله.

⇐

⇒

وهذه هي الرحمة الرحمانية التي تعم الجميع، المؤمن، والمشرك، والجاحد، والكافر، والصالح، والفاسق، والإنسان، والحيوان، والنبات.. كالماء والمطر، والحديد، والأنعام، والصحة، والسلامة، والرزق، والعلم، (والهداية العامة).

وهناك الرحمة الرحيمية التي تخص المؤمنين، كالمعرفة، والإخلاص، والتقوى، والمغفرة، والقرب، و(الهداية الخاصة)، والنور، واليقين...

ولسنا نتحدث عن الرحمة الرحمانية فإنها رحمة عامة تعم الجميع المؤمن والكافر، والمشرك، والفاسق، والإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد.. وهي ايضا متصلة ولها منازل ومداخل.

ولقد نقرأ في الدعاء الذي يألفه المؤمنون في شهر رجب بعد صلوات الفريضة.

«يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله، ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة)... أقول: لا نتحدث عن الرحمة الرحمانية، وإنما نتحدث عن الرحمة الثانية: مثل العفو، والمغفرة، والتوبة، والهداية، والنور، والبصائر، والمعرفة، واليقين، والتوفيق، والتسديد، والإيمان، والإخلاص، والخلوص، والرضا ﴿رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، والحب ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾، والذكر ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ..﴾ إلى سائر أبواب الرحمة، وهي كثيرة.

هذه الأبواب من الرحمة مفتوحة على أهلها جميعاً... إلاّ أن لها منازل في حياة الناس. فمتى طلبها الإنسان من منازلها، وجعل نفسه عند منازلها نال من رحمة الله تعالى، بمقدار ما يقرب من منازلها ويحل فيها.

٢- منازل الرحمة:

ونقصد بمنازل الرحمة المواضع التي تهبط فيها الرحمة... وأعظم هذه المنازل أربعة:

١- المنازل الزمانية، مثل يوم عرفة، ليلة الجمعة، ليلة النصف من شعبان، شهر رمضان، ليلة القدر، ليلة الرغائب.. وما يشبه ذلك .. ولا شك إن رحمة الله تعالى هابطة على عباده في كل زمان.

ولكن لهذه الليالي والأيام خصوصية وامتياز في نزول رحمة الله.. وقد ورد في فضل شهر رجب: إن رحمة الله تعالى تصب فيه على عباده صباً، ولذلك يقال له: (رجب الأصب).

والعارفون بمنازل رحمة الله، يعرفون هذه المنازل، ويطلبون رحمة الله فيها.

٢- المنازل المكانية، لا يخلو مكان من رحمة الله، ولكن لطائفة من المكانات خصوصية في نزول رحمة الله تعالى فلا توجد في غيرها، مثل البيت الحرام، والمساجد الواقعة من ركن الحجر الأسود، ومقام إبراهيمعليه السلام (بين الركن والمقام) والصفا، ومسجد رسول اللهصلى الله عليه وآله وروضته، ومسجد الكوفة، والحائر الحسيني، والمساجد...

المحور الزماني والمكاني: وقد يقترن الزمان والمكان مع بعض مثل وادي عرفة يوم عرفة بعد الزوال

⇐

⇐

إلى الغروب.

ولا سبيل لنا إلى أن نتعرف على هذه الازمنة والأمكنة، إلاّ من طريق الوحي.

٣- الأحوال: وهي مواطن لرحمة الله داخل النفس الإنسانية، مثل حالة الإنكسار (إن الله في القلوب المنكسرة)، وحالة الدعاء والمناجاة، وحالة الرقة والبكاء، وحالة الاخلاص، وحالة التقوى، وحالة التضرع والإنابة والإخبات بين يدي الله، وحالة الاضطرار والانقطاع إلى الله... ولا شك ان هذه الاحوال داخل النفس البشرية مواطن رحمة الله.

٤- الأعمال، مثل جهاد العدو، والصلاة، والصلاة جماعة، وتجمعات المواطنين الراشدة، والسجود، والإنفاق، وطلب العلم، والسعي إلى الرزق في الأسواق، فإن هذه الأعمال إذا كانت موصولة بالأعمال من مواطن رحمة الله تعالى..

٣- ابتغاء الرحمة وانتهازها في منازلها

إن عباد الله العارفين بقيمة هذه المنازل في حياة الإنسان، يسعون إلى معرفة هذه المنازل، ويراقبونها لئلاً تفوتهم هذه المنازل، وينتهزونها ويعرفونها، كما ينتهز التجار فرص البيع والشراء ويعرفون مواضعها في الأسواق، ويعرفون مواطن الرحمة ومنازلها، ويراقبونها، وينتهزونها، ويبادرون إليها، هؤلاء هم الذين يحظون بأبواب رحمة الله تعالى، ويستثمرون أعمارهم أفضل الاستثمار.

وقد قرأت كتاباً لأحد العرفاء العارفين بمواطن رحمة الله باسم (مراقبات السنة) (المعارف للتبريزي)، يذكر مواطن رحمة الله في أيام السنة، ويذكّر المؤمنين بمراقبة هذه الفرص لئلاّ تفوتهم.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إن لله في دهركم هذا نفحات ألا فتعرضوا لها».

وقليل من الناس من يعرف قيمة هذه النفحات الربانية في حياة الناس وينتهزها.

وقد ورد أن أمير المؤمنين عليه السلام: اسْتَشْهَدَ الفجر في اليوم الذي ضربه اللعين عبد الرحمان بن ملجم: إن كان قد رآه نائماً في مثل هذا الوقت.

إن هذه الليالي والأيام يعيشها عامة الناس، وليس لأحد على آخر امتياز في ذلك، ولكن من الناس من يعرف منازل الرحمة فيها ويراقبها، وينتهزها، ومن الناس من لا يعرف قيمة هذه الساعات والليالي والأيام، فتفوته فيها فرص الرحمة الإلهية، ونفحات الرحمة الربانية.

يوجد في مدينة النجف مسجد بقرب مرقد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يعرف بمسجد (الهندي)، ولا أعتقد أن فقيهاً وعالماً وطالباً من طلبة العلوم الدينية درس في النجف ولم يحضر شطراً من دروسه في هذا المسجد الشريف...

وكان هذا المسجد ولا زال حافلاً بعشرات الحلقات وحلقات الدراسة والبحث العلمي، وتقام فيه

⇐

⇐

أوسع الجماعات، وقد قضيت في هذا المسجد شطراً من حياتي الدراسية في النجف... فهو حقاً مسجد مبارك... وقد بلغني ان مؤسس هذا المسجد عندما أراد ان يضع حجر الأساس لهذا المسجد طلب من الحاضرين أن يتقدم لوضع الحجر الأساس شخص لم تفته فريضة الفجر في عمره أداءً أبداً، فأحجم القوم عن التقدم إلاّ مؤمن صالح من الهند تقدم إلى وضع حجر الأساس وقال: إنه لم تفته فريضة الفجر في عمره منذ عرف الصلاة إلى هذا اليوم أبداً.

فعرف المسجد باسمه منذ ذلك الحين.

وقد أدركت في مدينة (علي الغربي) في العراق شيخاً في التسعينات من عمره (هو السيد عبد السلام الموسوي، وكان إمام جماعة في جامع علي الغربي توفي(رح))..

وكان صائماً أيام شهر رمضان، وقال لي: إنه لم تفته صيام شهر رمضان منذ ان بلغ سن البلوغ إلى اليوم، ولم يسافر أيام شهر رمضان لئلاً يفوته صيام هذا الشهر الشريف.

هذه الساعات والأيام والليالي محدودة في عمر الإنسان، وإذا فاتت الإنسان فرصة من هذه الفرص فلا تعود إليه مرة أخرى.

عن رسول الله(ص): «**من فتح له باب من الخير فلينتهزه، فإنه لا يدري متى يغلق عنه**» (كنز العمال / ٤٣١٣٤).

وعن انتهاز الفرصة قال رسول الله(ص):

«**اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**» (كنز العمال/ ٤٣٤٩).

روى الآمدي عن غرر الحكم عن أمير المؤمنين(ع):

«**انتهزوا فرص الخير، فإنها تمر مر السحاب**» (غرر الحكم للآمدي)

وعنه(ع) برواية الآمدي:

«**الفرصة سريعة الفوت، بطيئة العود**» (غرر الحكم للآمدي)

وعن أمير المؤمنين(ع): «**عباد الله، الآن، الآن، قبل الندم، ومن قبل ان تقول نفس: ﴿يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾**» (الكلمة في غرر الحكم، والآية الكريمة من سورة الزمر/ ٥٦)

مراقبة منازل الرحمة ومزالق الشيطان:

إن على الانسان مراقبتين:

١- مراقبة منازل الرحمة.

٢- ومراقبة مزالق الشيطان.

المراقبة الأُولى: هي الانتباه إلى منازل الرحمة في حياة الإنسان وانتهازها، وقد تحدثنا عنها.

⇐

هَديته[١]، وَأنا الوَضيعُ الّذي رَفَعته، وَأنا الخائفُ الّذي آمنته، والجّائعُ الّذي أشبعته، وَالعَطشانُ الّذي أرْوَيتَه، وَالعاري الّذي كَسَوته، وَالفقير الّذي أغْنيتهُ، وَالضّعيفُ الّذي قُوّيته، وَالذّليل الّذي أعززته، وَالسّقيم الّذي شَفيته، وَالسّائل الّذي أعْطَيته، وَالمذنبُ الّذي سَترته، وَالخاطئُ الّذي أقَلتهُ[٢]، وَأنا القَليل الّذي كثّرته[٣]، وَالمُستضعفُ الّذي نَصرته، وَأنا الطّريد الّذي آويته.

⇒

والمراقبة الثانية: مراقبة مزالق الشيطان، فإن السلطان يكمن في طريق الإنسان إلى هذه المنازل بـ (الغفلة) و(النسيان)، والجهل)، و(الإهمال)، و(الكسل)، و(الاسترخاء)، و(التسويف).

فيفوّت هذه الفرص على الإنسان.

وللشيطان نوع آخر من المزالق، في منازل الرحمة، وهي مزالق العجب والرياء اللذين يحبطان العمل الصالح حبطاً كاملاً، ويخرجانه من دائرة التوحيد إلى دائرة الشرك والغرور.

(١) الإنسان، من دون ان يعلمه الله، لا يعلم شيئاً، ومن دون ان يهديه الله، لا يهتدي، ومن دون ان يشعره الله لا يدرك ...

فان الإنسان وعاء للعلم والمعرفة، ومن غير ان يعلمه الله لا يعلم شيئاً.

يقول تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾يعني مكّنه من ان يتعلم، وهذا التمكين من عند الله.

يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ فهو وعاء للعلم، والله تعالى هو الذي يمكنه من ان يتلقى العلم، وسخر له من يعلمه

والإنسان وعاء للهداية، وأما الهداية فانه من عند الله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾.

وعلى العموم لا يقوى الإنسان على شيء الا بالله (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة) وهذه حقائق المعرفة، وينبغي ان لا تحجبنا من هذه الحقائق الأسباب المادية في العلم والمعرفة والهداية والقوة بعد الضعف.

(٢) أقال الله عثرته: أي أنهضه من سقوطه. والمعنى أنا الخاطئ الذي أنهضته من عثراته، ورفعته عن كبواته، وأخذت بيده عند السقوط والهلاك.

(٣) أنا العديم الذي أوجدته، والقليل الذي كثرته. كنت قليلاً في كل شيء، في علمي وقوتي ورزقي وعلاقاتي، وكرامتي، وعبادتي، وذكري، وفهمي ... فكثرتني في كل ذلك، ومن قبل كنت عديماً، فأوجدتني ... دون استحق منك الإيجاد بعد العدم، والتكثير بعد القلة.

وأنا القليل الحقير الذي وهبته الكثير من رحمتك، فجعلت له شأناً وقدراً، بعد أن كان لا شأن له.

⇐

⇐

ولولا أن أرجو كرمك وعفوك عني، وسترك عليّ، إلهي، لم يسعني أن أسألك، لما تعرف عن تقصيري وخطيئاتي، ولكنك عودّتني على فضلك وكرمك ورحمتك من قبل، حيث لم أكن شيئاً، ولم يكن لي شأن. وهذا هو الذي يجرّؤني عَلى مسألتك، وطلب رحمتك، مع ما تعرف عني، وأعرف من نفسي من تقصير وذنب. فهذه آلاؤك ونعماؤك تكتنفني، وتحيطني، دون أن أستحق شيئاً من ذلك.

فأنا الضعيف الذي لم يقو عَلى شيء، فربّيته وقوّيته، ووهبته حولاً وقوّة. وأنا الجاهل الذي لم أكن أعرف شيئاً، ولا أعي أمراً، فمنحتني علماً وفهماً، وألهمتني وعياً ودركاً. فإن الله تعالى هو الذي يفتح مغاليق أبواب المعرفة والعلم عَلى عباده، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣٦)، وهو الذي يفيض عَلى عباده علم ما لم يكونوا يعلمون، ويلهمهم الوعي والمعرفة، يقول تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (الفلق: ٥)، وأنا الضالّ الذي هديتني، وألهمتني الهداية والإيمان. يقول تعالى في الامتنان عَلى نبيّه وحبيبه صلى الله عليه وآله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ (الضحى: ٧)، ولولا أنّ الله تعالى منّ علينا بالهداية والإيمان، وأنار لنا الطريق وفطر نفوسنا عَلى الإيمان لم يكن أحد يهتدي الطريق، ويسلم عن السقوط والانحراف، يقول تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾.

وأنا الوضيع الحقير الذي رفعت له شأناً، ونشرت له بين الناس ذكراً حسناً.

وأنا الخائف الذي كان يخاف عَلى نفسه الهلاك، فآمنته من الهلاك ومن العذاب، وطمأنته برحمتك، وأذهبت عنه الخوف والحزن، يقول تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢)

وأنا الجائع الذي أطعمته من نعمك، والعطشان الذي أرويته بفضلك، والعاري الذي كسوته من رحمتك، فخلقت له طعاماً ليشبع جوعه، وشراباً يروي ظمأه، ولباساً يواري سوأته، ويكسو جسمه من الحرّ والبرد، واكتنفته برحمتك ونعمتك.

وأنا الفقير الذي لا أملك شيئاً، فأغنيته من فضلك، ووهبته من رحمتك ما يغنيه عن الحاجة إلى غيرك. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥). وأنا الضعيف الذي لم أكن أقدر عَلى شيء، فقوّيته، وجعلت له من بعد ضَعف قوّة. يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم من ضَعْفٍ﴾ (الروم:٥٤)

وأنا الذليل الذي أسبغت عليه من عزّتك ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾، وأنا السقيم الذي برأته من سقمه، والسائل الذي أجزلت له العطاء، فأغنيته وكفيته، والمذنب الذي سترته بسترك، فلم تفضحه بين الناس بما تعلم ويعلم من جرمه وجريرته، والخاطئ الذي أقلته من عثراته، وأنهضته عن كبواته، وسدّدت له خطواته، والقليل الذي لم يكن له شأن، فجعلت له شأناً، ولم يكن له ذكر وقدر، فوهبته

⇐

أنا يَا رَبّ الّذي لمَ أستحيك[١] في الخَلاء، وَلمَ أُراقبكَ في الملاء. أنا صَاحب الدّواهي العُظمى، أنَا الّذي عَلى سَيده اجْترأ، أنا الّذي عَصَيتُ جبّار السّماء، أنا الّذي أعطيتُ عَلى مَعاصي الجّليل الرُشى[٢]، أنَا الّذي حينَ بُشّرت[٣] بها خَرجْتُ إليها أسعى، أنَا الّذي أمهلتني فَما ارعَويتُ[٤]، وَسترتَ

⇒

قدراً وذكراً بين الناس حسناً، والمستضعف المقهور الذي أخذت بيده، فنصرته، وقوّيته، والطريد الذي لم يكن يجد مأوى عند احد، فآويته وأكرمته ﴿الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدين* وَالَّذي هُوَ يُطْعمُني وَيَسْقين* وَإِذَا مَرضْتُ فَهُوَ يَشْفين* وَالَّذي يُميتُني ثُمَّ يُحْيين* وَالَّذي أَطْمَعُ أَن يَغْفرَ لي خَطيئَتي يَوْمَ الدِّين﴾ (الشعراء: ٧٨ – ٨٢).

(١) لم أستحيك: أي لم أستحي منك. والدواهي جمع داهية بمعنى المصيبة والأمر المنكر. والمعنى: أنا الذي عصيتك في خلواتي، فلم أستحي منك وخرجت عن حدودك، في الملاء بين الناس، فلم أراقب سلطانك عليّ، وأعلنت عصيانك بين أولئك الذين لا يستحون الله في موبقة ومعصية، يقول تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ منَ النَّاس وَلاَ يَسْتَخْفُونَ منَ اللّه وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٨)، وأولئك هم الذي يتكتمون عن الناس ما يصنعون من قبيح وجرم، ويستحيون الناس، ولا يستحيون الله تعالى فيما يعملون من معصية، وهو معهم في الخلاء والملاء. والسياق سياق تعليم وتوجيه لما ينبغي ان يخاطب الله تعالى به عباده المذنبون ... وكأنّ الإمامعليه السلام في هذه الفقرات يُعلم المذنبين العاصين من عباد الله، كيف يتكلمون مع الله؟ ... وعلى هذا النحو من التذلل والتضرّع يناجي العبد ربه ...

ثم يتذكر العبد ما جرّ عَلى نفسه من مصائب في معصية الله، في الخلاء، والملاء، فيقول في تضرّع وانكسار: أنا صاحب الدواهي العظمى، أي: أنا الذي جرّ عَلى نفسه في معصيتك المصائب، واجترأ عَلى سيده ومولاه، فتمرّد عَلى أمره وخرج عن حدوده. أنا الذي غرّتني نفسي فعصيت جبّار السماء. ويا له من داهية أن يعصي الإنسان جبار السماوات والأرض.

(٢) الرشي: جمع الرشوة، وهو ما يدفعه الإنسان لإبطال حق، أو لإحقاق باطل. والمعنى أنا الذي سعيت إلى معصيتك وبذلت الجهد والمال في مخالفتك.

(٣) وحين بُشّرت بالمعصية، وتيسّرت لي أسبابها بما بذلت من جهد ومال خرجت إليها أسعى، كمن يسعى إلى غنيمة فاز بها.

(٤) ارعوى : ارتدع. والمعنى: أنا الذي أمهلتني، ولم تعاجلني بالعقوبة لعلي اتوب وارتدع ... فلم ارتدع.

وارعوى: رجع عن جهله وكفّ عنه. والمعنى: طالما أمهلتني يا رب وأخّرت عقوبتي وعذابي حتى

⇐

عَلَيَّ[١] فَما اسْتحييتُ، وَعَملتُ بالمعاصي فَتعديتُ، وَاَسْقَطْتَني[٢] مِنْ عَيْنِكَ فَما بالَيْتُ. فَبِحِلْمِكَ اَمْهَلْتَني[٣] وَبِسِتْرِكَ سَتَرْتَني[٤]

⇐

أكفّ عن جهلي، فلم أرجع عن جهلي، ولم أكفّ عن مخالفتك ومعصيتك.

(١) وسترت عَلى ذنوبي، ولم تفضحني بين الناس فلم أستحي منك، وعملت بالمعاصي حتى تعديت كلّ حدّ.

(٢) إن الله كريم يكرم عباده، فإذا تمادى العبد في الذنوب أسقطه الله من عينه، فيعرض عنه، ويلمس العبد هذا الإسقاط كما يلمس التكريم. فإذا أخذ العبد ذلك مأخذ الاهتمام وتدارك ذنوبه بالتوبة والاستغفار استعاد موقعه من الحب والتكريم من الله، وإذا تمادى في غيه وضلاله فهو ممن لا يبالي بهذا الإسقاط، ولا يعود إلى موضع التكريم من مولاه.

(٣) الإمهال غير الإغفال، والله تعالى يمهل عبده ولا يعجّل بعقوبته ليكون له الحجة البالغة في عقوبته وعذابه، لئلا يقول العبد لو أمهلتني لرجعت وتبت.

ويستر الله على عبده فلا يفضحه، وينهى عن فضحه، لعله يعود إلى ربه بماء وجهه وكرامته التي أعطاه الله تعالى وأكرمه بها.

والله تعالى ستّار يحب الستر، ويستر عباده حتى من ملائكته الموكلين به أحياناً.

عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

«إن المؤمنين إذا اعتنقا غمرتهما الرحمة، فإذا التزما لا يريدان عرضا من أعراض الدنيا، قيل لهما: مغفور لكما، فاستأنفا، فإذا أقبلا على المسائلة، قالت الملائكة بعضهم لبعض تنحّوا عنهما، فإن لهما سراً، وقد ستر الله عليهما.

قال اسحاق ـ راوي الحديث ـ فقلت: جعلت فداك، ويكتب عليهما لفظهما، وقد قال الله تعالى: ما يلفظ عن قول إلاّ لديه رقيب عتيد.

قال: فتنفس أبو عبد الله عليه السلام الصعداء، ثم بكى، وقال: **يا اسحاق، إن الله تعالى إنما أمر الملائكة ان تعتزل المؤمنين إذا التقيا إجلالا لهما، وإنه إن كانت الملائمة لا تكتب لفظهما ولا تعرف كلامهما، فإنه يعرفه ويحفظه عليهما عالم السر وأخفى)** (معالم الزلفى للمحدث البحراني/ ٣٤)

إنّ الحليم لا يستعجل في العقاب. والله تعالى حليم يمهل العبد لعله يعود إلى ربه فيعفو عنه.

(٤) بحلمه يمهل الله تعالى عبده وهو على المعصية، فلا يعجّل له العقوبة، وبستره يستر عبده، فلا يفضحه بين الأشهاد.

حَتّى كَأَنَّكَ اَغْفَلْتَني [١]، وَمِنْ عُقُوباتِ الْمَعاصي جَنَّبْتَني حَتّى كَأَنَّكَ اسْتَحْيَيْتَني [٢].

اِلهي لَمْ اَعْصِكَ حينَ عَصَيْتُكَ وَاَنَا بِرُبُوبِيَّتِكَ جاحِدٌ [٣]، وَلا بِاَمْرِكَ مُسْتَخِفٌّ،

---

(١) وليس الله تعالى بغافل عن ذلك. تعالى الله علواً كبيراً من الغفلة، ولكنه حليم ستار غفار، فيخال للإنسان أن الله تعالى أغفله.

(٢) إن العبد قد لا يستحيي من الله، فيعصيه بحضرته وهو يسمعه ويراه.

ومن عجب ان الله يستحيي من عبده، وينهى عباده ان يكشف بعضهم الستر عن البعض إذا عرف منه سوءاً أو قبيحاً، والعبد لا يستحيي من ربه.

وجزاء العبد الذي لا يستحيي ربه ويرتكبه بحضرته قبائح الأعمال ان يكشف عنه الستر، ويفضحه ويعاجله بالعقوبة، ولكن الله يستره، وهو يعصيه، ويمهله، حتى كأنه أغفله، وهو ليس بغافل، وكأنه استحيى عبده ان يواجهه بذنوبه.

وهذا من أعجب العجب ان العبد لا يستحيي مولاه، فيرتكب أقبح الذنوب بحضرته، وهو يراه ويسمعه، ويستحيي مولاه ان يعاجله بالعقوبة، ويتغاضى عنه، وكأنه قد أغفله.

﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (الأحزاب: ٥٣) . والمؤمنون لا يستحيون من الحق **﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾** (المائدة:٥٤). ولكن الله عفوٌ، غفورٌ، رحيم، ستار، يعفو عن عباده، فيخال الإنسان أن الله يستحيي منه.

(٣) لم يكن عصياني عن جحود وإلحاد. فلا يدخلني هذا العصيان في الجاحدين والمنكرين. ولم يكن عن طغيان واستكبار، واستهتار بأمرك، ولا جرأةً عليك، وتعرضاً لعقوبتك، ولا استهانة بوعيدك. وبذلك يبقى العبد في دائرة الإيمان، والعبودية، والصغار والضعة بين يدي الله فلماذا إذن يرتكب الذنوب؟

يقولؑ عنهم: **«ولكن خطيئة عرضت، وسوّلت لي نفسي)، يعني: وقع الذنب مني في غفلة من غفلاتي. وكأنما استغفلني الخبيث في لحظة من لحظات الغفلة. فلم انتبه لنفسي إلاّ بعد أن سقطت في المعصية»**.

وقد يعصي العبد ، ولكن ليس تمرداً واستكباراً على الله، ولا جحوداً لله، واستخفافاً بامره وحكمه، واستهانة بمخالفته وعقوبته ... وإنما عن هوى غالب، وتسويل للنفس وثقة بستر الله وكرمه وعفوه، وشتان بينهما، إن المعاصي من النوع الأول انتهاك لحرمات الله، وجرأه على الله، وتنافي موقع العبودية، واستكبار وطغيان ومآل هذه المعاصي الكفر وتكذيب آيات الله **﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾**.

⇐

وَلا لِعُقُوبَتِكَ مُتَعَرِّضٌ، وَلا لِوَعِيدِكَ مُتَهاوِنٌ، لكِنْ خَطِيئَةٌ عَرَضَتْ وَسَوَّلَتْ لي نَفْسي [(١)]، وَغَلَبَني هَوايَ، وَاَعانَني عَلَيْها شِقْوَتي [(٢)]، وَغَرَّني سِتْرُكَ الْمُرْخى عَلَيَّ [(٣)].

فَقَدْ عَصَيْتُكَ وَخالَفْتُكَ بِجَهْدي [(٤)]، فَالاْنَ مِنْ عَذابِكَ مَنْ يَسْتَنْقِذُني [(٥)]؟ وَمِنْ اَيْدي الْخُصَماءِ غَداً مَنْ يُخَلِّصُني؟ وَبِحَبْلِ مَنْ اَتَّصِلُ اِنْ اَنْتَ قَطَعْتَ حَبْلَكَ عَنّي؟ فَواسَوْاَتا عَلى ما اَحْصى كِتابُكَ مِنْ عَمَلِيَ [(٦)] الَّذي لَوْلا ما اَرْجُو مِنْ كَرَمِكَ وَسَعَةِ

⇒

وليست العقوبة من النوع الثاني كذلك انها زلة في لحظات غفلة وسلطان الهوى وغلبتها على الانسان... هذا صحيح وتوجيه حسن للذنوب. ولكن على العبد ان يحذر ان يقع في معصية الله، مهما كان التوجيه لانها تؤدي الى الكفر والتكذيب بايات الله في العاقبة، ويمكن الشيطان منه.

(١) أي زينتها لي نفسي وجمّلتها، فلم انتبه لقبحها، وخفيت عليّ قبحها، وغلب هواي عقلي.

(٢) الشقاء من صنع الإنسان، فلم يخلق الله تعالى إنساناً شقياً قط، ولكن الإنسان هو الذي يسعى إلى الشقاء بنفسه.

فإذا شقي الإنسان دفعه شقاؤه إلى معصية الله، وكأن شقاءه يعينه على معصية الله، ويفتح له أبواب المعاصي، كما أنّ سعادة الإنسان وتوفيقه يفتح له أبواب الطاعة.

(٣) والله تعالى يستر عباده، وهم على معصيته. ولكن لا يجوز للإنسان أن يجعل ستر الله تعالى على عباده ذريعة للاسترسال في الذنوب، فيغرّه ستر الله المرخى على عباده على معصيته، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: ٦).

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (الإنسان مغرور بالستر عليه، ومستدرج بالإحسان إليه).

(٤) يعني سعيت إلى معصيتك بجهدي وإرادتي وإجرامي وليس لي من عذر اعتذر به.

(٥) فقد وقعت المعاصي مني على أيّ حال، ولا سبيل للإنكار والتبرير والتوجيه.

والآن ما العمل؟ وما الحيلة للتخلص من عقابك وعذابك؟ ومن يخلصني من أيدي الخصماء الذين وكلتهم بي ليحصوا عليّ ذنوبي والذين أمرتهم أن يسوموني سوء العذاب؟

إلى من ألجأ إن أعرضت عني، وبحبل من أتصل للنجاة من عذابك إن قطعت حبلك عني. ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ (هود: ٦٣) . وإلى من التجأ إذا كان الله تعالى وملائكته خصومي يوم القيامة.

(٦) فيا فضيحتي ويا حسرتي على ما أحصى كتابك من سيئات الأعمال. وأن هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا

⇐

رَحْمَتِكَ وَنَهْيِكَ اِيّايَ عَنِ الْقُنُوطِ لَقَنَطْتُ عِنْدَما اَتَذَكَّرُها، يا خَيْرَ مَنْ دَعاهُ داعٍ[1]، وَاَفْضَلَ مَنْ رَجاهُ راجٍ.

اَللّـهُمَّ بِذِمَّةِ الإسلامِ اَتَوَسَّلُ اِلَيْكَ[2]، وَبِحُرْمَةِ الْقُرْآنِ اَعْتَمِدُ اِلَيْكَ، وَبِحُبِّيَ النَّبِيَّ

⇐

مَال هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ (الكهف: ٤٨)

فواسوأتاه، ويا فضيحة العبد إذا أعطي كتابه بشماله، وقد أحصوا عليه سيئاته التي ارتكبها في حياته، ونساها ولم ينسها الله، ولم يستغفر الله منها.. وليس له سبيل إلى التخلص منها أو إنكارها.

وقد يجد الإنسان نفسه أقرب شيء إلى القنوط من نفسه وخيره وأعماله، لولا أن الله تعالى ينهاه عن القنوط عن رحمته. ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ (الزمر: ٥٣)

ولولا رجاؤنا العظيم بالله وسعة رحمة الله وجميل عطائه وجوده وكرمه لغلبنا اليأس، ولكن الله أرحم الراحمين.

إن أعمال الإنسان لصيقة به يوم القيامة لا تفارقه وهي عنوانه الذي يلازمه. ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً* اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (الإسراء: ١٣ – ١٤) . فإذا كانت صفحة الإنسان سوداء بالسيئات والذنوب فلا يرجو الإنسان خيراً من نفسه وعمله، ولا يبقى أمامه إلاّ أن يرجو رحمة الله التي لا ييأس عنها ولا يقنط منها إلاّ الأشقياء وقد نهانا الله تعالى عن القنوط عن رحمته مهما كانت سيئات أعمالنا.

(١) لا أحد يدعوه الإنسان خير من الله تعالى إطلاقاً، ولا أحد يرجوه الراجون أرجى منه تعالى على الإطلاق. وهذا هتاف تمهيدي للتوجه إلى الله تعالى بالدعاء، وها هو زين العابدين (عليه السلام) يقبل على الله تعالى بالدعاء والتضرع ويفتح بهما أبواب رحمة الله تعالى.

(٢) قد أمرنا الله تعالى أن نبتغي إلى الله الوسيلة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾، المائدة/ ٣٥، ومن أفضل الوسائل التي يتخذها الإنسان إلى الله (ذمة الإسلام) و(حرمة القرآن) و(حب رسول الله صلى الله عليه وآله).

وللإسلام ذمة وهي الأمان من عذاب الله تعالى.. ومن يعمل بالإسلام يتعهد له الإسلام بالأمان من عذاب الله وعقابه.. وهذا هو ذمة الإسلام وعهده للإنسان.

وللقرآن حرمة ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (الواقعة: ٧٧ ـ ٧٨)، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ* فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١ ـ ٢٢)، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١)

⇒

الأُمِّيَّ الْقُرَشِيَّ الْهاشِمِيَّ الْعَرَبِيَّ التّهامِيَّ الْمَكّيَّ الْمَدَنِيَّ اَرْجُو الزُّلْفَةَ لَدَيْكَ، فَلا تُوحِش اسْتِيناسَ ايماني [١]، وَلا تَجْعَلْ ثَوابي [٢] ثَوابَ مَنْ عَبَدَ سِواكَ، فَانَّ قَوْماً آمَنُوا بِاَلْسِنَتِهِمْ لِيَحْقِنُوا بِه دِماءَهُمْ فَاَدْرَكُوا ما اَمَّلُوا، وَإنّا آمَنّا بِكَ بِاَلْسِنَتِنا وَقُلُوبِنا لِتَعْفُوَ عَنّا، فَاَدْرِكْنا ما اَمَّلْنا، وَثَبِّتْ رَجاءَكَ فِي صُدُورِنا، وَلا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ اذْ هَدَيْتَنا، وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً اِنَّكَ اَنْتَ الْوَهّابُ.

فَوَعِزَّتِكَ لَوِ انْتَهَرْتَني ما بَرِحْتُ مِنْ بابِكَ [٣]، وَلا كَفَفْتُ عَنْ تَمَلُّقِكَ، لِما اُلْهِمَ

⇒

ولرسول الله صلى الله عليه وآله محبة في قلوب المؤمنين، وها هنا نتوسل إلى الله في هذا الدعاء بهذه الحرمات الثلاثة: ذمة الإسلام، وحرمة القرآن، وحب رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) الإيمان بالله يهب نفس الإنسان إنساً وطمأنينة وسكوناً ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

وهذا الأنس يحسّ به الإنسان المؤمن في فطرته ونفسه، وهو من أعظم نعم الله تعالى على عباده المؤمنين، ومن أعظم بركات الإيمان. وهذا الأنس بالله والسكينة النفسية إلى الله يمنح الإنسان استقراراً نفسياً وطمأنينة في أشد الظروف وأقساها، فلا يقلق، ولا يرتبك، ولا يشعر بالغربة والوحشة، مهما كانت الظروف.

ولماذا الوحشة والغربة والارتباك؟ وهو يحس بمعية الله تعالى له، وأنه بعين الله وسمعه، وأنه يذكره ولا ينساه، ويرعاه ولا يهمله. فإذا حُرِمَ الإنسان (أُنس الإيمان) ضعف في مواجهة الاحداث الصعاب، وأسرع إليه القلق والاستيحاش. وهذا هو أول دعاء في هذا المسلسل من الأدعية (فلا توحش استيناس إيماني).

(٢) فإن شهادة (أن لا إله إلاّ الله) يحقن دماء الناس، حتى لو كانت شهادتهم بلا إله إلاّ الله على طرف ألسنتهم، ولم يؤمنوا بالله تعالى في قرارة نفوسهم. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، (الفتح: ١١)

ومع ذلك فإنهم يدركون ما أمّلوا من حقن دمائهم. وقد آمنا بك ربنا، بقلوبنا وألسنتنا لتعفو عنا، وتؤمّننا من عذابك وعقابك فأدركنا ما أملنا، فإنك قد أعطيت المشركين بك ما وعدتهم من حقن دمائهم، فكيف تحرمنا ربنا ما أملنا من عفوك؟

(٣) والله تعالى يحب هذا الإصرار والإلحاح من عباده على بابه.. والإمام عليه السلام يعلم كيف ينبغي أن يكون إلحاح العبد في الدعاء وإصراره في الرجاء على باب رحمة الله.

ونُقسم بالله وجلاله وعزته لو زجرنا ونهرنا عن بابه لما كففنا عن تملقه والتضرع إليه.

⇐

قَلْبي مِنَ الْمَعْرِفَة بكَرَمكَ وَسَعَة رَحْمَتكَ، الى مَنْ يَذْهَبُ الْعَبْدُ إلاّ الى مَوْلاهُ[1]، وَالى مَنْ يَلْتَجئُ الْمخْلُوقُ إلاّ الى خالقه.

الهي لَوْ قَرَنْتَني بالأَصْفاد، وَمَنَعْتَني[2] سَيْبَكَ مِنْ بَيْنِ الأَشْهاد، وَدَلَلْتَ عَلى

⇒

ثم يعلل عليه السلام هذا الإلحاح والإصرار في الدعاء والرجاء بما ألهم الله تعالى قلوب عباده من الإيمان بسعة كرمه ورحمته، فمن يعرف سعة رحمة الله وكرمه لا ييأس من أن تناله رحمة الله تعالى مهما طال وقوفه على باب رحمته، ومهما كانت ذنوبه وسيئاته.

(١) أين يجد العبد ملجأ وملاذاً لنفسه فيما يواجهه من المصائب والعقبات إلاّ أن يلجأ إلى مولاه؟ ومن ذا الذي يُلجأ العبد إذا أعرض عنه مولاه.

وفيما يلي نقرأ جملاً من مناجاة أمير المؤمنين علي عليه السلام، كان يناجي به الله تعالى في ظلمات الليل في مسجد الكوفة ويذكر فيه حاجته وفقره إلى الله:

مولاي يا مولاي أنت المولى وأنا العبد، وهل يرحم العبد إلاّ المولى؟

مولاي يا مولاي أنت المالك وأنا المملوك، وهل يرحم المملوك إلاّ المالك؟

مولاي يا مولاي أنت العزيز وأنا الذليل، وهل يرحم الذليل إلاّ العزيز؟

مولاي يا مولاي أنت الخالق وأنا المخلوق، وهل يرحم المخلوق إلاّ الخالق؟

مولاي يا مولاي أنت العظيم وأنا الحقير، وهل يرحم الحقير إلاّ العظيم؟

مولاي يا مولاي أنت القوي وأنا الضعيف، وهل يرحم الضعيف إلاّ القوي؟

مولاي يا مولاي أنت الغني وأنا الفقير، وهل يرحم الفقير إلاّ الغني؟

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن الله يحب الملحّين في الدعاء**».

وعنه عليه السلام: «**إن الله يحب السائل اللحوح**».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الدعاء ترس المؤمن، ومتى تكثر قرع الباب يفتح لك**».

وفي الدعاء: «**يا من لا يبرمه إلحاح الملحين**».

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**إن الله كره إلحاح الناس بعضهم على بعض في المسألة، وأحب ذلك لنفسه**».

مولاي يا مولاي أنت المعطي وأنا السائل، وهل يرحم السائل إلاّ المعطي؟

مولاي يا مولاي أنت الباقي وأنا الفاني، وهل يرحم الفاني إلاّ الباقي؟

(٢) الأصفاد: الأغلال والسلاسل، والسيب: العطاء، والأشهاد: جمع الشاهد، وهو من يحضر ويشهد أعمال الناس، وهم الأنبياء عليهم السلام وأوصياؤهم.

⇐

فَضائحي عُيُونَ الْعِبادِ، وَاَمَرْتَ بي اِلَى النّارِ، وَحُلْتَ بَيْني وَبَيْنَ الْأَبْرارِ، ما قَطَعْتُ

⇐

هذه لوحة فريدة يرسمها زين العابدين عليه السلام للتعبير عن عمق رجائه بالله تعالى. وما أروع هذه اللوحة في أدب الدعاء والعبودية، وما أعمق هذا الرجاء والحب في نفس العبد.

لكي نعرف: كيف يكون أدب العبودية والدعاء بين يدي الله تعالى؟ وكيف يجب ان يكون عمق الرجاء والحب في نفس العبد؟ ينبغي أن نتأمل بعض الوقت هذه اللوحة الفريدة.

تصوروا أن الله تعالى يأمر بعبده، فيغلّ في الأصفاد والسلاسل، ويُحْرَم رحمة الله تعالى الواسعة من بين الناس، ويكشف الله تعالى، وهو الستار، فضائحه للعباد وبين الأشهاد من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، ويؤمر به إلى النار الحارقة، ليبتعد عن الصالحين الأبرار من عباد الله، ويُحشرُ مع الفجار، ويُهانُ، ويُذلّ، ويُعاقبُ، ويُحرقُ، ويُحشرُ في زمر المجرمين والمشركين، وهو ليس منهم.

فيجد العبد نفسه موضع غضب الله تعالى وقهره وعقابه الأليم... ثم لا ينقطع رجاؤه وأمله في رحمة الله، ولا ينقص حبه لله ويكون هجر الله تعالى له وإبعاده إياه أشد وآلم من أليم عذابه وعقابه.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، في الدعاء الذي علّمه لكميل بن زياد (رضوان الله عليه):

«فلئن صيرتني للعقوبات مع أعدائك، وجمعت بيني وبين أهل بلائك، وفرّقت بين وبين أحبائك وأوليائك.. فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي، صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟ وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك؟... أم كيف أسكن في النار ورجائي عفوك؟».

وكيف يخرج حب الله تعالى من قلب العبد، وينضب معين الرجاء في قلبه، وهو يذكر أياديه الجميلة عنده من غير استحقاق، ويذكر ما كان يستر عليه من ذنوبه وسيئاته في الدنيا، فيستره وهو على المعصية، فكيف يخيّبه من رحمته ورجائه في الآخرة وهو يلوذ برحمته وعفوه... وفي دعاء كميل:

«أفتراك بحمدك تسمع فيها - نار جهنم - صوت عبد مسلم، سجن فيها بمخالفته، وذاق طعم عذابها بمعصيته، وهو يضج إليك ضجيج مؤمل لرحمتك، ويناديك بلسان أهل توحيدك، ويتوسّل إليك بربوبيتك... فكيف يبقى في العذاب، وهو يرجو ما سلف من حلمك، أم كيف تؤلمه النار، وهو يأمل فضلك ورحمتك، أم كيف يحرقه لهيبها، وأنت تسمع صوته وترى مكانه، أم كيف يشتمل عليه زفيرها وأنت تعلم ضعفه».

إن الله تعالى أكرم من أن يضيّع من أكرمه بالإيمان، ويهجره، ويعاقبه بمثل هذا العقاب الأليم، ويصفده بالأغلال مع المجرمين... ولكنها صورة توحي إلى من يقرأ هذا الدعاء أدب الدعاء والعبودية، وعمق الرجاء والحب في نفوس عباد الله الصالحين.

رَجائي مِنْكَ وَما صَرَفْتُ تَأميلي لِلْعَفْوِ عَنْكَ، وَلا خَرَجَ حُبُّكَ مِنْ قَلْبي.

أَنَا لا أَنْسى أَياديكَ عِنْدي، وَسَتْرَكَ عَلَيَّ في دارِ الدُّنْيا.

سَيِّدي أَخْرِجْ حُبَّ الدُّنْيا مِنْ قَلْبي[١]، وَاجْمَعْ بَيْني وَبَيْنَ الْمُصْطَفى وَآلِه[٢] خِيَرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ وَخاتَمِ النَّبِيّينَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه. وَانْقُلْني إلى دَرَجَةِ التَّوْبَةِ إلَيْكَ[٣]، وَأَعِنّي بِالْبُكاءِ عَلى نَفْسي[٤]، فَقَدْ أَفْنَيْتُ بِالتَّسْويفِ وَالآمالِ

---

(١) فإن حب الدنيا إذا خرج من قلب الإنسان تحرّر عن الدنيا وفتنتها، وإذا تحرر الإنسان عن سلطان الدنيا وفتنها تيسر له العروج إلى الله ولقائه، وشهود جلاله وجماله وأسمائه وصفاته الحسنى. وتلك منزلة لا ينالها الا صدّيق شهيد، انتزع الله تعالى سلطان كل حب وفتنة من قلبه الا سلطان حبه وشهود جلاله وجماله.

(٢) فإن المصطفى وآله عليهم السلام بجوار الله تعالى في الجنة، وجوارهم جوار الله، ولا يحظى الإنسان بأعز من هذا الجوار.

(٣) فإن درجة التوبة رفيعة، ولا ينال التوبة الا من رقى من عباد الله إلى هذه الدرجة، وليست التوبة لقلقة لسان، وإنما هي الندم من الذنب، والخجل من الله، والتحكم في الأهواء والشهوات، والعبودية لله واستشعار الخجل من الله بما ارتكب الإنسان من الذنوب والمعاصي.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان: أولها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم، والرابع: ان تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقها، والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتى يلتصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس: ان تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول (استغفر الله)**» (ميزان الحكمة ١ / ٤٥٣)

... وهذا الذي ذكرناه درجة رفيعة من درجات النفس، فإذا رقى الإنسان إلى هذه الدرجة وافته التوبة وعرفها في نفسه.

(٤) فإن البكاء يذيب الجليد المتراكم على النفس، ويزيل الرين الذي يحجب قلب الإنسان عن الله، ويمنح القلب شفافية ورقّة، وشهقة بكاء قد تزيل الرين الذي تراكم على قلب العبد بالذنوب والمعاصي سنين طويلة.

ولكن هذه الشهقة التي تفجّر هذا الرين المتراكم على القلب، وتزيله لا تتأتّى للإنسان الا اذا أعانه الله تعالى على ذلك. وهيهات أن يتأتى للإنسان ذلك من غير عون الله. (وأعنّي بالبكاء على نفسي).

عُمْري [١]..

وَقَدْ نَزَلْتُ مَنْزِلَةَ الْآيِسينَ [٢] مِنْ خَيْري.

فَمَنْ يَكُونُ اَسْوَأَ حالاً مِنّي إِنْ اَنَا نُقِلْتُ عَلى مِثْلِ حالي اِلى قَبْري، لَمْ اُمَهِّدْهُ لِرَقْدَتي، وَلَمْ اَفْرُشْهُ بِالْعَمَلِ الصّالِحِ لِضَجْعَتي [٣].

---

(١) ولماذا لا أبكي على نفسي، ولا أطلب أن يعينني الله تعالى على البكاء على نفسي، وقد أفنيت بالتسويف والآمال غمري.

وهذه هي مصيبة الإنسان لا يزال يسوّف ويؤجّل التوبة، ويطيل الأمل في الدنيا، وكأن الدنيا باقية له إلى الأبد، ولا انقضاء لبقائه فيها.

والتسويف في التوبة والعمل الصالح، وطول الأمل في الدنيا من أكثر مصائب الإنسان في الحياة الدنيا.

وقد روى المحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**ألا أن أخوف ما أخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى، وطول الأمل. أما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة**) (ميزان الحكمة ١/ ١٥٥، عن بحار الأنوار ٧٣/ ١٦٢).

وإذا لم ينتبه الإنسان إلى مصيبته في التسويف وطول الأمل، فلا يكاد ينتبه إلى محرقة العمر إلاّ في اللحظات الأخيرة من حياته، حيث لا ينفعه الانتباه والتذكر. وإذا لا يتدارك الإنسان الأمر قبل الموت، فإن الموت غدّار يفاجئ الإنسان قبل أن يتمكن من التوبة وإصلاح العمل. ولا شيء يزيل عن النفس غشاوة الغفلة، مثل البكاء على ما فرّط الإنسان من عمره وجهده، (وأعني على البكاء على نفسي، فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري).

(٢) ولماذا لا ييأس الإنسان من خيره إذا نظر إلى عمله وعمره وطول أمله في الدنيا واغتراره بها وتسويفه للتوبة والأعمال الصالحة، حتى يكاد أن ينقضي عمره وهو لم يصنع شيئاً لحياته الآخرة، لولا أن الله تعالى ينهانا عن القنوط واليأس عن رحمته وروحه. وإذا يأس الإنسان عن نفسه وعمله، فلا يجوز له أن ييأس من رحمة ربه، وهذا الأمل في الله يجبر اليأس عن النفس ويغطيه.

ولكن عليه ان يبكي على نفسه طويلاً. فإن البكاء يرفع الغشاوة عن قلب الإنسان.

(٣) إن الأعمال الصالحة تمهّد للإنسان حياته الأخرى.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (الروم: ٤٤) . ومن ينتقل من هذه الدنيا إلى الحياة الأخرى من دون أن يمهد لها بالأعمال الصالحة، ويتوب عن ذنوبه وسيئاته، فلا يكون أحد أسوأ حالاً منه. فيكون قبره حفرة من حفر النار، والقبر أما أن يكون روضة من رياض الجنة أو حفرة ⇐

وَمالي لا اَبْكي وَلا اَدْري اِلى ما يَكُونُ مَصيري؟ وَاَرى نَفْسي تُخادِعُني، وَاَيّامي تُخاتِلُني (١)، وَقَدْ خَفَقَتْ عِنْدَ رَأسي اَجْنِحَةُ الْمَوْتِ.

فَمالي لا اَبْكي؟ اَبْكي، لِخُروجِ نَفْسي، اَبْكي لِظُلْمَةِ قَبْري، اَبْكي لِضيقِ لَحَدي، اَبْكي لِسُؤالِ مُنْكَرٍ وَنَكيرٍ اِيّايَ (٢)، اَبْكي لِخُرُوجي مِنْ

⇒

من حفر النار.

(١) فما أحرى بالإنسان في غفلاته أن يبكي على نفسه، وهو لا يعلم إلى ما يكون مصيره إلى رحمة الله ورضوانه، أم إلى عذابه وعقابه.

وأي شيء أدعى إلى الخوف والحزن والبكاء من أن يُطِلّ الإنسان على مصير مجهول دائم، لا نفاد له، لا يدري إن كان مصيره العفو والرحمة من عند الله، وهو الرحمن الرحيم الغفور، أم إلى عذاب الله وعقابه، وهو شديد العقاب، ولا يعلم كيف يكون مقامه يوم القيامة بين يدي الله؟ مقام الرضا والرحمة، أم مقام الغضب والسخط؟

وإنه ليوم صعب رهيب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ١ ـ ٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان: ٣٣).

وأشد ما يمرّ على الإنسان في غفلاته في الدنيا أن يرى أنّ نفسه تخادعه، تبعّد إليه القريب، وتطيل أمله في الدنيا، وتجملها وتزينها له (وأرى نفسي تخادعني)، ثم تخاتله أيامه، وتخفى عليه لحظاته الأخيرة.. وها هو صقر الموت يخفق عند رأسه بأجنحته، وينقض عليه مرة واحدة، ينتزعه من الدنيا انتزاعاً، ويقهره على أن يقطع كل علاقاته وأهوائه وشهواته في الدنيا، وما جمعه وادخره، واقتناه منها، لا يرحمه ولا يرأف به، ويقبل على مصيره الدائم الذي يجهله، فلا يدري إلى حفرة من حفر النار، أم إلى روضة من رياض الجنة. وهل هناك شيء أدعى إلى البكاء من ذلك.

(وما لي لا أبكي، ولا أدري إلى ما يكون مصيري؟ وأرى نفسي تخادعني، وأيامي تخاتلني. وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت).

(٢) هذه طائفة من المعابر الصعبة في عالم البرزخ، وهو العالم المتوسط بين الدنيا والآخرة، يعبرها الإنسان لا محالة، في عبوره الصعب من الدنيا إلى الآخرة، ومن أعظم هذه المراحل حالة النزع

⇐

قَبْري[١] عُرْياناً ذَليلاً حامِلاً ثِقْلي عَلى ظَهْري[١]، أَنْظُرُ مَرَّةً عَنْ يَميني وَأُخْرى عَنْ

⇒

والاحتضار بين الدنيا والبرزخ، حيث تتشابك الدنيا بالآخرة. ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ* وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ* وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ* وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ* إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة: ٢٦ – ٣٠) .

وهي لحظات صعبة يفارق فيها الإنسان الدنيا، ويقبل على عالم الآخرة، وينتزعه ملك الموت مقهوراً مغلوباً على أمره، من الدنيا، وما كسبه فيها لنفسه من مال وبنين وموقع.

ثم ظلمة القبر وضيق اللحد، ثم سؤال منكر ونكير، وهما ملكان من ملائكة الله، يسألون الإنسان في ظلمات قبره عن عقائده، فإن كانت عقائده صحيحة، أنطقه الله تعالى بها واستراح، وإن كانت باطلة، ولم يجهد صاحبها نفسه في الدنيا في ابتغاء العقيدة الحق والإيمان الحق، والولاء الحق، حاسبوه حساباً عسيراً.

ومسائلة منكر ونكير من القضايا المستقبلة لكل إنسان، وقد ورد في روايات كثيرة مستفيضة لا سبيل للتشكيك فيها.

وهذه جميعاً من مواقف البرزخ ومعابره، والحياة البرزخية مما يقرره القرآن. يقول تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٨)، والحياة المتوسطة بين الموتين هي الحياة البرزخية، لا محالة، يسبقها الموت، ويلحقها الموت، والآية الكريمة واضحة فيما قلنا، وقد فسرها بهذا المعنى جمع من المفسرين. والحياة البرزخية كحياة الآخرة، ينعم فيها ناس، ويعذب فيها آخرون. ينعم فيها ناس بأعمالهم الصالحة ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾. وييأس فيها آخرون ﴿كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.

والحياة البرزخية حياة طويلة، يطول فيها عذاب الفاسقين، كما يطول فيها نعيم الصالحين. وحق على الإنسان أن يبكي ويطيل البكاء، وهو لا يعلم ماذا يكون مصيره إذا هوى في ظلمة قبره. وكيف يكون جوابه إذا سأله منكر ونكير عن عقائده وأعماله؟

(١) وهذه محطة ثانية من محطات البكاء والمصير المجهول الذي يستقبل الإنسان، وهي مرحلة الحياة الآخرة، عندما يبعث الله من في القبور.

وإنها ساعة حق، آتية لا محالة ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ (الحج/ ٧).

ويعجب الناس وقد بعثهم الله من قبورهم في ذلك اليوم العسير كالفراش المبثوث، يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا)؟ فيقال لهم: (هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس: ٥٢) .

وهو يوم عسير، يوم ينبئ الله الإنسان بأعماله التي نساها الإنسان وأحصاها الله، فيذكّره بها.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (المجادلة: ٦).

⇐

شمالي، اذ الْخَلاَئق في شَأن غَيْر شَأني ﴿لِكُلِّ امْرِئ مِنْهُمْ يَوْمَئِذ شَأْنٌ يُغْنِيه* وُجُوهٌ يَوْمَئِذ مُسْفِرَةٌ* ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ* وَوُجُوهٌ يَوْمَئذ عَلَيْها غَبَرَةٌ* تَرْهَقُها قَتَرَةٌ﴾ [٢] وَذِلَّةٌ.

سَيِّدي عَلَيْكَ مُعَوَّلي وَمُعْتَمَدي وَرَجائي وَتَوَكُّلي، وَبِرَحْمَتِكَ تَعَلُّقي [٣].

⇐

وما أحرى بالإنسان أن يبكي ويطيل البكاء على ما فرط منه من السيئات، وقد نساها، وأحصاها الله.

(١) وهو اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ (الأنعام: ٣١).

وأن السيئات تثقل ظهور أصحابها فيبحثون عمن يحمل ويخفف عن ظهورهم ثقل السيئات، فلا يجدون يومئذ من يخفف عنهم ثقل السيئات.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (فاطر: ١٨).

ومن يحمل عن الإنسان أوزاره في ذلك اليوم العسير؟ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤ – ٣٦).

(٢) الآيات من سورة عبس ٣٧ - ٤١ وهي تعكس مشهداً من مشاهد يوم القيامة، إذ الخلائق يحشرون، كل له همه وشأنه الذي يهمّه، ولا يحمل الإنسان يومئذ إلاّ همه. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ١ ـ ٢).

والناس يومئذ بين مستبشر ضاحك سعيد وبائس شقي.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٦).

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ* وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ* عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ* تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً* تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ... وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ* لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً* فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ* فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ* وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ* وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ (الغاشية: ١ ـ ١٥).

(٣) وسط هذه المشاهد المفزعة الرهيبة التي تحف بالإنسان من حين يلفظ آخر أنفاسه في معابر البرزخ والآخرة ينظر المرء يميناً وشمالاً، فلا يجد من يلوذ به، ويتوكل عليه، ويستغيث به، غير الله تعالى، فهو مآبه الذي يرجع إليه.

(سيدي عليك معولي): أي أستعين بك وأتوكل عليك وأعتمد عليك. وهو وحده سبحانه الموضع الذي يضع العبد عنده ثقته واعتماده ورجاءه وأمله. وهو سبحانه وحده من يستحق ثقة العبد وركونه

⇐

تُصيبُ بِرَحْمَتِكَ مَنْ تَشاءُ وَتَهْدي بِكَرامَتِكَ مَنْ تُحِبُّ[(١)].

⇒

واعتماده.

ونقرأ في سورة هود قول هود عليه السلام عندما جادله قومه، وتحدوه، ورفضوا دعوته، وأعلنوا مقاطعته، يقول لهم: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، هود/ ٥٤ – ٥٦.

فهو يتحداهم جميعاً ﴿فكيدوني جميعاً﴾، ويعلن البراءة عما يشركون من دون الله، ويشفع هذا التحدي وإعلان البراءة بالتوكل على الله وحده ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾، وعندما يتوكل الإنسان على الله لا يعجزه شيء.

وفي نفس السورة نقرأ كلاماً لشعيب عليه السلام يواجه به قومه، ويعلن عليهم أن كل توفيقه في حركته ومواجهته لقومه من عند الله وبالتوكل على الله ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

والله تعالى يعصم المتوكلين من سلطان الشيطان ونفوذه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل: ٩٩).

(١) الرحمة والهداية من عند الله، يعطيها من يشاء، ومن يحب من عباده، وليس أحد غير الله يهب خلق الله الرحمة والهداية. والله تعالى يختص بالرحمة والهداية من يشاء من عباده (يختص برحمته من يشاء). لا شك في هذا ولا ذاك.

ولكن مشيئة الله تعالى هي السنن والقوانين الحاكمة في هذا الكون العريض، ولا شيء من هذه السنن والقوانين خارجة من مشيئة الله وإرادته. والقرآن يعكس لنا سنن الله تعالى فيما يحب ويشاء، وفيمن يختص برحمته. فإذا طلبنا رحمة الله تعالى وهدايته فعلينا أن نطلبهما من منازل رحمته وهدايته.

وإذا أردنا أن نعرف منازل الرحمة والهداية الإلهية فعلينا أن نتعرف عليها من خلال كتاب الله.

إن الإيمان والاعتصام بالله من أعظم منازل الرحمة والهداية. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ (النساء: ١٧٥).

فمن شاء رحمة الله وفضله وهدايته فعليه أن يسلك سبيلاً إلى الإيمان والاعتصام بالله.

ومن أراد رحمة الله وهدايته فعليه أن يضع نفسه في مواضع الذين يحبهم الله تعالى.

وإذا أحببت ان تعرف الذين يحبهم الله فاقرأ هذه الآيات من الذكر الحكيم:

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥).

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

⇐

فَلَكَ الْحَمْدُ عَلى ما نَقَّيْتَ مِنَ الشِّرْكِ قَلْبي [1]، وَلَكَ الْحَمْدُ عَلى بَسْطِ لِساني،

⇒

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢) .

﴿فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران: ٧٦) .

﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤، ١٤٨، المائدة: ٩٣) .

﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾، (آل عمران: ١٤٦) .

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩) .

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: ٤٢) .

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤ ، ٧) .

﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨) .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤) .

وإذا عرفت الذين يحبهم الله، فلابد أن تعرف الذين يكرههم الله تعالى، لتكتمل عندك صورة منازل الرحمة والهداية بوجهيها الإيجابي والسلبي.

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠) .

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥) .

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٧٦) .

﴿فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣٢).

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ٥٧ ، ١٤٠).

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء: ٣٦).

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً﴾ (النساء: ١٠٧) .

﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (النساء: ١٤٨).

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤).

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (المائدة: ٨٧).

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام:١٤١).

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٨).

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (النحل: ٢٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الحج: ٣٨).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦).

(١) تنقية القلوب من الشرك من مصاديق هداية الله تعالى لعباده، ولولا أن الله تعالى ينقّي قلوب عباده

⇐

اَفَبِلساني هذَا الْكالِّ اَشْكُرُكَ، اَمْ بِغايَةِ جُهْدي في عَمَلي اُرْضيكَ؟

وَما قَدْرُ لِساني يا رَبِّ في جَنْبِ شُكْرِكَ[1]، وَما قَدْرُ عَمَلي في جَنْبِ نِعَمِكَ

⇒

من الشرك، فلا يكاد يخلص القلب من الشرك، فإن حركة الشرك في القلوب أخفى من دبيب النمل على صخرة سوداء في ظلمة الليل، كما في الحديث. ولا يسلم للإنسان قلبه من نفوذ الشرك إلاّ إذا هداه الله للتوحيد، وأخلص قلبه من الشرك. واذا أرادالعبد أن ينقي الله تعالى قلبه من الشرك، ويخلصه من أوضاره وأدرانه، فعليه أن يدخل حيث يحب الله من منازل رحمته، ويخرج من حيث يكره الله.

(١) إن الشكر أمارة وعي نعم الله، وسلامة الفطرة. والكفران ضد الشكر، علامة الجحود والنكران والجهالة، ويأمرنا الله تعالى بالشكر وينهانا عن الكفران والجحود ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢). ﴿وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾، (البقرة: ١٥٢).

ولكن أكثر الناس جاحدون كافرون بنعم الله.

﴿إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٣).

وأما الذين يحسنون التعامل مع نعم الله تعالى ويشكرون الله، فهم قلة من الناس. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣).

﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٠، المؤمنون: ٧٨، السجدة: ٩، الملك: ٢٣).

وهو تعالى غني عن شكر عباده، وإنما يعود الشكر إلى نفوس الشاكرين أنفسهم، فيكون سبباً لسلامة فطرتهم، وتكامل وعيهم، ويكسبهم الأدب في التعامل مع نعم الله، وكل ذلك ينفع الإنسان، ويصلحه ويجعله في منازل رحمة الله. يقول تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان: ١٢).

وهو من أسباب زيادة النعمة، ومهما شكر الإنسان ربه زاده تعالى نعمة على النعمة، وضاعف له النعمة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧).

ولكن نعم الله تعالى لا تحصى. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (النحل: ١٨).

وليس بوسع الإنسان أن يشكر الله تعالى. وكيف يسع المحدود أن يشكر غير المحدود من نعم الله تعالى التي لا تحصى، سواء كان شكر العبد لربه بلسانه أم بجهده وعمله.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**أفبلساني هذا الكال أشكرك، أم بغاية جهدي أرضيك، وما قدر لساني يا رب في جنب شكرك؟ وما قدر عملي في جنب نعمك وإحسانك إليّ**»؟

⇐

وَاحْسانِكَ.

الِهي اِنَّ جُودَكَ بَسَطَ اَمَلي، وَشُكْرَكَ قَبِلَ عَمَلي [١].

⇐

وكيف يشكر الإنسان ربه حق الشكر؟ وكلما شكر الله تعالى على نعمة من نعمه فهو رزق جديد يرزقه الله تعالى.

فإن شكر الله من أفضل نعم الله تعالى لعباده يرزقه الله من يشاء من عباده.

والصالحون من ذوي الوعي والمعرفة من عباد الله يطلبون من الله أن يوزعهم شكر نعمه. ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ (النمل: ١٩).

فكيف يتأتى للعبد المحدود أن يشكر نعم الله؟

وقد ورد في بعض الأحاديث أن موسى بن عمران عليه السلام قال: «**إلهي كيف أشكرك وكلما شكرتك فهو رزق جديد ونعمة جديدة، من رزقك يستوجب شكراً جديداً**».

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى، اشكرني حق شكري. فقال: يا رب، كيف أشكرك حق شكرك؟ وليس من شكر أشكرك به إلاّ وأنت أنعمت به علي. فقال: شكرتني حق شكري حين علمت أن ذلك مني**» (ميزان الحكمة ٥ / ١٩٧٣).

(١) وإذ يعلن العبد عجزه من شكر الله تعالى، عن نعمه المتصلة المتواصلة، غير المحدودة.. لا يبقى له إلاّ أن يثق بجوده وكرمه تعالى.

وإذ يعلن العبد عن عجزه في مقابلة الجميل النازل إليه من عند الله بالشكر الصاعد منه إلى الله، فلا يبقى للعبد من بضاعة يقابل بها رحمة الله ونعمه غير الثقة بجوده ورحمته تعالى. (إلهي أن جودك بسط أملي).

وإذ يعلن عجزه عن مقابلة نعم الله تعالى النازلة إليه بالعمل الصالح الصاعد إلى الله، ويعلم أن ليس له من عمل صالح يصعد إلى الله، يقابل به نعمه وآلاءه تبارك وتعالى، فلا يبقى له من أمل في قبول بضاعته الكاسدة الوضيعة، إلاّ ثقته بأن الله تعالى شكور كريم، يشكر لعبده العمل الحقير القليل، ويتقبله منه. فإن من أسماء الله الشاكر الشكور. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨). ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١٧).

(وما قدر لساني يا ربّ في جنب شكرك).

أي ماذا يستطيع لساني أن يؤديه في جانب ما يجب عليه من شكرك. (وما قدر عملي في جنب نعمك)، أي ما قيمة عملي الوضيع بالمقارنة إلى نعمك العظيمة. (إلاّ أن جودك بسط أملي، وشكرك قبل عملي).

سَيِّدي اِلَيْكَ رَغْبَتي، وَاِلَيْكَ رَهْبَتي، وَاِلَيْكَ تَأميلي [١].

وَقَدْ ساقَني اِلَيْكَ اَمَلي [٢]، وَعَلَيْكَ يا واحِدي عَكَفَتْ هِمَّتي [٣]، وَفيما عِنْدَكَ انْبَسَطَتْ رَغْبَتي [٤]،..

---

(١) هذه ثلاثة ألوان من طيف العلاقة بالله: (الرغبة) و(الرهبة) و(الرجاء) الأمل.

والعلاقة بالله والتعامل مع الله طيف متعدد الألوان، من الرغبة ومن الرهبة، ومن الرجاء والأمل. والعلاقة بالله إذا كانت وحدانية اللون لا تكون متكاملة، كمن يبني علاقته بالله على أساس الخوف وحده، أو الرجاء وحده، وتتكامل عندما تكون متعددة الألوان.

وفي هذه الفقرة يتوجه الإمام علي بن الحسين عليه السلام إلى الله بالرهبة والرغبة والأمل.

وهو مقتبس من الذكر الحكيم. فقد ورد في سورة الأنبياء/ ٩٠ عن علاقة الأنبياء عليهم السلام بالله: «**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**».

إن دعاء الأنبياء عليهم السلام مزيج من الرغبة والرهبة والخشوع، ومن شروط السلوك الصحيح إلى الله أن يتعادل الخوف والرغبة والرجاء في نفس الإنسان، فإذا طغى الخوف على الرجاء، أو العكس، فقدَ الإنسان المنهج الصحيح للسلوك إلى الله.

(٢) إن الأمل لا يغني عن العمل، ولابد أن يتقدم الإنسان إلى الله تعالى بالعمل والأمل معاً.. وهذه النقطة من حقائق مناهج السلوك إلى الله.

ولكن بشرط أن يكوّن ثقة الإنسان بأمله في الله، وليس بعمله.

فإنه إذا وضع ثقته في عمله تملّكه العجب، فكان حجاباً بينه وبين الله تعالى.

وأفضل السلوك إلى الله أن يسوقه إليه تعالى (أمله)، ويكون ثقته بأمله في الله، وليس بعمله وجهده، في حركته إلى الله.

(٣) وليس لهمة الإنسان غاية إلاّ الله تعالى، وكل غاية أخرى لهمة الإنسان سراب خادع مضلل، فلا يصحّ للإنسان أن يعكف بهمته على غير الله تعالى. فإن جهد الإنسان وعمله متناهيان محدودان، ولا حدود لهمته ورجائه، وليس شيء يصلح أن يكون غاية لهمة الإنسان وهمه ورجائه غير الله تعالى.

ولا يصحّ أن يشفع الإنسان أحداً أو شيئاً إلى جانب الله تعالى لهمته، فإن الإنسان لا يستطيع أن ينال من معرفة الله وقربه إلاّ إذا عكف عليه بكل جهده وهمّته، وهذا هو معنى (العكوف)، إلاّ أن يكون في امتداد الله.

ولا يخفى لطف نداء (يا واحدي) في هذا السياق، فإنه سياق العكوف على الله، والعكوف لا يقبل أكثر من الواحد.

(٤) وإذا كان لا يصلح لهمة الإنسان شيء إلاّ أن يعكف بهمته على الله تعالى، دون غيره مما يقصده

⇐

وَلَكَ خالِصُ رَجائي وَخَوْفي [١]، وَبِكَ أَنِسَتْ مَحَبَّتي [٢]، وَإِلَيْكَ أَلْقَيْتُ بِيَدي [٣]، ..

⇒

الناس بهمهم، فلا يصح أن يبسط الإنسان رغبته فيما عند الناس من متاع الحياة الدنيا، ولا يصلح لرغبته الإنسان أن تنبسط إلاّ فيما عند الله.

فإن ما عند الناس سراب مضلل وما عند الله باق ينفع ويمكث في الارض. وعباد الله من أصحاب المعرفة تنكمش رغباتهم عما في أيدي الناس، وتنبسط فيما عند الله. وهذا الانبساط والانكماش في الرغبات من آثار (المعرفة).

(١) قلنا لابد من معادلة الخوف والرجاء في نفس الإنسان في العلاقة بالله والتعامل مع الله.

وهنا نضيف على ما تقدم أن اقتران الخوف والرجاء ليس من قبيل خليط من الرجاء والخوف، بعضه خوف وبعضه رجاء،.. فإن العلاقة التبعيضية بالله بهذه الصورة علاقة غير صحيحة، وإنما العلاقة الصحيحة خلوص كل من الخوف لله، فتكون العلاقة قائمة على الخوف الخالص لله، وليس الخوف التبعيضي، وعلى الرجاء الخالص لله، وليس الرجاء التبعيضي، ثم يكون الخوف الخالص رجاءً خالصاً والرجاء الخالص خوفاً خالصاً.

وهذا الخلوص في الخوف والرجاء، وفي الرغبة والرهبة، من خصائص علاقة العبد بالله، وتعامله مع الله.

يقول الإمام عليه السلام: «**ولك خالص رجائي وخوفي**».

(٢) الحب شوق وأنس... شوق في البعد والهجر، وأنس في القرب والخلوة.

وليالي المشتاقين طويلة، وليالي الواصلين قصيرة سريعة.

ولكن المحب – مهما يكن موقعه من حبيبه – هجر أو قرب، يأنس بحبّه، ويركن إلى حبّه، ويجد في حبه إنسا لا يستبدله بأيّة حالة أخرى.

وعجيب أمر المحبين الصادقين في حبهم، إنهم لا يستبدلون عذاب حبهم، ولوعة هيامهم بما يفرح ويلهو به الناس.

ولو طلب منه، وهو يتلوّع في فراق الحبيب وهجره، أن يسلب عنه هذا الحب الذي يذيقه مرارة الهجر، لما اختار عن الحب بديلاً.

يأنس بحبّه الذي يسلبه القرار والراحة والاستقرار، كما تأنس الفراشة بشعلة الشمعة التي تحرقها فلا تزال تحوم حولها حتى تحترق.

(٣) عندما يطلب الإنسان امراً من الله يرفع يديه إلى الله، وهو تعبير عن حاجة السائل وفقره إلى الله ...

⇐

وَبِحَبْلِ طاعَتِكَ مَدَدْتُ رَهْبَتي[1]. يا مَوْلايَ بِذِكْرِكَ عاشَ قَلْبي[2]، وَبِمُناجاتِكَ

⇒

والسائل وضيع والمسؤول رفيع، فيرفع يديه إلى الله وهو موقع الوضيع من الرفيع.

ولكن التعبير هنا (واليك القيت بيدي) وهو يختلف عن (إليك رفعت يدي).

ومعنى هذه الكلمة: حالة اضطرار السائل بين يدي المسؤول.

فان السائل اذا لم يجد سبيلاً لقضاء حاجته عند غير المسؤول يلقي بنفسه بين يديه، ويلقي بيديه اليه تعبيراً عن اضطراره اليه.

وهذه الكلمة هنا للتعبير عن الاضطرار، كما ان التعبير بـ (اليك رفعت يدي) يوحي بفقر السائل وغنى المسؤول. وموقع الفقير وضيع، وموقع الغنى رفيع.

(١) بكل حبل من حبال الله يعتصم الإنسان ويتوسل بما يناسبه من الحالات.

فيعتصم بحبل غنى الله بيد الرغبة والرجاء، ويعتصم بحبل طاعة الله بيد الرهبة.

(٢) من صفات الله الحسنى (المولى).

وقد ذكر هذه الصفة من صفات الله الحسنى في القران في مواقع عديدة:

﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الأنفال: ٤٠).

وفي سورة الحج ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٨) .

وفي سورة آل عمران: الآية ١٥٠ : ﴿بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

كما ورد في القرآن من نفس الاشتقاق (الولي) .يقول تعالى: ﴿وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وبنفس المعنى ﴿وهو ولي حميد﴾ . ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، ﴿وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً﴾. والولي بمعنى اللصيق الذي لا ينفك عن الشيء، وكأنّه أقرب شيء إليه والصقه به.

والأصل في هذه الاشتقاقات (الأولى)، ومولاهم، يعني الأولى بهم، ووليّهم يعني الأولى بهم ... والمعاني المذكورة للمولى والولي في اللغة تأتي في هذا الامتداد بمناسبة او أخرى ليس موضع ذكرها هنا ... وقد ورد في القرآن في نفس المعنى ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾: أي أولى بهم،كما يقول المفسرون.

وفي أواخر سورة البقرة / ٢٨٦: ﴿أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي أنت إلى بنا.

وأولوية الله تعالى على عباده مطلقة، فهو أولى بهم من كل شخص، ومن كل شيء، أولى بهم، وبدعائهم، وشكرهم، ومخافتهم، ومهابتهم، وحبهم، وعبادتهم، وخضوعهم، وتصرفهم، وسؤالهم ، وحاجتهم ... وكل ولاية أخرى في حياة الإنسان لا بد ان تكون في امتداد هذه الاولوية المطلقة، وكل ولاية لا تقع في هذا الامتداد، فهي ولاية باطلة بالتأكيد ... ومنها ولاية رسول الله صلى الله عليه وآله على الناس: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فهي امتداد لولاية الله، وبإذن الله وبأمره، ولولا ذلك لم

⇐

بَرَّدْتُ اَلَمَ الْخَوْفِ عَنّي[(١)].

⇒

تكن هذه الولاية شرعية، ومنها ولاية علي بن أبي طالب‌عليه السلام يوم الغدير التي أعلنها رسول الله‌صلى الله عليه وآله على المسلمين، بعد أن ذكّرهم بـ (ألست إلى بالمؤمنين من أنفسهم)، إشارة إلى آية الحجرات ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وإذا أقرّوا بذلك، ألزمهم بولاية الإمام علي‌عليه السلام من بعده، امتداداً لولايته فقال:«من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»، ثم تعاقبت هذه الولاية في حلقات متسلسلة في نجليه الحسن والحسين‌عليهما السلام، ثم في ذرية الحسين‌عليه السلام من آل بيت النبي‌صلى الله عليه وآله كابراً من بعد كابر، في حلقات متسلسلة متماسكة متعاقبة.

وبين الولايتين: الأصل والفرع فرقان أساسيان.

الفرق الأول: أن الولايات الفرعية، وهي ولايات الناس بعضهم على بعض تأتي في امتداد تلك الولاية المطلقة دائماً، وتكتسب شرعيتها منها بشكل صريح، ولولا هذا الامتداد الصريح لولاية الله، لا يمتلك أحد ولاية شرعية على أحد، إطلاقاً.

وما يقول الناس اليوم، من حق الناس في (المذاهب الديمقراطية) في تخويل بعضهم لبعض الولاية على أنفسهم ضمن الأنظمة الديمقراطية المعروفة لا يعتمد على أساس من العقل والدين والعلم قط. ولم يجد دعاة المذهب الديمقراطي لحد اليوم سنداً علمياً لإسناد هذه الولاية إلى الناس من دون إذن الله، سواء كان إذناً عاماً، أو إذناً خاصاً، لا فرق.

وهذه نقطة أساسية هامة في هذه المسألة نشير إليها ها هنا، وهي بحاجة إلى كثير من التوقف والتأمّل، وقد تحدثنا عنها في كتابنا (المدخل إلى حديث الغدير) بتفصيل.

والفرق الثاني ان كل ولاية فرعية محدودة بشأن من شؤون القيمومة على الإنسان، أما الولاية المطلقة التي لا حدود لها في القيمومة على الإنسان، فهي ولاية الله، التي لا يحدها شيء في التكوين والتشريع.

ومن الخطابات المحبّبة إلى الله تعالى من عباده (مولاي يا مولاي)، كما هي محببة إلى الصالحين من عباده، أن ينادونه بهذا الخطاب الجميل الرقيق الذي يعترف العبد به بولاية الله تعالى عليه في كل شيء، ثم يطلب منه ما يشاء من حاجاته بعد هذا الخطاب الرقيق.

(١) الدعاء والمناجاة خطابان من العبد إلى الله والفرق بينهما أن (الدعاء) خطاب استغاثة واستنجاد وفزع، و(المناجاة) خطاب واصل قريب بين الحبيب، لا جزع فيه ولا فزع.

الخطاب الاول عن هجر وقلى، والخطاب الثاني عن قرب ونجوى، كما هو الظاهر من اشتقاق كلمة المناجاة من النجوى المتبادلة بين حبيبين.

... في خطاب المناجاة يبث المحب شكواه إلى حبيبه عن أيام الهجر والبعد، ويقبل منه العتاب بعد

⇐

⇒

العتاب... فإن العتاب يذهب بالجفاء (لك العتبى حتى ترضى).
وفي خطاب الدعاء يرفع النداء والعويل، ويستغيث، ويستصرخ، ويستنجد، وينادي.
في الدعاء صراخ وهتاف، وفي المناجاة نجوى وهمس. في الدعاء تضرع والتماس، وفي المناجاة بث لشكوى الفراق، وقبول للعتاب. في الدعاء استنجاد وفزع، وفي خطاب المناجاة سكون واستقرار. في خطاب الدعاء شوق ولهفة عارمة، وفي خطاب المناجاة أنس وسكينة... وشتّان ما بينهما... ولكل منهما نكهة، ولا يغني أحدهما عن الآخر.
في الخطاب الأول (الدعاء) خوف وفزع للعاصين المستغفرين، وشوق ولهفة للمحبين عند الهجر والقلى.
وفي كل منهما حرقة. في الأول حرقة الفزع والخوف، وفي الثاني حرقة اللهفة والشوق.
وأما خطاب المناجاة ففيه برد السكون والأنس. برد السكون إلى عفو الله للعاصين الذين تقبّل الله توبتهم واستغاثتهم وآمنهم وآواهم عنده مأوى الآمنين، وبرد الوصال والوصول بعد الهجر والقلى، لمن تقبلهم الله بجواره ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾.
وكلاً منهما يحتاج العبد في سلوكه إلى الله تعالى، ولا يغني أي منهما عن الآخر.
ففي الطريق إلى الله لابد أن يتلوع السالك إلى الله بحرقة اللهفة والتضرع والاستغفار والإنابة والشوق، ولابد في الطريق إلى الله من برد السكون والوصول إلى جوار رحمة الله والأنس بلقاء الله.
نحن نجد في المأثور من أدعية أهل البيت عليهم السلام استغاثة الدعاء وتضرعه، وسكون المناجاة في الخلوات وأنسه.
ومثال الأول في كلمات زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في دعاء (الحزين): (مولاي يا مولاي، أي الأهوال أتذكر، وأيها أنسى، ولو لم يكن إلاّ لموت لكفى، وكيف وما بعد الموت أعظم وأدهى، حتى متى وإلى متى، أقول لك العتبى مرة بعد أخرى، ثم لا تجد عندي صدقاً ولا وفاءً، فيا غوثاه ثم واغوثاه، بك يا الله، من هوى قد غلبني، ومن عدو قد استكلب عليّ، ومن دنيا قد تزينت لي، ومن نفس أمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي.. يا قابل السحرة اقبلني، ارحمني يوم آتيك فرداً شاخصاً إليك بصري، مقلداً عملي، قد تبرّأ جميع الخلائق مني، نعم، وأبي وأمي، ومن كان له سعيي، فإن لم ترحمني فمن يرحمني، ومن يؤنس في القبر وحشتي، ومن يُنطق لساني إذا خلوت بعملي، وساءلتني عما أنت أعلم به مني، فإن قلت: نعم، فأين المهرب من عدلك، وإن قلت لم أفعل. قلت ألم أكن الشاهد. فعفوك عفوك يا مولاي قبل سرابيل القطران. عفوك عفوك يا مولاي قبل جهنم والنيران. عفوك عفوك يا مولاي قبل أن تُغلّ الأيدي إلى الأعناق).
ومثال الثاني في كلمات زين العابدين عليه السلام من المناجاة :

⇐

⇒

«الـهي فَاجْعَلْنا ممَّن اصْطَفَيْتَهُ لقُرْبكَ وَولايَتكَ، وَاَخْلَصْتَهُ لـوُدِّكَ وَمَحَبَّتـكَ، وَشَـوَّقْتَهُ إلـى لقائـكَ، وَرَضَّيْتَهُ بقَضائكَ، وَمَنَحْتَهُ بالنَّظَر إلى وَجْهكَ، وَحَبَوْتَهُ برضاكَ، وَاَعَذْتَهُ منْ هَجْـركَ وَقـلاكَ، وَبَوَّأْتَـهُ مَقْعَدَ الصِّدْق في جوارِكَ، وَخَصَصْتَهُ بمَعْرفَتكَ، وَاَهَّلْتَهُ لعبادَتكَ، وَهَيَّمْتَ قَلْبَـهُ لارادَتـكَ، وَاجْتَبَيْتَـهُ لمُشاهَدَتكَ، وَاَخْلَيْتَ وَجْهَهُ لَكَ، وَفَرَّغْتَ فُؤادَهُ لحُبِّكَ، وَرَغَّبْتَهُ فيـما عنْدَكَ، ... وَقَطَعْـتَ عَنْـهُ كُـلَّ شَيْء يَقْطَعُهُ عَنْكَ.

يا مُنى قُلُوب الْمُشْتاقينَ، وَيا غايَةَ آمال الْمحبّينَ، اَسْاَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحبُّكَ وَحُـبَّ كُـلِّ عَمَـل يُوصلُني إلى قُرْبكَ، وَاَنْ تَجْعَلَكَ اَحَبَّ الَيَّ ممّا سواكَ... وَامْنُنْ بالنَّظَر اِلَيْكَ عَلَيَّ، وَانْظُرْ بعَـيْن الْـوُدِّ وَالْعَطْف الَيّ...» إلى آخر المناجاة.

وبين خطاب الاستغاثة في المثال الأول، وحنين الأنس والحب في الثاني فرق واضـح... ولابـد للعبـد في مسيرة الكمال الـصاعدة إلـى الله مـن هـذا وذاك، ولا ينـال الإنـسان فـي حركتـه إلـى الله لقـاء الله ورضوانه ومعرفته وأنسه وجواره إلاّ بهذا الخطاب وذاك معاً، ينقلب من الخطـاب الأول إلـى الثـاني، وينقلب من الثاني إلى الأول.

إن في ذكر الله تعالى، والإقبـال عليـه عـيش القلـوب، كمـا ان فـي نـسيان الله والاعـراض عنـه مـوت القلوب. وللقلوب سلامة ومرض وموت كما للأبدان.

عن سلامة القلوب يقول تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨ – ٨٩).

وهذه القلوب هي التي امتحنها الله للتقوى ففازوا في الامتحان.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ (الحجرات: ٣).

وإمارة سلامة القلوب الطمأنينة والسكينة.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ﴾ (الرعد: ٢٨).

والوجل من الله.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال: ٢).

وهناك القلوب المريضة ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً﴾ (البقرة: ١٠).

ومرض القلب من الرجس الذي يكتسبه المريض لقلبه، وإذا لـم يبادر إلى التعافي مـن هـذا الـرجس، يزيده الله رجساً إلى رجسه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً﴾ (التوبة: ١٢٥).

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً﴾ (البقرة: ١٠).

وهناك القلوب القاسية، وهي القلوب الميتة التي فقدت خاصية الأخذ والعطاء، وهي خاصية القلـوب

⇐

فَيا مَوْلايَ، وَيا مُؤَمَّلي وَيا مُنْتَهى سُؤْلي [(١)]، فَرِّقْ بَيْني وَبَيْنَ ذَنْبِيَ الْمانِعِ لي مِنْ لُزُومِ طاعَتِكَ [(٢)]، فَإِنَّما اَسْأَلُكَ لِقَديمِ الرَّجاءِ فيكَ، وَعَظيمِ الطَّمَعِ مِنْكَ، الَّذي

⇒

الحية السليمة.

يقول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٢).

هذه القلوب القاسية لا تأخذ ولا تعطي، وهي خاصية فقدان الحياة في القلوب.

إن ذكر الله عيش القلب، ونور القلب، ومهما كان الإنسان يذكر الله كان قلبه أكثر حيوية ونوراً، وأكثر عروجاً إلى الله.

وإذا مات قلب الإنسان فقد كل مواهب الله تعالى، فإن (القلب الجانحة)، كالقلب (الجارحة).

فإذا مات القلب الجارحة لدى الإنسان، مات سمعه، وبصره، وعقله، وأطرافه،وحواسه، ولم يقدر على شيء من الحركة.

كذلك القلب (الجانحة) إذا مات فقد الإنسان وعيه، وضميره، وبصيرته، وفؤاده، وقدرته على العروج إلى الله، ولم يبق له من الحياة إلاّ ما يتمتع به الدواب من الحياة. وأولئك شر الدواب.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ (الأنفال: ٢٢).

ومن يطلب حياة قلبه فعليه أن يصل قلبه بذكر الله، فإن ذكر الله حياة القلوب، والإعراض عن الله موت القلوب.

(١) ويا مؤملي ومنتهى سؤلي.

طلبات الإنسان كثيرة بعضها فوق بعض، ولكن كل سؤاله من الله، مهما كانت الوسائل التي تحرز له سؤله وطلبه.

وليس من سؤال وحاجة للإنسان يتحقق له من غير إذن الله.

وأعظم سؤال الإنسان من الله هو الله، ولن يسأل العباد من الله أعظم من هذا السؤال، فهو غاية سؤال السائلين وطلب الطالبين، وكل طلب الإنسان من عند الله ينفذ إلاّ إذا كان الإنسان يطلب الله من الله.

وهذا سؤال عريض مطلق لا حدّ له ولا غاية له... فيسأل العبد ربه أن يجعله من الشاكرين له، وأن يرزقه معرفته، وأن يرزقه مغفرته، وحبه، وخوفه، وعبادته، وتوحيده، وان يهبه كذلك شكر الله له، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، وأن يرزقه مغفرته، يا ﴿خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، وأن يرزقه ستره فهو خير الساترين.

(٢) إن الذنوب تحجب الإنسان عن معرفة الله وطاعة الله، وتعيقه عن العروج إلى الله، وهي إحدى اثنتين يعيقان الإنسان عن الله، والمعيق الثاني هو حب الدنيا والتعلق بها.

فإذا تحرّر الإنسان عن هذا وذاك، لم يحجبه عن الله حاجب، وكان أسرع شيء إلى رضوان الله

⇐

اَوْجَبْتَهُ عَلى نَفْسِكَ[١] مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ.

فَالأَمْرُ لَكَ، وَحْدَكَ لا شَريكَ لَكَ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيالُكَ وَفي قَبْضَتِكَ، وَكُلُّ شَيْءٍ خاضِعٌ لَكَ تَبارَكْتَ يا رَبَّ الْعالَمينَ[٢].

⇐

ورحمته ولقائه.

وقد ورد في مقدمة الدعاء الذي رواه كميل بن زياد رضي الله عنه، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تَهْتِكُ الْعِصَمَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تَحْبِسُ الدُّعاءَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ الْبَلاءَ**».

(١) أقدم رجاء العبد في الله، وأعظم طمعه منه، وهو سبحانه أوجب على نفسه هذه الرحمة الواسعة التي تجتذب رجاء الراجين في رحمته وطمع الطامعين في فضله وكرمه.

فهو سبحانه ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ (الأنعام: ١٢).

* * *

ويتحول الخطاب هنا من الخوف إلى الرجاء: (يا مؤملي)، و(يا منتهى سؤلي)، (إنما أسألك لعظيم الرجاء فيك)، وهو يناسب مقام المناجاة والقرب... والخطاب الصاعد إلى الله ينبغي أن يتحول من الخوف إلى الرجاء ومن الرغبة إلى الرهبة... إن الخطاب إذا كان يعكس لوناً واحداً من العلاقة بالله، لا يفتح منافذ قلب العبد جميعاً، وأمّا عندما يتحول من الخوف إلى الرجاء، ومن الرهبة إلى الرغبة والحب، ومن الشوق إلى الأنس، يكون ذلك أدعى لانفتاح منافذ القلب جميعاً على الله.

إن خطاب الخوف والرهبة حق، إلاّ أنه يلامس طرفاً من أطراف النفس، وخطاب الرجاء والرغبة يلامس طرفاً آخر من أطراف النفس، فإذا اجتمع في خطاب الإنسان لله تعالى: الرهبة، والرغبة، والخوف، والرجاء، والشوق، والأنس، والإنابة، والاخبات... كان الخطاب يلامس كل وتر وتر في نفس الإنسان.

(٢) وتتسلسل حلقات هذا الخطاب إلى التوحيد الخالص:

(فالأمر لك وحدك لا شريك).

يقول تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ**﴾ (آل عمران: ١٥٤).

«**والخلق كلهم عيالك، وفي قبضتك، وكلّ شيء خاضع لك تباركت يا رب العالمين**».

يقول تعالى: ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الأعراف: ٥٤).

وهذه الرقائق التوحيدية في نهاية هذا المقطع من دعاء الإمام عليه السلام تعميق لحالة الرهبة والرغبة في نفس العبد إلى الله.

الهي ارْحَمْني اذَا انْقَطَعَتْ حُجَّتي وَكَلَّ عَنْ جَوابِكَ لِساني، وَطاشَ عِنْدَ سُؤالِكَ ايّايَ لُبّي [(١)].

---

(١) هذا هو موقف الحساب والسؤال، وهو من المواقف الصعبة يوم القيامة.

وفي موقف الحساب تنقطع حجج الإنسان، ولا تبقى له حجة بين يدي رب العالمين، لأن كتابه وحسابه معه في ذلك اليوم الرهيب.

﴿وكُلَّ إنسَان أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِه ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة كتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً* اقْـرَأْ كَتَابَـكَ كَفَـى بِنَفْسكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (الإسراء: ١٣ — ١٤) .

يومئذ يقرأ الإنسان بنفسه كتابه، ويحاسب نفسه، فلا يجد سبيلاً للهروب من كتابه وحسابه.

ويقول المجرمون يومئذ: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَال هَذَا الْكتَاب لَا يُغَادرُ صَغيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَملُوا حَاضراً وَلَا يَظْلمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف: ٤٨).

والناس يومئذ ثلاثة: فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه، وأولئك هم المؤمنون الذين ينقلبون إلى رحمة الله مسرورين بما يرزقهم الله من رحمته.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتيَ كتَابَهُ بِيَمِينـه* فَـسَوْفَ يُحَاسَـبُ حِـسَاباً يَـسِيراً* وَيَنقَلِـبُ إِلَـى أَهْلـه مَـسْرُوراً﴾ (الانشقاق: ٧ — ٩).

ومنهم من يلقى كتابه بشماله، وأولئك المذنبون المجرمون، الذين يتمنون يومئذ أن تكون موتتهم هي القاضية عليهم.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتيَ كتَابَهُ بشمَاله فَيَقُولُ يَا لَيْتَني لَمْ أُوتَ كتَابِيهْ* وَلَمْ أَدْر مَا حسَابِيهْ* يَـا لَيْتَهَـا كَانَـت الْقَاضيَةَ* مَا أَغْنَى عَنِّي مَاليهْ* هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانيهْ﴾ (الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩).

وشر من هذه الطائفة من المجرمين من يلقى إليه كتابه من وراء ظهره، أولئك يدعون ثبوراً، ويصلون سعيراً.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتيَ كتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِه* فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً* وَيَصْلَى سَعيراً* إِنَّهُ كَانَ في أَهْله مَسْرُوراً﴾. (الانشقاق: ١٠ ـ ١٣).

ولا يخفى يوم القيامة على الله تعالى شيء من أمر الإنسان، ولا يستطيع أن يخفي على الله تعالى خافية من أعماله.

﴿يَوْمَئذ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى منكُمْ خَافيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٨).

والله سريع الحساب.

﴿ليَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحسَابِ﴾ (إبراهيم: ٥١).

وهو موقف السؤال الرهيب.

⇐

فَيا عَظيمَ رَجائي، لا تُخَيِّبْني اِذَا اشْتَدَّتْ فاقَتي، وَلا تَرُدَّني لِجَهْلي، وَلا تَمْنَعْني لِقلَّة صَبْري، اَعْطِني لِفَقْري، وَارْحَمْني لِضَعْفي [1].

⇒

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٢ – ٩٣).

﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٣).

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨) .

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤).

وهذا هو الموقف الذي يقول عنه الإمام زين العابدين عليه السلام: «**وكلّ عن جوابك لساني، وطاش عند سؤالي لبّي**».

(١) إن الله تعالى كما يعطي الإنسان بعمله وجهده، كذلك يعطيه لفقره وضعفه وحاجته.

ورحمة الله تنزل على مواضع الطاعة والعمل والجهد والإخلاص، والتقوى، كما ينزل على مواضع الفقر والحاجة والضعف.

فإذا لم يجد العبد في عمله وجهده موضعاً يليق بهبوط رحمة الله، وهو كذلك، طلب من الله تعالى أن يعطيه لفقره وضعفه وحاجته.

ولكي يجتذب العبد رحمة الله تعالى بفقره وحاجته وفاقته لابد أن يكون إحساسه بالفاقة والفقر إلى الله إحساساً حقيقياً واقعياً، وليس تظاهراً بالفقر والحاجة فقط.

والله تعالى يعطي عباده بالطاعة والاعمال الصالحة، كما يرزقهم المغفرة بسيئاتهم وذنوبهم. ولكن شرط الأول أن لا يأخذ العبد (العجب) بأعماله، فإن العجب يفسد العمل ويحبطه، وشرط الثاني أن يشعر بالندم والخجل من سوء أعماله شعوراً حقيقياً، عندئذ تستنزل الطاعة والأعمال الصالحة رحمة الله تعالى من خزائن رحمته الواسعة، وتستنزل ذنوبه وسيئاته – إذا اقترنت بالتوبة الصادقة والندم والخجل – مغفرته ورحمته ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠).

وكان من مناجاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في مسجد الكوفة... في ظلمات الليل:

«**مولاي يا مولاي أنت المولى وأنا العبد، وهل يرحم العبد إلاّ المولى. مولاي يا مولاي أنت المالك، وأنا المملوك؟ وهل يرحم المملوك إلاّ المالك؟ مولاي يا مولاي أنت العزيز وأنا الذليل، وهل يرحم الذليل إلاّ العزيز؟ مولاي يا مولاي أنت العظيم وأنا الحقير، وهل يرحم الحقير إلاّ العظيم؟ مولاي يا مولاي أنت القوي وأنا الضعيف، وهل يرحم الضعيف إلاّ القوي؟ مولاي يا مولاي أنت الغني وأنا الفقير، وهل يرحم الفقير إلاّ الغني... الخ الدعاء**».

وكذلك يعطي الله تعالى عبده بفقره، وحاجته، وضعفه، وذله، وفاقته، ومرضه، وذنوبه التي ندم منها

⇐

سَيِّدي عَلَيْكَ مُعْتَمَدي ومعوّلي (١) ورَجائي...

⇒

وتاب عنها.

(١) هذه سلسلة من تعلقات العبد وعلاقته بالله تعالى، والأساس الذي تصدر عنه هذه العلاقات هو العبودية والفقر إلى الله.

حقيقة العبودية:

وحقيقة العبودية إلى الله هو الفقر إلى الله.

وهذا الفقر فقر شامل مطلق في كل شيء، من دون استثناء.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ (النحل: ٧٥).

﴿عَبْداً مَّمْلُوكاً﴾ لا يملك شيئاً و﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

وهاتان الكلمتان تبلوران حقيقة العبودية بشكل كامل.

ولا أعرف تحديداً للفقر أبلغ من هاتين الكلمتين (لا يملك ولا يقدر).

حقيقة تعلق العبد بالله:

وتعلّق العبد بالله عندما يكون قائماً على أساس الفقر إلى الله يكون من (الإضافة الإشراقية)، وليس من (الإضافة المقولية) التي تتألف من (يتعلق) و(متعلّق) و(علاقة)، فيكون (المتعلق به) هو الله تعالى في الإضافة المقولية و(المتعلق) هو العبد و(العلاقة) هي العبودية والفقر، ويكون للأنا بروز وظهور وظلال، وهذه هي مصيبة الإنسان الكبرى.

وأما في الإضافة الإشراقية فلا وجود للمتعلّق، ولا يوجد إلاّ (المتعلق به) وهو الله تعالى و(العلاقة) وهي الفقر والعبودية.

الفقر إلى الله:

وفقر العبد إلى الله، كما قلنا فقر شامل مطلق في كل شيء فلا يملك العبد شيئاً من دون الله، ولا يقدر على شيء من دون الله.

فقر شامل في كل شيء، في وجوده، ونفسه، وعقله، وضميره، وقلبه، ووعيه، وإرادته، وفهمه، وحوله، وقوته، وحياته، واستقامته، وهدايته، وما رزقه الله من الأموال والأزواج والبنين والسلطان والموقع في الدنيا والآخرة، ليس يملك منها شيئاً، ولا يقدر على شيء منه، إلاّ ما ملّكه الله، ومكّنه الله منه ﴿ عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

المراحل الثلاثة للعروج إلى الله:

والفقر إلى الله معراج الإنسان إلى الله تعالى والانسان ينطلق للعروج إلى الله من هذه النقطة بالذات، وأية نقطة أخرى غير هذه النقطة لا تمكنه من العروج إلى الله.

⇐

وَتَوَكُّلي [١]، وَبِرَحْمَتِكَ تَعَلُّقي، وَبِفَنائِكَ اَحُطُّ رَحْلي، وَبِجُودِكَ اَقْصِدُ طَلِبَتي،

⇒

فالفقر إذن، قاعدة الانطلاق والعروج إلى الله.

ويتم عروج الإنسان إلى الله ضمن ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وعلي الفقر إلى الله

وإذا لم يدرك الإنسان فقره إلى الله لا يدرك سلطان الله وفضله ورحمته عليه.. ولا يتمكن الإنسان ان ينطلق في العروج إلى الله من غير ان يعي وعياً كاملاً شفافاً فقره وفاقته وحاجته إلى الله.

والمرحلة الثانية لهذه الحركة: التعلق والعلاقة بالله.

والتعلق بالله على أنحاء وصور مختلفة، منها: (الإيمان)، و(الرجاء)، و(الخوف)، و(الحب)، و(الأمل)، و(الأنس)، و(الشوق) وغير ذلك.

وكل من هذه الألوان من أنماط العلاقة بالله.

ولابد في العلاقة بالله من هذه الحزمة من الألوان وغيرها جميعاً ومن مجموعها يتألف طيف العلاقة بالله.

وهذه هي العلاقة السليمة بالله، أما العلاقة الوجدانية ذات اللون الواحد فهي علاقة غير متعادلة غالباً.

والمرحلة الثالثة في هذه المرحلة: حركة العبد النفسية إلى الله بالدعاء والسؤال من الله والتوكل على الله، وطاعة الله، وشكر الله.. فإن الدعاء والسؤال يتبعان الرجاء والأمل بالله، والتوكل على الله يتبع الثقة بالله وبسلطان الله وقوته، وطاعة الله تتبع الإيمان بألوهية الله لعباده، وشكر الله يتبع الإيمان بربوبية الله لعبده.. وهذه وغيرها نماذج من حركة العبد إلى الله.

وهذه الفقرة تشير إلى ذلك، وسوف يأتي توضيح وشرح لهذه الرحلة الربانية.

(١) هذه الفقرة مزيج رائع من التعلقات والأفعال النفسية، تمتزج مع بعض في هذه الرائعة العرفانية.

ولإيضاح هذا المعنى نقول:

إن الإنسان يمثل الفقر إلى الله والتعلق بالله والحركة إلى الله. وهذه وجوه ثلاثة لقضية واحدة نتحدث عنها بالتسلسل:

١- وعي الفقر إلى الله:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إلى اللَّه وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥).

والفقر هو حقيقة العبودية، ولا يدرك الإنسان العبودية إن لم يدرك الفقر. يقول تعالى في معنى العبودية:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ (النحل: ٧٥) .

وفي هذه الآية العبودية تتجسّد في هاتين الكلمتين: (مملوكاً لا يقدر على شيء)، نفي الملك ونفي

⇐

⇒

القدرة: لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، وهذا هو حقيقة الفقر: نفي الملك ونفي القدرة، في مقابل الأنانية والطغيان الذي هو دعوى الملك والقدرة.

﴿...إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: ٦ ـ ٧).

والأنانية والطغيان لا يعادلان الاستغناء بالملك والقدرة عن الله، وإنما يعادلان تخيّل الاستغناء عن الله. والتعبير هنا دقيق (أن رآه استغنى).

وبعكس ذلك الفقر، فإنه وعي ومعرفة وليس تخيلاً ووهماً.

ولا نعرف تعريفاً للفقر والمعرفة أفضل مما ورد في قوله تعالى: ﴿عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

وهذا الفقر شامل في حياة الإنسان، فهو لا يملك وجوده ولا نفسه ولا عقله وإرادته ولا المواهب التي أودعها الله في نفسه، ولا سلامته ولا الهدى ولا التقوى، ولا التوحيد. وإنما ذلك كله مما آتاه الله تعالى، وهو مالكه وخالقه، وصانعه وواهبه، وكلما وهبه الله من أموال وبنين وأزواج وموقع ونفوذ وسلطان ونعمة فهو أمانة من عند الله أودعها عنده، وجعله خليفة عليه.

فهو لا يملك شيئاً من دنياه وآخرته ومعاشه ومعاده، وإنما ذلك كله ملك لله.

ولا يقدر على شيء مما يقوم به إذا سلبه الله ما رزقه من القدرة، فلا يتحرك، ولا يتنفس، ولا يتعلم، ولا يأخذ، ولا يعطي، ولا يتزوج، ولا ينجب، ولا يفتح، ولا يغلق، ولا ينطق، ولا يأمر، ولا ينهى إلاّ بتقدير الله.

فهو من دون تمليك الله وتقديره لا شيء.

وتعلقه بالله من الإضافة الإشراقية، وليس من الإضافة المقولية - كما قلنا - فهو ليس شيئاً يتعلق بالله، وإنما هو محض التعلق بالله بخلاف الإضافة المقولية التي تتألف من شيئين اثنين يتعلق أحدهما بالآخر.

وكما لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء... كذلك لا يقدر على أن يدفع عن نفسه ضراً من مرض أو عدو أو قضاء سوء إلاّ بتقدير الله تعالى، وهذا هو الوجه الأول.

٢- التعلق النفسي بالله:

وإذا وعى الإنسان من نفسه هذه الحقيقة، وعرف أنه لا يملك شيئاً، ولا يقدر شيء من الخير، ولا دفع شيء من الضر عن نفسه إلاّ بالله تعالى... أقول: إذا وعى الإنسان هذه الحقيقة حق الوعي، ينقلب رجاؤه كله إلى الله وثقته بالله، ورغبته فيما عند الله، وخوفه من عند الله، وحبه لله، وشوقه وأنسه إلى الله، وهذا هو التعلق النفسي بالله، ولهذا التعلق وجهان: وجه إيجابي هو الثقة بالله، والرجاء والرغبة فيما عند الله، والخوف من عند الله. ووجه سلبي هو نفي الخوف من عند غير الله، (يخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله) ونفي الرجاء والرغبة إلى غير الله، إلاّ أن يكون في امتداد الرجاء والرغبة إلى

⇐

وَبِكَرَمِكَ اَيْ رَبِّ اسْتَفْتِحُ دُعائي، وَلَدَيْكَ اَرْجُو فاقَتي، وَبِغِناكَ اَجْبُرُ عَيْلَتي، وَتَحْتَ ظِلِّ عَفْوِكَ قِيامي، وَاِلى جُودِكَ وَكَرَمِكَ اَرْفَعُ بَصَري، وَاِلى مَعْرُوفِكَ اُديمُ نَظَري، فَلا تُحْرِقْني بِالنّارِ[1] وَاَنْتَ مَوْضِعُ اَمَلي، وَلا تُسْكِنِّي الْهاوِيَةَ، فَاِنَّكَ قُرَّةُ

⇐

الله وفي امتداد حب الله وفي امتداد مخافة الله.

وهو يؤول إلى الرجاء في الله والرغبة فيما عند الله والخوف من الله. وهذا هو الوجه الثاني للقضية المتقدمة.

٣- الحركة النفسية إلى الله:

وهذا هو الوجه الثالث لنفس القضية، وهو حركة النفس إلى الله... فإن النفس تتحرّك في امتداد تعلقاتها، فإذا تعلّقت ثقتها بالله وآمنت بقوته، وسلطانه توكلت على الله، وإذا كان رجاؤه وأمله في الله سأل الله تعالى وطلب منه ودعاه لا محالة. وإذا آمن بإلوهية الله أطاع الله، وإذا آمن بربوبية الله شكر الله، وإذا آمن بسلطان الله وأمره ونهيه وغضبه خاف الله، وإذا عرف قدرة الله على حمايته استعاذ بالله، ولجأ إلى الله... وهذه هي حركة النفس الىالله، وهي الوجه الثالث لنفس القضية.

ونعيد النظر مرة أخرى بالإجمال إلى هذه القضايا الثلاثة التي هي ثلاثة وجوه لقضية واحدة:

١- وعي الفقر إلى الله.

٢- التعلق النفسي بالله.

٣- التحرك النفس إلى الله.

وبعد هذا الإيضاح نستطيع أن نقرأ هذا النص من الرائعة العلوية للإمام علي بن الحسينعليه السلام فهو يصوّر لنا الوجه الثاني والثالث لوعي الفقر إلى الله.

والآن نتأمل في النص:

«سَيِّدي عَلَيْكَ مُعْتَمَدي وَمُعَوَّلي، وَرَجائي وَتَوَكُّلي، وَبِرَحْمَتِكَ تَعَلُّقي، وَبِفَنائِكَ اَحُطُّ رَحْلي، وَبِجُودِكَ اَقْصِدُ طَلِبَتي، وَبِكَرَمِكَ اَيْ رَبِّ اسْتَفْتِحُ دُعائي، وَلَدَيْكَ اَرْجُو فاقَتي، وَبِغِناكَ اَجْبُرُ عَيْلَتي، وَتَحْتَ ظِلِّ عَفْوِكَ قِيامي، إلى جُودِكَ وَكَرَمِكَ اَرْفَعُ بَصَري، إلى مَعْرُوفِكَ اُديمُ نَظَري.

أنت ثقتي ومآلي ورجائي، وموقع توكلي، وأنا متعلق برحمتك وبساحة رحمتك أنزل (أحط رحلي) وأقصد طلبتي ثقة بجودك وكرمك، وافتتح دعائي وطلبتي باسمك وعندك - وحدك - أطرح فاقتي وفقري وأرجو منك أن تغنيني وتدفع فاقتي ... الخ».

(١) ثم يقولعليه السلام في نفس السياق:

«فَلا تُحْرِقْني بِالنّارِ وَاَنْتَ مَوْضِعُ اَمَلي، وَلا تُسْكِنِّي الْهاوِيَةَ فَاِنَّكَ قُرَّةُ عَيْني، يا سَيِّدي لا تُكَذِّبْ ظَنّي

⇐

عَيْني.

يا سَيِّدي لا تُكَذِّبْ ظَنّي بِاِحْسانِكَ وَمَعْرُوفِكَ فَاِنَّكَ ثِقَتي، وَلا تَحْرِمْني ثَوابَكَ، فَاِنَّكَ الْعارِفُ بِفَقْري.

اِلهي اِنْ كانَ قَدْ دَنا اَجَلي [1] وَلَمْ يُقَرِّبْني مِنْكَ عَمَلي فَقَدْ جَعَلْتُ الاْعْتِرافَ

⇒

بِاِحْسانِكَ وَمَعْرُوفِكَ فَاِنَّكَ ثِقَتي، وَلا تَحْرِمْني ثَوابَكَ فَاِنَّكَ الْعارِفُ بِفَقْري».

وهل يمكن أن يخيب الله تعالى أمل عبد يضع أمله ورجاءه كله في رحمة الله... فيحرقه الله بالنار بذنوبه وسيئاته؟

وهل يمكن ان يقابل الله تعالى هذا الأمل الذي وضعه في قلب عبده فيخيّب أمله، ويؤاخذه بذنوبه ويحرقه بالنار؟

وهل يمكن أن يسكن عبده الهاوية(*)يتعذب فيها، وهو يحب ربه تبارك وتعالى، ويضع فيه كل رجائه وأمله وحبه، وهو تعالى قرة عينه؟ (* الهاوية - أعاذنا الله - من دركات الجحيم، وهو منزل الذين تخف موازين أعمالهم الصالحة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ القارعة/ ٨ - ٩)

(١) يعلمنا الإمام عليه السلام أن نناجي الله تعالى فنقول: «اِلهي اِنْ كانَ قَدْ دَنا اَجَلي، وَلَمْ يُقَرِّبْني مِنْكَ عَمَلي...» فإني ألجأ إلى وسيلة أخرى، تقربني منك وهي الاعتراف بالذنوب والسيئات فإن لدى العبد وسيلتين إلى الله:

الوسيلة الأولى: العمل الصالح وهو وسيلة الصالحين، وإذا دنا أجل العبد، ولم يجد في حياته من الأعمال الصالحة ما يقربه إلى الله، فلا يبقى لديه إلاّ الوسيلة الأخرى، وهي الاعتراف بالذنوب والسيئات.

ومن عجب أن الاعتراف بالذنوب والسيئات يقرب الإنسان إلى الله، كما تقرب الأعمال الصالحة صاحبها إلى الله... إلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠) .

والآية الكريمة واضحة في أن الله تعالى يبدل سيئات عباده حسنات.

ولكن كيف؟

الآلية التي تتحول بها السيئات إلى الحسنات هي الاستغفار والاعتراف.

ومآل الاعتراف إلى الاستغفار.

والسؤال الثاني والثالث: ما هو حدود الاعتراف؟ وكيف يُقرّب الاعتراف صاحبه إلى الله؟

إن الاعتراف إلى الله ليس لكي نُسمع الله ذنوبنا، فإن الله تعالى يعلم بسيئاتنا وذنوبنا اعترفنا له أم لم

⇐

⇒

نعترف.

وإنما الغاية من هذا الاعتراف أن نشعر أنفسنا بذل المعصية بين يدي رب العالمين.

فإن العبد إذا استعرض بين يدي الله ذنوبه وسيئاته، يعترف بها ذنباً بعد ذنب، وسيئة بعد سيئة. ويشعر بذل المعصية بين يدي الله.

والاستشعار بذل المعصية بين يدي الله يمنح الإنسان عزماً على الكف عن المعصية، ويشعره بقبح الذنب والتجري على الله.

وهذه النقاط جميعاً من منازل رحمة الله.

فإن رحمة الله تعالى هابطة باستمرار واتصال، ولا تنقطع هذه الرحمة... ولهذه الرحمة منازل تنزل الرحمة عندها، وبعكس ذلك هناك مواقع في حياة الناس نائية عن رحمة الله.

فمن الناس من يعرف منازل الرحمة الإلهية فيضعون أنفسهم في هذه المنازل، فتصيبهم رحمة الله، كل بقدر وعائه النفسي والعقلي. ومن الناس من يعيش نائياً عن منازل رحمة الله، فلا تصيبه رحمة الله إلاّ بقدر محدود يشمل الناس جميعاً، مما لابد لهم منه في دنياهم.

وليس العجز في رحمة الله ولا شح في رحمة الله، وإنما الناس يختلفون في القرب والبعد من رحمة الله وتختلف أوعيتهم النفسية والعقلية في النيل من رحمة الله.

ومآل اختلاف أوعية الناس في النيل من رحمة الله هو موضعهم من منازل رحمة الله، فكلما يكون مواضعهم أقرب إلى منازل رحمة الله تزداد وعاء نفوسهم وعقولهم في النيل من الرحمة الإلهية.

فالشأن كل الشأن إذن في نيل رحمة الله، هو معرفة منازل الرحمة والحصول عندها.

منازل الرحمة:

ومنازل رحمة الله كثيرة.

فالعبودية والذل بين يدي الله من منازل الرحمة، والاستكبار والأنانية تحجب الإنسان عن منازل الرحمة.

ومهما كان العبد يشعر بالذل بين يدي الله يكون أقرب إلى منازل رحمة الله.

ووعي فقر العبد إلى الله من منازل رحمة الله، وتخيل الاستغناء عن الله والطغيان يبعد الإنسان عن منازل رحمة الله، والإيمان من منازل الرحمة، والكفر والشرك يبعدان الناس من منازل رحمة الله.

والعلم والمعرفة من منازل رحمة الله.

والجهالة تبعد الإنسان من رحمة الله.

والأدب من منازل رحمة الله.

وسوء الأدب يبعد الإنسان من رحمة الله.

⇐

⇐

والإيثار من منازل الرحمة والإثرة تبعد الإنسان عن منازل رحمة الله.

والشكر من منازل الرحمة، والكفران يبعد الإنسان عن منازل رحمة الله.

والقناعة من منازل الرحمة.

والطمع والجشع يبعدان الإنسان عنها.

والبكاء وانكسار القلوب من منازل الرحمة، والفرح والحبور يبعدان الإنسان عن منازل الرحمة.

والطاعة من منازل رحمة الله، والمعصية تبعد صاحبها عن منازل الرحمة.

والسؤال من الله والدعاء من منازل الرحمة.

والاستكبار من الله يبعد الإنسان عن رحمة الله.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠) .

والرقة من منازل الرحمة، وقسوة القلوب تبعد الإنسان عن رحمة الله.

وقصر الأمل في الدنيا يقرب الإنسان من منازل الرحمة.

وطول الأمل يبعد الإنسان عن رحمة الله.

وذكر الله من منازل الرحمة.

والإعراض عن ذكر الله يبعد الإنسان عنها.

والذكر من منازل الرحمة، والغفلة تبعد الإنسان عن منازل الرحمة.

ومصاحبة الصالحين من منازل الرحمة.

وصحبة الظالمين والفاسقين تبعد الإنسان عن رحمة الله.

كيف تنقلب السيئة إلى الحسنة، وتنقلب الحسنة إلى السيئة؟

وبناء على التقرير المتقدم: الاعتراف بالذنب من منازل الرحمة، لأن العبد يستشعر بذل المعصية بين يدي الله عند الاعتراف... وهذا التذلل يشعر الإنسان بقبح المعصية والخجل من ارتكاب الذنب والعزم على التوبة. وهذه جميعاً من منازل الرحمة، تجعل صاحبها عند منازل رحمة الله، فتنقلب السيئة التي يعترف بها صاحبها بين يدي الله إلى الحسنة، لأن الاستغفار والتذلل بين يدي الله، واستشعار الخجل والخوف من معصية الله... كل ذلك حسنات... وهذا هو معنى انقلاب السيئات إلى الحسنات. ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠) . والله أعلم بآياته وكتابه.

وبالعكس قد تنقلب الحسنات إلى السيئات وذلك عندما تبعث الحسنات (العجب) التي في نفس صاحبها، أو يقصد بها صاحبها ابتغاء مرضاة الناس (الرياء). فتتحول الحسنة بالعجب والرياء إلى السيئة، كما تتحول السيئة بالاعتراف والاستغفار إلى الحسنة.

⇐

⇐

إن العبد إذا أتى الله واعياً لعجزه وفقره إلى الله، شاعراً لذله، وصغاراً بين يدي الله، حلّ في المنازل التي تحلّ فيها رحمة الله، وإذا أتى الله بأنانيته وذاته مُعجباً بعمله ونفسه حُجب عن الله.

فإن منازل الرحمة منازل المخبتين والفقراء إلى الله والواعين لفقرهم وفاقتهم وذلهم وصغارهم بين يدي الله.

وفي الدعاء الذي علّمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب‏عليه السلام لكميل، نقرأ هذه الفقرات المربيّة التي تعلمنا كيف نأتي الله:

«وقد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي على نفسي، معتذراً، نادماً، منكسراً، مستقيلاً، مستغفراً، منيباً، مُقرّاً، مذعناً، معترفاً، لا أجد مفراً مما كان مني، ولا مفزعاً أتوجه إليه في أمري، غير قبولك عذري».

كذلك ينبغي أن يكون قدوم العبد إلى الله: يعرف أن ليس له مفرّ ولا مفزع مما كان منه في الحياة الدنيا من الذنوب والسيئات إلاّ الله، ويشعر بالاضطرار إلى الله في مصائبه العظيمة. والاضطرار إلى الله هو حالة من لا يعرف لنفسه غير الله تعالى ملجأ ومفزعاً... وهؤلاء هم الذين يستجيب لهم الله في مصائبهم ومحنهم **﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾** (النمل: ٦٢) .

رحلة العبد الصالح ذي النون إلى الله

ومن خلال الصورة التي يرسمها القرآن الكريم لرحلة العبد الصالح ذي النون إلى الله تعالى نتعلم كيف ينبغي أن يكون قدوم العبد إلى الله.

يقول تعالى: **﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** (الأنبياء: ٨٧ – ٨٨) .

لقد غادر ذو النون‏عليه السلام قومه (مغاضباً) عليهم لأنهم لم يؤمنوا بالله، وشاقوه، وجادلوه، وأعرضوا عن دعوته، داعياً عليهم بالعذاب من عند الله، **﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً﴾**، وظن أن لن يضيق الله عليه لنفاذ صبره من تحمل مشاكسات قومه وعذابه (فظن أَن لن نقدر (نضيق) عليه).

فلما التقمه الحوت نادى في الظلمات (ثلاث ظلمات: بطن الحوت، وظلمات البحر، وظلمة الليل):

لا إله إلاّ أنت.

سبحانك.

إني كنت من الظالمين.

فاستجاب له ربه ونجاه من بطن الحوت.

وكانت رحلة العبد الصالح ذي النون إلى الله من بطن الحوت، من خلال كلمات ثلاثة يذكرها

⇐

⇐
القرآن، نتعلمها منه عليه السلام في رحلة العودة إلى الله.
وهذه الكلمات الثلاثة هي:
لا إله إلاّ أنت.
سبحانك.
إني كنت من الظالمين.

الكلمة الأولى:

﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ﴾

(لا إله إلاّ أنت)... وهذا هو توحيد المفزع والمفر، حيث لا يجد الإنسان في مصائبه مفزعاً ومفراً إلاّ الله، يقول أمير المؤمنين عليه السلام – فيما علّم كميل من الدعاء: **(لا أجد مفراً، ولا مفزعاً مما كان مني إلاّ قبولك عذري)**. وتوحيد المفزع والمفر من شعب التوحيد، شأنه شأن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الخلق، وتوحيد الدين... كذلك توحيد المفر والمفزع من شعب التوحيد.

وهذا التوحيد هو معنى الاضطرار إلى الله، الذي تشير إليه آية سورة النمل **﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾**.

ولكي يحلَ العبد في المنازل التي تحل فيها رحمة الله، لابد له من أن يحمل معه في هذه الرحلة حالة الاضطرار إلى الله.

الكلمة الثانية

﴿سُبْحَانَكَ﴾ ... وهذه هي الكلمة الثانية، تنزيه الله تعالى عن كل سبب لاعتراض العبد، فهو العادل الرحمن الرحيم. الذي لا يمسّ عبده بظلم، ولا يحل لعبد يريد أن يأتي الله ويحلّ في محال رحمته أن يحمل معه حالة الاعتراض على الله، لما أصابه... وكثير من الناس يحملون في طيات نفوسهم اعتراضاً مكتوماً على الله، أولئك لا يقدرون أن يحلّوا في منازل رحمة الله، بما يختزنون في نفوسهم من الاعتراض المكتوم على قضاء الله وقدره.

والقلوب السليمة الراضية بقضاء الله وقدره، المؤمنة بأن ما يصيب الإنسان من سوء في هذه الدنيا أو في الآخرة فهو بما كسبت يداه... تلك القلوب هي التي تحلّ في منازل رحمة الله، وتصيب منها.

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: ٣٠).

وما لم يسلم القلب من عقدة الاعتراض على الله لا يحل في محال رحمة الله.

وهذا هو معنى (سبحانك) في رحلة ذي النون عليه السلام إلى الله.

الكلمة الثالثة

﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾... وهذه هي كلمة الاعتراف. لم يجادل ذو النون عليه السلام، ولم يكابر، ولم
⇐

⇒

يبرّر بين يدي الله غضبه على قومه، ودعائه عليهم، وحاشاه عن ذلك، وإنما اعترف لله سبحانه وتعالى، بما كان منه، مما كان ينبغي إلاّ يرتكبه من التعجل في الدعاء على قومه... وسلام الله على يونس بن متى ذي النون، لقد عصمه من الزلل والخطأ، ولكن ارتكب في التعجل على قومه بالدعاء عليهم، ما كان ينبغي لمثله أن لا يتعجل به.

وهذا الاعتراف هو خير ما يأخذه العبد معه إلى الله. وهو خير ما ينزل به العبد في منازل رحمة الله، ولو كان العبد يكابر ويجادل. ﴿وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف: ٥٤) . ويبرر لنفسه الخطأ... فإن هذه المكابرة والمجادلة والتبرير تبعده عن منازل الرحمة، لأن المكابرة والمجادلة والتبرير بين يدي الله تحمل معنى الاستكبار والأنا والأنانية، ولا شيء يحجب الإنسان عن الله مثل الاستكبار، والأنا والأنانية.

وهذا الاعتراف يتضمن معنى الاستكبار والاعتذار... ولا نجد في آية ذي النون استغفاراً، ولكننا نجد فيها ذل اعتراف العبد الصالح بين يدي الله.

وسرعان ما حلّ ذو النون عليه السلام بهذه الكلمات في منزل الرحمة والاستجابة والنجاة.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ (الأنبياء: ٨٨) .

ولا يختص هذا القانون بالعبد الصالح ذي النون، وإنما يعم كل من يستجير بالله، ويلوذ بالله ببضاعة الاعتراف والذل والفقر بين يدي الله.

﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أحاديث في الاعتراف بالذنوب

في أصول الكافي عن علي الأحمس، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**والله ما ينجو من الذنب إلاّ من أقرّ به**» (أصول الكافي ٢ / ٤٢٦، كتاب الإيمان والكفر/ باب الاعتراف بالذنوب).

وعن ابن فضال عمّن ذكره، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**لا والله ما أراد تعالى من الناس إلاّ خصلتين: أن يقروا له بالنعم فيزيدهم، وبالذنوب فيغفرها لهم**» (أصول الكافي ٢ / ٤٢٦، كتاب الإيمان والكفر/ باب الاعتراف بالذنوب).

وعن علي بن إبراهيم بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال سمعته يقول: «**إن الرجل ليذنب، فيدخله الله الجنة. قلت: يدخله الله بالذنب الجنة؟ قال: إنه ليذنب، فلا يزال منه خائفاً، ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله فيدخله الجنة**» (أصول الكافي ٢ / ٤٢٧، كتاب الإيمان والكفر/ باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها).

وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**إنه والله ما خرج عبد من ذنب بإصرار، وما خرج عبد من ذنب إلاّ بإقرار**» (أصول الكافي ٢ / ٤٢٧، كتاب الإيمان والكفر/ باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها).

⇐

اَلَيْكَ بِذَنْبي وَسائِلَ عِلَلي.

اِلهي اِنْ عَفَوْتَ فَمَنْ اَوْلى مِنْكَ بِالْعَفْوِ، وَاِنْ عَذَّبْتَ فَمَنْ اَعْدَلُ مِنْكَ فِي الْحُكْمِ (١).

⇒

التعجيل في الاعتراف بالذنوب

وعلى العبد أن يتعجل في الاعتراف بالذنوب، فإن الاعتراف النافع هو الاعتراف في الدنيا.

أما في الآخرة، فلا ينفعه، ولا يجديه الاعتراف، حيث تشهد عليه يداه وقدماه ولسانه وسمعه وبصره.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور: ٢٤).

عندئذ لا ينفعه الاعتراف.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١١).

﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (غافر: ١١).

وعلى العبد أن يتعجل في الاعتراف ما دام الاعتراف ينفعه، فإن الاعتراف بعد الموت يؤخذ منه قهراً، ولا ينفعه الإنكار والمكابرة، كما مرّ، ولا ينفعه الاعتراف يومئذ.

(١) إن الله تعالى عادل، لا أعدل منه، ورحيم لا أرحم منه، حكيم يضع كُلا في موضعه، العدل في موضع العدل، والرحمة في موضع الرحمة.

ولكن رحمته تغلب عدله.

ونحن نعوذ برحمته من عدله، ونسأله أن يعاملنا برحمته ولا يعاملنا بعدله.

فإذا عفى الله تعالى عن ذنوب عباده فهو من رحمته بعباده، وإن عذب الله عباده فهو من عدله...

والحمد لله الذي لا يخشى الناس إلاّ عدله.

* * *

والإمامعليه السلام يخاطب الله تعالى بهذا الخطاب الرقيق بين العدل والرحمة... ويقول بأنك إذا عاقبت عبدك فليس لأحد أن يعترض عليك، لأنك لا تعدو العدل في عذابك وعقابك ولا أعدل منك، وإن عفوت عنه فبرحمتك وفضلك.

ونحن عبيدك نطلب منك أن تعاملنا برحمتك دون عدلك، لأنك تأمر عبادك بالعفو والفضل والرحمة، وتحب العفو والفضل والرحمة.

وقد قلت: ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

فمن يكون أولى منك بالفضل والعفو والرحمة (إلهي إن عفوت فمن أولى منك بالعفو). يقول تعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ٤٠).

⇐

ارْحَمْ في هذه الدُّنيا غُرْبَتي، وَعِنْدَ الْمَوْتِ كُرْبَتي، وَفي الْقَبْرِ وَحْدَتي، وَفي اللَّحْدِ وَحْشَتي، وَاذا نُشِرْتُ لِلْحساب بَيْنَ يَدَيْكَ ذُلَّ مَوْقفي، وَاغْفِرْ لي ما خَفِيَ عَلَى الْآدَمِيّينَ مِنْ عَمَلي، وَاَدِمْ لي ما بِه سَتَرْتَني، وَارْحَمْني صَريعاً عَلَى الْفِراشِ تُقَلِّبُني اَيْدي اَحِبَّتي، وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ مَمْدُوداً عَلَى الْمُغْتَسَلِ يُقَلِّبُني صالِحُ جيرَتي، وَتَحَنَّنْ عَلَيَّ مَحْمُولاً قَدْ تَناوَلَ الْأَقْرِباءُ اَطْرافَ جَنازَتي، وَجُدْ عَلَيَّ مَنْقُولاً قَدْ نَزَلْتُ بِكَ وَحيداً في حُفْرَتي، وَارْحَمْ في ذلِكَ الْبَيْتِ الْجَديدِ غُرْبَتي، حَتّى لا اَسْتَاْنِسَ بِغَيْرِكَ[١].

⇐

هؤلاء يجعل الله لهم على نفسه أجراً (فأجره على الله)، وقد جاء في الرواية: (إذا جاء يوم القيامة نادى منادٍ: من كان له على الله أجر فليقم، فيقوم جمع فتسألهم الملائكة: وما هو أجركم على الله؟ فيقولون: نحن قوم كنا نعفو عمّن ظلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة بغير حساب).

(١) هذه مواضع ضعف الإنسان وكربته من الدنيا إلى الآخرة... وفي هذه المواضع يحسّ الإنسان بفقره وفاقته الشديدة إلى الله، ويسترحم الله... يستعرضها الإمام علي بن الحسين موضعاً بعد موضع ليذكّرنا بمواقع الضعف والعجز والكرب في حياتنا، ويوجهنا فيها إلى الله.

ولكي يتوجّه الإنسان إلى الله، ويطلب الرحمة، بكل جهده النفسي من عند الله، لابد له أن يتذكر محطات الضعف والعجز والفاقة والكرب في دنياه وآخرته.

ولا تبتدئ مواقع الضعف والعجز في حياة الإنسان عند الموت، وإنما يواجهها الإنسان منذ حياته في الدنيا، عندما تشتد به الأزمات، فيتخلى عنه أقرب الناس إليه، ويملّونه، فيشعر عندئذ بالغربة، وهو وسط أهله وأصدقائه وأقربائه، فيلجأ العبد فيها إلى الله (ارحم في هذه الدنيا غربتي)، ثمّ كربته الكبيرة عند الموت، عند مفارقة الدنيا، وهي أصعب ساعات الإنسان في حياته يشهد احتضار نفسه، وخروجه من الدنيا، وينتزعه الموت في لحظة واحدة عن كل تعلقاته، من أزواج، وبنين، وأموال، وعلاقات.

وساعة رهيبة الساعة التي يختم بها الإنسان حياته. وأن الإنسان يقرأ آيات سورة القيامة عن اللحظة التي يفارق فيها الإنسان هذه الدنيا فيمتلأ قلبه رُعباً وهولاً:

﴿**كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ* وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ* وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ* وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ* إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**﴾ (القيامة: ٢٦ – ٣٠).

ثم وحشة القبر واللحد، عندما ينصرف عنه مشيعوه، ويتركوه لوحده في حفرة القبر.

⇐

⇐

ثم ذل موقفه في الحساب عندما يعرض على الله تعالى بسيئاته وآثامه، فلا يعلم ماذا يصنع الله به، يعاقبه ويعذبه وهو العدل الحكيم شديد العذاب، أم يعفو عنه وهو أرحم الراحمين.

يوم يتساقط عن الإنسان ما ستره الله تعالى به في الدنيا، ويبرز الإنسان أمام الأنبياء والأولياء، وعباد الله الصالحين عليهم السلام عارياً مكشوفاً بكل عوراته وسوءاته، ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (الطارق: ٩).

ويا فضيحة الإنسان إذا برز عارياً بكل سوءات أعماله وعوراته التي كانت خافية على المؤمنين من قبل، فيشهدونه بأقبح صورة وينفرون منه، ويطردونه من حلقاتهم وأوساطهم.

... فيسأل الله تعالى ـ لهذه الحالة ـ أن يرحمه، ويغفر له سيئات عمله، ويحاسبه حساباً يسيراً، ويتجاوز عنه بكرمه، ويسدل عليه ما كان يستر به قبائح أعماله في الدنيا، فإن الستّار في الدنيا ستار في الآخرة..

عن الإمام زين العابدين عليه السلام:

«أشد ساعات ابن آدم ثلاث ساعات: الساعة التي يعاين فيها ملك الموت، والساعة التي يقوم فيها من قبره، والساعة التي يقف فيهابين يدي الله تبارك وتعالى، فأما إلى الجنة وإما إلى النار» (الخصال ١١٩ / ١٠٨).

وعن الإمام الرضا عليه السلام:

«إن أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد من بطن أمه فيرى الدنيا، ويوم يموت، فيعاين الآخرة، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا» (عيون أخبار الرضا ١ : ٢٥٧ / ١١).

ثم يعود الإمام عليه السلام ليستعرض أمامنا مشاهد أخرى من كربة الإنسان وعجزه وضعفه: **«وارحمني صريعاً تقلبني أيدي أحبتي»**، حين يشتد به العجز والضعف، فلا يستطيع أن يتقلب على فراشه إلاّ أن يقلبه أهله وأحبته، وحين يقلّبه أصدقاؤه وصالح جيرته على المغتسل: **«وتفضّل عليّ ممدوداً على المغتسل تقلّبني أيدي أحبتي.. الخ»**.

تذكر لحظات الضعف:

هذه ساعات عجز الإنسان وكربته من الدنيا إلى الآخرة.

وهذه الساعات قائمة في حياة كل إنسان، تذكّرها أم لم يتذكرها، ولا تنتفي هذه الساعات إذا تناساها الإنسان وتغافل عنها... إلاّ أنه إذا تناساها وتغافل عنها.. تفاجؤه بغتة من غير استعداد لها.

وما أكثر ما تستغرق الإنسان ساعات الغفلة والنشوة والغرور والشهوة. وهذه الساعات تحجب العبد عن الله، وتعيق حركته إليه، بخلاف ما لو تذكّر ساعات ضعفه وعجزه وكربته فإنها تقرّبه إلى الله، وتعدّل سلوكه.

الساعات الضارة والنافعة في حياة الإنسان:

⇐

⇐

حياة الإنسان في الدنيا ساعتان: ساعة ضارة، وساعة مفيدة. أما الساعة الضارة فهي ساعات الغفلة والنشوة والغرور والشهوة في الدنيا.. وأما الساعات النافعة فهي الساعات التي يتذكّر فيها ضعفه وعجزه وكربته في الدنيا. والساعة الأولى تحجب الإنسان عن الله، وتغيّبه عنه الوعي والمعرفة، وتغيّبه عنه نفسه.

والساعة الثانية تعيده إلى الله، وتعيد إليه الوعي، وتعيد إليه نفسه.

وقد تكون الساعات الضارة في حياة الإنسان متخالفة، ولكنها على كل حال ساعات ضارة، كالغرور واليأس، فإنهما حالتان متعاكستان وكذلك (الغضب) و(الاسترخاء) فإنهما ساعتان مختلفتان متعاكستان ولكنهما على كل حال ساعتان ضارتان.

وفي مقابل الغرور: الإحساس بالفاقة إلى الله في كل شيء، وفي مقابل اليأس: التوكل على الله، والثقة بحول الله تعالى وقوته حالة نافعة للإنسان وساعة نافعة.

والعلامة الفارقة بين الساعات الضارة والنافعة أن الساعة الأولى تنسي الإنسان ذكر الله وتحجبه عن الله، والساعة الثانية تذكر الإنسان بالله.

ولكي يكون الإنسان على ذكر الله دائماً، ولا يغيب عن ذكر الله، فعليه أن يذكر ساعات عجزه وضعفه وكربته دائماً، ويذكر الموت وأهوال الآخرة ما بعد الموت، فإن التذكير يذكّر الإنسان بالله، ويعيده إلى الله.

ومن عجب أن تذكّر ساعات عجز الإنسان وكربته ومحنته في الدنيا والآخرة تعيد إلى قلبه وعقله ذكر الله، فتكون مصدر قوة في نفسه، لأن ساعة ذكر الله ساعة قوة ووعي وذكر، والاستغراق في نشوات الغرور والأنانية تحجبه عن الله، وإذا حجب الإنسان عن الله، نفد صبره وحوله وأصابه اليأس في مواجهة ابتلاءات الحياة الدنيا، وهو ساعة ضعف في حياة الإنسان.

إذن في حياة الإنسان ساعات ضارة وساعات نافعة، وفي حياة الإنسان ساعات قوة وساعات ضعف، وبين هذه الساعات تداخلات، وما يهمنا هنا في شرح هذه الفقرة من كلام الإمامعليه السلام:

إن على الإنسان أن يتذكّر دائماً ساعات ضعفه وعجزه وكربته في الدنيا والآخرة... فإن هذا التذكر يذكّره بالله، وذكر الله تعالى في حياة الإنسان نور وقوة.

وهاتان معادلتان تنفع الإنسان معرفتهما.

المعادلة الأولى أن ذكر الموت ومفارقة الدنيا، وأهوال ما بعد الموت، والقبر، والبرزخ، والحشر، والحساب، والصراط، والنار، والميزان، وعذاب القبر، وعذاب النار، وسائر أهوال القيامة يذكر الإنسان بالله تعالى لا محالة، ويلجأ الإنسان فيها إلى الله، ويستغيث بالله، ويستعين بالله، ويستغفر الله.

والمعادلة الثانية أن ذكر الله نور وقوة وطمأنينة في حياة الناس (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

⇐

يا سَيِّدي اِنْ وَكَلْتَني اِلى نَفْسي هَلَكْتُ[(١)]، سَيِّدي فَبِمَنْ اَسْتَغيثُ اِنْ لَمْ تُقِلْني

⇒

وعلى العكس التربية المادية الغربية التي تنصح الناس بالابتعاد عن ذكر الموت ومصائب الدنيا وكربات الآخرة، وساعات العجز والضعف والابتلاء، لأنها تورث الكآبة والحزن للإنسان... على عكس هذه التربية تنصح التربية الإسلامية الناس ان لا يفارقوا ذكر الموت وكرباته ولحظات عجزهم ومحنتهم. عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أفضل الزهد في الدنيا ذكر الموت، وأفضل العبادة التفكر**» (كنز العمال/ ٤٢١٠٤).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «**أفضل الزهد في الدنيا ذكر الموت، وأفضل العبادة ذكر الموت، فمن أثقله ذكر الموت وجد قبره روضة من رياض الجنة**» (جامع الأخبار ٤٧٣ / ١٣٣٤ ، نقلاً عن ميزان الحكمة ٩ / ٣٩٢١).

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**». فقيل: يا رسول الله صلى الله عليه وآله، فما هادم اللذات؟ قال: **الموت، فإن أكيس المؤمنين أكثرهم ذكراً للموت، وأشدهم له استعداداً**» (بحار الأنوار ٨٢ / ١٦٧).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أكثروا ذكر الموت، فإنه يمحص الذنوب، ويُزهّد في الدنيا، فإن ذكرتموه عند الغنى هدمه، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم**» (كنز العمال/ ٤٢٠٩٨).

وعنه صلى الله عليه وآله: «**أكثروا ذكر الموت فما من عبد أكثر ذكر الموت إلاّ أحيى الله قلبه وهوّن عليه الموت**» (كنز العمال / ٤٢١٠٥).

وعن علي عليه السلام:

«**اذكروا هادم اللذات، ومنغص الشهوات، وداعي الشتات. اذكروا مفرّق الجماعات، ومباعد الامنيات، ومُدني المنيّات، والمؤذن بالبين والشتات**» (غرر الحكم للآمدي / ٢٥٧٥ / ٢٥٧٦).

إن التربية الغربية لا تمنح الناس السعادة النفسية – كما يتصور بعض الناس – وإنما هي الهروب عن النفس ومصيرها وعاقبتها، ولا ينفع الإنسان هذا الهروب، فإن مثل هذا الهروب مثل ما يفعله طير (الغبج) عندما يلاحقه الصياد، فيدفن رأسه في الثلج لئلا يشهد الصياد، وهو يحسب أنه إذا غاب هو عن الصياد، فإن الصياد يغيب عنه أيضاً.

هذا هو خطأ الحضارة الغربية والتربية المادية في الغرب القائمة على أساس الهروب من الواقع.

(١) منازل الآخرة رهيبة وصعبة، إذا أوكل الله تعالى عبداً إلى نفسه وعمله هلك.

وثقة العبد في المنازل الرهيبة التي تستقبله من حين الموت برحمته وفضله، وليس بعمله وجهده.

وقد ورد في نصوص أدعية أهل البيت عليهم السلام كثيراً هذا المضمون «**اللهم لا تكلني إلى نفسي، فإنك إن وكلتني إلى نفسي هلكت**».

وهذه النقطة بالذات هي النقطة الفارقة بين التربية المادية للحضارة الجاهلية في الغرب ومنهج التربية

⇐

عَثْرَتي؟ فَإِلى مَنْ اَفْزَعُ اِنْ فَقَدْتُ عِنايَتَكَ في ضَجْعَتي؟ وَاِلى مَنْ اَلْتَجِئُ اِنْ لَمْ تُنَفِّسْ كُرْبَتي؟

سَيِّدي، مَنْ لي؟ وَمَنْ يَرْحَمُني اِنْ لَمْ تَرْحَمْني؟ وَفَضْلَ مَنْ اُؤَمِّلُ اِنْ عَدِمْتُ فَضْلَكَ يَوْمَ فاقَتي؟ وَاِلى مَنِ الْفِرارُ مِنَ الذُّنُوبِ اِذَا انْقَضى اَجَلي؟[1].

⇒

الإسلامية... فإن قيمة الإنسان في التربية المادية في الغرب هو الاعتماد على النفس، والثقة بالنفس، وقيمة الإنسان في منهج التربية الإسلامية هو الاعتماد على الله تعالى والثقة به.

والمنهجان يقعان في خطّين متقابلين متعاكسين. وليس معنى الاعتماد على الله والثقة بتسديده وتأييده، سوء الاعتماد على النفس وكفاءاتها وقدراتها.

بل معنى ذلك أن الإنسان يستمد الكفاءة والتأييد والتسديد والقوة لنفسه من عند الله، ويشعر بأن ما عنده من كفاءة، وسداد، وقوة فهو من عند الله.

(١) منازل الاضطرار:

هذه منازل الاضطرار، حيث لا يجد الإنسان أمامه من يستغيث به، ويفزع إليه غير الله.

وبمن يستغيث إذا انقطع عن الدنيا، وووري في التراب، وتجسدت أمامه عثراته وسيئاته إلى من يلوذ يومئذ غير الله؟

وإلى من يفزع الإنسان يومئذ، وهو في مضجعه الأخير، ولا يجد من يفزع إليه من ذنوبه غير الله؟

وإلى من يلتجأ الإنسان في ذلك اليوم الرهيب؟

وإلى من يفرّ بذنوبه إذا انقضى أمده في هذه الدنيا غير الله؟

يومئذ يدرك الإنسان معنى الاضطرار حق الإدراك.

معنىً الاضطرار:

والاضطرار هو أن يفقد الإنسان أمامه مسالك الخيارات كلها إلاّ خياراً واحداً، يضطر إليه.

فلو أن إنساناً أراد أن يغادر محل عمله إلى داره لوجد أسباباً كثيرة للوصول إلى داره من وسائل النقل والسير ماشياً إلى بيته، ولكن إذا حدث خلل في الطائرة التي يقلّها على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدماً من الأرض، وأخذت تهتز كالسعفة في اعماق الجوّ، فلا يبقى خيار للمسافرين إلاّ اللجوء إلى الله تعالى... فلو أن أهل الأرض جميعاً أرادوا أن ينقذوهم لم ينقذوهم.

هذا هو معنى الاضطرار يفقد الإنسان كل الخيارات إلاّ خياراً واحداً يضطر الإنسان إليه، ولا تبقى له مندوحة ولا سعة في الاختيار.

وهذه الحالة من الاضطرار عند اللجوء إلى الله تعالى في الدعاء هي التي تشير إليها آية سورة النمل

⇐

⇐

في استجابة الدعاء ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.. فإن من يلجأ إلى الله، مضطراً، ولا يجد غير الله من يلجأ إليه، لا تتخطّاه الإجابة البتة، إلاّ أن يكون في تأخير الإجابة أو تبديلها مصلحة يعرفها الله تعالى ولا يعرفها (راجع كتاب الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام/ للمؤلف).

فإذا أراد العبد أن يدعو الله تعالى في حاجة من حاجاته لدنياه، أو آخرته، فليحرص أن يقبل على الله بالدعاء في حالة الاضطرار، ليشمله وعد الله بالاستجابة لدعائه في آية سورة النمل.

روي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى بن مريم عليه السلام:

«**ادعني دعاء الحزين الغريق، الذي ليس له مغيث. يا عيسى، سلني، ولا تسل غيري، فيحسن منك الدعاء ومني الإجابة**» (وسائل الشيعة: ٤/ ١١٧٤/ ح ٨٩٨٥).

وفي مناجاة لأمير المؤمنين عليه السلام: «**إلهي لا تشبه مسألتي مسألة السائلين، لأن السائل إذا مُنع امتنع، وأنا لا غناء بي عن مسألتك**» (البلد الأمين: ٣١٦).

الانقطاع والاضطرار:

ويتساءل المؤمنون: وأنّى لنا أن نحقّق حالة الاضطرار في نفوسنا في دعواتنا.. وهي حالة تكوينية واقعية، تحصل حيناً ولا تحصل أحياناً.. وليس في كل حين يشعر الإنسان بالاضطرار في الدعاء، كما يشعر ركاب الطائرة التي تغوص في أعماق الجوّ إذا أصابها خلل فني.

وللإجابة على هذا السؤال نقول:

إن كل الناس في كل حاجاتهم - بدون استثناء - في حالة الاضطرار إلى الله، غير أن وعي الاضطرار لا يتسنّى لكل أحد الاّ نادراً، كما ان الناس كلهم فقراء إلى الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ﴾ (فاطر: ١٥)، ولكن ليس كل أحد يعي هذا الفقر، كذلك الاضطرار فإن الناس كلهم مضطرون إلى الله في كل حاجاتهم وشؤونهم، ولكن ليس كل أحد يعي هذا الاضطرار.

فما من حاجة للإنسان إلاّ والإجابة فيها بيد الله تعالى، وحسب، والأسباب التي يسعى إليها الناس في قضاء حوائجهم كلها من عند الله، وخاضعة لأمر الله، وتوجد وتستجيب للإنسان بإذن الله، فلو طلب الإنسان الرزق في السوق، ووجد أبواب الرزق أمامه مفتوحة في السوق، باباً باباً، فليس معنى ذلك أن أمامه مجموعة من الخيارات في ابتغاء الرزق، وواحدة من هذه الخيارات هو الدعاء وابتغاء الرزق من عند الله.

فإن هذه الأبواب كلها من خلق الله، وبيد الله، ويملك الله تعالى أزمّتها ويحكمها، ويتحكم فيها، وكم من نشيط ذكي يذهب الى السوق فتنغلق عليه أبواب الرزق، فلا يجد سبيلاً إلى الرزق، في عرض السوق وطوله، وكم من ضعيف بليد يرزقه الله تعالى.. وهذا هو معنى التوحيد في الرزق.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦).

⇐

⇒

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٨) .

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ (سبأ: ٢٤).

﴿اللَّهُ يُبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد: ٢٦).

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (سبأ: ٣٦).

وليس هذا بمعنى ان الإنسان لا يطلب الرزق من أبوابه، فإن الله تعالى يأمر الناس أن يطلبوا أرزاقهم من أبوابها.

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ﴾ (الملك: ١٥).

ولكن معنى ذلك أن يعرف الانسان أن أبواب الرزق وأسبابه كلها بيد الله، وإنما ترزقه هذه الأسباب بإذن الله وأمره.

فإذا وعى الإنسان هذه الحقيقة التوحيدية الكبرى علم أن الرزق كله بيد الله، ولا يرزقه أحد غير الله، وعلم ان الشفاء كله بيد الله تعالى، وأن الطب والدواء أسباب سخرها الله تعالى لعلاجه.

وعلم أن النصر بيد الله تعالى فقط، وأن السلاح والقيادة والعُدّة والعدد والتخطيط أسباب سخّرها الله لنا.. وإذا شاء الله عطل هذه الأسباب ونقضها، وحال بيننا وبين النصر.

فقد نصر الله تعالى المؤمنين ببدر وهم أذلّة ضعفاء.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران: ١٢٣).

وهُزموا في حنين وهم كثرة، أقوياء، سادة الجزيرة.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ (التوبة: ٢٥).

﴿كَمْ مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩)

ذلك كلّه لنعلم أن النصر من عند الله.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: ١٠، آل عمران: ١٣٦).

وأن الشفاء من عند الله.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٨٠).

وأن الرزق من عند الله.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦).

﴿اللَّهُ يُبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد: ٢٦).

﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الزمر: ٥٣).

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الشورى:١٢).

وإذا وعى الإنسان هذه الحقائق يعرف: أنه مضطر إلى الله في كل شأن من شؤونه.

⇐

⇐

فإذا سعى إلى الرزق، فإن الرزق بيد الله تعالى وحده، وهو مضطر إلى الله في تحصيل الرزق.

وإذا سعى إلى الشفاء، عرف أن الشفاء بيد الله، وهو مضطر إلى الله في تحصيل الشفاء.

وإذا سعى إلى النصر عرف ان النصر كلّه بيد الله، ولا سبيل له إلى تحقيق شيء من النصر إلاّ إذا أراد الله.

عندئذ يعي الإنسان معنى الاضطرار إلى الله تعالى في كل شأن من شؤونه، وكل حاجة من حاجاته.

وكل دعاء له يكون حينئذ عن اضطرار، ويقترن بالاستجابة، كما وعدنا الله تعالى إلاّ أن يكون في تأخير الإجابة أو تبديله مصلحة للعبد، لا يعرفها العبد ويعرفها الله.

وهذا هو وعي الاضطرار، وأنّ كل الناس في كل شؤونهم مضطرون إلى الله تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥).

والفقر هو الاضطرار، ولا معنى للفقر غير الاضطرار.

ولكن من يعي هذا الاضطرار من الناس قليل... إن الناس مضطرون إلى الله، ولكنهم لا يعون هذا الاضطرار. فيا بؤس الإنسان وشقاؤه!! يضطر إلى الله تعالى في كل شأن من شؤونه، وفي كل حاجة من حاجاته، وهو لا يعي ولا يعرف هذا الاضطرار.

والاضطرار في آية النمل هو وعي الاضطرار، وليس واقع الاضطرار.

ووعي الاضطرار هو الانقطاع إلى الله حيث يقطع الإنسان أمله، ورجاءه عن كل الاسباب، ويحصر أمله ورجاءه في الله تعالى.

فإن الانقطاع إلى الله ذو وجهين:

الوجه الأول: هو القطع عن كل سبب غير الله.

والوجه الثاني: هو حصر الطلب والسؤال والرجاء في الله تعالى.

والانقطاع عمل اختياري، يقطع فيه الإنسان باختيار ومعرفة أمله وطلبه عن كل سبب غير الله، ويحصر كلّ أمله ورجائه وطلبه في الله تعالى، فيدعو الله تعالى في الرخاء دعاء المضطر.

في الدعاء عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«**واجعلني ممن يدعوك في الرخاء دعاء المضطرين لك**» (الصحيفة السجادية / دعاء ٢٢).

ويقول أيضاً: «**اللهم إني أخلصت بانقطاعي إليك، وأقبلت بكلّي عليك، وصرفت وجهي عمن يحتاج إلى رفدك، وقلّبت مسألتي عمن لا يستغني عن فضلك، ورأيت أن طلب المحتاج إلى المحتاج سفه في رأيه، وزلّة من عقله**» (الصحيفة السجادية / دعاء ٢٨).

كيف يلجأ الإنسان إلى الله في أيام اضطراره

فإذا عرف الإنسان اضطراره إلى الله تعالى في منازل الآخرة، وعرف أن لا سبيل له إلى تجاوز ذلك

⇐

سَيِّدي لا تُعَذِّبْني وَاَنَا اَرْجُوكَ(١).

اِلهي حَقِّقْ رَجائي، وَآمِنْ خَوْفي، فَاِنَّ كَثْرَةَ ذُنُوبي لا اَرْجُو فيها اِلاّ عَفْوُكَ.

⇐

اليوم، ولابدّ له من استقبال تلك المنازل، ولا خيار له في تلك المنازل الصعبة إلاّ اللجوء إلى الله.. فلابدّ له من أن يسعى من الحياة الدنيا قبل أن يفارقها إلى تحصيل مرضاة الله لتلك المنازل في الآخرة.

وسبيل الإنسان لتحصيل مرضاة الله في تلك المنازل الرهيبة هي طاعة الله تعالى والاستجابة لأمره في الدنيا.

تأمّلوا في هذه الآية الكريمة:

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ (الشورى: ٤٧).

يدعو الله تعالى عباده للاستجابة لأمره في الحياة الدنيا، قبل أن يأتي اليوم الموعود الذي لا مردّ له، ولا يمكن تجاوزه.. وعندئذ لا ملجأ لكم من الله إلاّ الله، ولا مجال للإنسان من الهروب عن الله، (ما لكم من ملجأ يومئذ)، ولا ينفعه إنكار ذنوبه وسيئاته بين يدي الله (وما لكم من نكير).

(١) إن الله تعالى كريم، وواهب الكرم للكرام، والكريم لا يعذب من يرجو عفوه وتجاوزه.

وإن الله عند حسن ظن عبده.

في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي، فلا يظن بي إلاّ خيراً**» (الميزان ٢: ٣٧).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**».

وأوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام: «**ما دعوتني ورجوتني فإني سامع لك**» (وسائل الشيعة ٤ : ١١٠٥).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «**إذا دعوت فأقبل بقلبك وظن حاجتك بالباب**» (أصول الكافي: ٥١٩، ووسائل الشيعة ٤ : ١١٠٥).

وفي الدعاء الذي علّمه أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد النخعي رحمه الله:

«**يا مَوْلايَ فَكَيْفَ يَبْقى في الْعَذابِ وَهُوَ يَرْجُو ما سَلَفَ مِنْ حِلْمِكَ؟ اَمْ كَيْفَ تُؤْلِمُهُ النّارُ وَهُوَ يَأْمَلُ فَضْلَكَ وَرَحْمَتَكَ؟ اَمْ كَيْفَ يُحْرِقُهُ لَهيبُها وَاَنْتَ تَسْمَعُ صَوْتَهُ وَتَرى مَكانَهُ؟ اَمْ كَيْفَ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ زَفيرُها وَاَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفَهُ؟ اَمْ كَيْفَ يَتَقَلْقَلُ بَيْنَ اَطْباقِها وَاَنْتَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ؟ اَمْ كَيْفَ تَزْجُرُهُ زَبانِيَتُها وَهُوَ يُناديكَ يا رَبَّهُ؟ اَمْ كَيْفَ يَرْجُو فَضْلَكَ في عِتْقِهِ مِنْها فَتَتْرُكُهُ فيها؟.. هَيْهاتَ ما ذلِكَ الظَّنُّ بِكَ وَلاَ الْمَعْرُوفُ مِنْ فَضْلِكَ وَلا مُشْبِهٌ لِما عامَلْتَ بِهِ الْمُوَحِّدينَ مِنْ بِرِّكَ وَاِحْسانِكَ**».

سَيِّدي اَنَا اَسْأَلُكَ ما لا اَسْتَحِقُّ وَاَنْتَ اَهْلُ التَّقْوى وَاَهْلُ الْمَغْفِرَةِ، فَاغْفِرْ لي وَاَلْبِسْني مِنْ نَظَرِكَ ثَوْباً يُغَطّي عَلَيَّ التَّبِعاتِ(١)، وَتَغْفِرُها لي وَلا اُطالَبُ بِها، اِنَّكَ ذُو مَنٍّ قَديمٍ، وَصَفْحٍ عَظيمٍ، وَتَجاوُزٍ كَريمٍ.

اِلهي اَنْتَ الَّذي تُفيضُ سَيْبَكَ عَلى مَنْ لا يَسْأَلُكَ، وَعَلَى الْجاحِدينَ بِرُبُوبِيَّتِكَ، فَكَيْفَ سَيِّدي بِمَنْ سَأَلَكَ وَاَيْقَنَ اَنَّ الْخَلْقَ لَكَ، وَالأَمْرَ اِلَيْكَ، تَبارَكْتَ وَتَعالَيْتَ يا رَبَّ الْعالَمينَ(٢).

سَيِّدي عَبْدُكَ بِبابِكَ أقامَتْهُ الْخَصاصَةُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَقْرَعُ بابَ اِحْسانِكَ بِدُعائِهِ، وَيَسْتَعطِفُ جَميلَ نَظَرِكَ بِمَكْنُونِ رَجائِهِ، فَلا تُعْرِضْ بِوَجْهِكَ الْكَريمِ عَنّي، وَاَقْبَلْ مِنّي ما اَقُولُ(٣).

فَقَدْ دَعَوْتُ بِهذَا الدُّعاءِ وَاَنَا اَرْجُو اَنْ لا تَرُدَّني، مَعْرِفَةً مِنّي بِرَأْفَتِكَ وَرَحْمَتِكَ.

اِلهي اَنْتَ الَّذي لا يُحْفيكَ سائِلٌ، وَلا يَنْقُصُكَ نائِلٌ، اَنْتَ كَما تَقُولُ وَفَوْقَ ما نَقُولُ.

اَللّهُمَّ اِنّي اَسْأَلُكَ صَبْراً جَميلاً، وَفَرَجاً قَريباً، وَقَولاً صادِقاً، وَاَجْراً عَظيماً(٤).

اَسْأَلُكَ يا رَبِّ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ ما عَلِمْتُ مِنْهُ وَما لَمْ اَعْلَمْ، اَسْأَلُكَ اللّهُمَّ مِنْ خَيْرِ ما سَأَلَكَ مِنْهُ عِبادُكَ الصّالِحُونَ.

يا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ، وَاَجْوَدَ مَنْ اَعْطى، اَعْطِني سُؤْلي في نَفْسي، وَاَهْلي، وَوالِدَيَّ، وَوَلَدي، وَاَهْلِ حُزانَتي وَاِخْواني فيكَ، وَاَرْغِدْ عَيْشي، وَاَظْهِرْ مُرُوَّتي، وَاَصْلِحْ جَميعَ اَحْوالي، وَاجْعَلْني مِمَّنْ اَطَلْتَ عُمْرَهُ، وَحَسَّنْتَ عَمَلَهُ، وَاَتْمَمْتَ عَلَيْهِ نِعْمَتَكَ،

---

(١) ....

(٢) ....

(٣) ....

(٤) ....

وَرَضيتَ عَنْهُ وَاَحْيَيْتَهُ حَياةً طَيِّبَةً في اَدْوَمِ السُّرُورِ، وَاَسْبَغِ الْكَرامَةِ، وَاَتَمِّ الْعَيْشِ، اَنَّكَ تَفْعَلُ ما تَشاءُ وَلا يَفْعَلُ ما يَشاءُ غَيْرُكَ.

اَللّهُمَّ خُصَّني مِنْكَ بِخاصَّةِ ذِكْرِكَ، وَلا تَجْعَلْ شَيْئاً مِمّا اَتَقَرَّبُ بِهِ في آناءِ اللَّيْلِ وَاَطْرافِ النَّهارِ رِياءً وَلا سُمْعَةً وَلا اَشَراً وَلا بَطَراً، وَاجْعَلْني لَكَ مِنَ الْخاشِعينَ.

اَللّهُمَّ أعْطِني السِّعَةَ في الرِّزْقِ، وَالأَمْنَ في الْوَطَنِ، وَقُرَّةَ الْعَيْنِ فِي الأَهْلِ وَالْمالِ وَالْوَلَدِ، وَالْمُقامَ في نِعَمِكَ عِنْدي، وَالصِّحَّةَ في الْجِسْمِ، وَالْقُوَّةَ في الْبَدَنِ، وَالسَّلامَةَ في الدّينِ، وَاسْتَعْمِلْني بِطاعَتِكَ وَطاعَةِ رَسُولِكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اَبَداً مَا اسْتَعْمَرْتَني، وَاجْعَلْني مِنْ اَوْفَرِ عِبادِكَ عِنْدَكَ نَصيباً في كُلِّ خَيْرٍ اَنْزَلْتَهُ وَتُنْزِلُهُ في شَهْرِ رَمَضانَ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَما اَنْتَ مُنْزِلُهُ في كُلِّ سَنَةٍ مِنْ رَحْمَةٍ تَنْشُرُها، وَعافِيَةٍ تُلْبِسُها، وَبَلِيَّةٍ تَدْفَعُها، وَحَسَناتٍ تَتَقَبَّلُها، وَسَيِّئاتٍ تَتَجاوَزُ عَنْها، وَارْزُقْني حَجَّ بَيْتِكَ الْحَرامِ في عامِنا هذا وَفي كُلِّ عامٍ، وَارْزُقْني رِزْقاً واسِعاً مِنْ فَضْلِكَ الْواسِعِ، وَاصْرِفْ عَنّي يا سَيِّدي الأَسْواءَ، وَاقْضِ عَنِّيَ الدَّيْنَ وَالظُّلاماتِ، حَتّى لا اَتَاَذّى بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَخُذْ عَنّي بِاَسْماعِ وَاَبْصارِ اَعْدائي وَحُسّادي وَالْباغينَ عَلَيَّ، وَانْصُرْني عَلَيْهِمْ، وَاَقِرَّ عَيْني وَفَرِّحْ قَلْبي، وَاجْعَلْ لي مِنْ هَمّي وَكَرْبي فَرَجاً وَمَخْرَجاً، وَاجْعَلْ مَنْ اَرادَني بِسُوءٍ مِنْ جَميعِ خَلْقِكَ تَحْتَ قَدَمَيَّ، وَاكْفِني شَرَّ الشَّيْطانِ، وَشَرَّ السُّلْطانِ، وَسَيِّئاتِ عَمَلي، وَطَهِّرْني مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّها، وَاَجِرْني مِنَ النّارِ بِعَفْوِكَ، وَاَدْخِلْني الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِكَ، وَزَوِّجْني مِنَ الْحُورِ الْعينِ بِفَضْلِكَ، وَاَلْحِقْني بِاَوْلِيائِكَ الصّالِحينَ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الأَبْرارِ الطَّيِّبينَ الطّاهِرينَ الأَخْيارِ صَلَواتُكَ عَلَيْهِمْ وَعَلى اَجْسادِهِمْ وَاَرْواحِهِمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ.